فرانتس كافكا

الدودة الهائلة

الأعمال الكاملة 1



29

ترجمة: الدسوقي فهمي

الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق الترجمة

آفاق الترجمة
يونيو ١٩٩٧

٢٩

الهيئة العامة
لقصور الثقافة

الدودة الهائلة

(كافكا، الأعمال الكاملة ـ 1)

قصص : **فرانتس كافكا**

ترجمة : **الدسوقي فهمي**

لوحة الغلاف
للفنان الدسوقي فهمي

تصميم الغلاف
عمر جهان

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
حسين مهران

رئيس التحرير التنفيذى
على أبو شادى
نائب رئيس التحرير
محمد كشيك

المشرف العام
د. شاكر عبد الحميد
مدير التحرير
محمد عبد ابراهيم

سكرتير التحرير : **صادق شرشر**

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١٦ ش أمين سامى - القصر العينى - القاهرة. رقم بريدى ١١٥٦١

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Metamorphosis

and other stories,

Franz Kafka,

Penguin Modern Classics, 1958

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

تقديم

سبق أن نشرت ترجمتى لقصة «التحول» فى جريدة المساء على ثمانى حلقات يومية مصحوبة برسومى لها بدءاً من ٦٨/٩/٤ وحتى ١٩٦٨/٩/٢٠، بإشراف «عبد الفتاح الجمل» وقتها تحت عنوان «المسخ»، وأرى الآن أن تنشر ضمن مجموعتها الكاملة التى نشرت هذه القصة فى بدايتها، وتحت العنوان الذى اخترته لها وهو «التحول».

أيضاً توجد ضمن قصص هذه المجموعة قصة «الدودة الهائلة» وقد نشرت فى المساء على يومين متتاليين (١٧ و١٨ ـ ٨ ـ ٦٨) وعنوان القصة ربما كان ينبغى له أن يكون كما يشير بذلك العنوان الأصلى (حيوان الخُلْد هائل الحجم)، لكن تم تكثيف العنوان على كلمتين لم تتجاوزا المعنى، هما (الدودة الهائلة)، «فالخلد كائن فى حجم الدودة تقريباً؛ وهو فى القصة يمثل «الشىء» أو الموضوع الذى تتمثل أو تتجسد فيه الآمال الدفينة بالغة التهويل، تلك الآمال التى يعلقها الإنسان على «ما يعتقده من عقائد مقدسة»، ولا يتبيَّن لا «العلماء» ولا الجمهور، الأهمية الكاملة المتمثلة فى ذلك التهويل، أو تلك الضخامة الهائلة التى تتفجر متجاوزة نطاق «الواقع» المعقول القابل للتجربة أو للمعايشة.

إن من يؤمن بعقيدة ما، إيماناً عميقاً، بلا حدود؛ يمكنه وحده أن يفي هذا (الإيمان) ـ (الموضوع) حقه. وقد يتدخل (رجال الأعمال)، على أساس من موقف كوميدي (هزلي) اتخذه عدد كبير من الناس المهتمين «بالموضوع» بدافع من (عقيدتهم).

إن رجل الأعمال ليس مهتما (في القصة) بحيوان (الخلد) هائل الحجم، لكن اهتمامه ينصب فقط على (المدرس).

وبدلاً من الاهتمام بلا حد، ذلك الذي يشغل بال المدرس، يحل محله (عند رجل الأعمال) اهتمام مختلف كل الاختلاف، هو (الشفقة).

هذه هي وجهة النظر العامة التي يتطلع من خلالها الإنسان الحديث نحو الماضي التاريخي الذي خلفته العقيدة وراءها. فالحقيقة إنما تثير اهتمامه فقط من أجل ذلك الإنسان (المدرس).

ويبدو العالم الذي يتكشف للقارئ في تلك القصة (التي لم تكتمل كتابتها) بعنوان (أبحاث كلب) عالماً بالياً ـ متكرراً على نحو ما، والمعنى المباشر لهذه القصة (الأمثولة) هو العالم الذي يتعلق بوجود (الكلاب) كتشخيص ـ بين السطور ـ، يجد احتقاراً للذات، ويعكس إحساساً بالخزي من الوجود (البشري) وطبيعة هذا الوجود البشري، التي لم تبلغ بعد مرتبة الإنسانية. وانسياقاً مع ذلك، تبدو الكلاب الحقيقية لكافكا، بعاداتها العتيقة التي تتشبث بها، وتلتصق بها في شغف زائد، وقد تضافرت مع تلك العادات العتيدة، خيالات وأوهام غريبة، كأنما تجسد للقارئ صورة هنيئة، ربما تنعكس على مرآتها أشكال أخرى للوجود البشري، تختلف عن صورته الحالية النكدة.

إن الجو الذى تتحرك الكلاب فى إطاره هو جو تصوره (القصة) على أنه عالم يخْلُو من الفرح، عالم تحكمه الغرائز، وتتسلط عليه العادة «الروتينية»، وهو جو قد يثير مقارنة ما مع عالم التكرار اليومى، وهموم المعيشة التى يعيشها كبير الكتبة (ك.)، أو عالم أهالى القرية، فى أعمال كافكا الأخرى.

كما أن ثمة خاصية تتمثل فى قصص لكافكا اتخذ فيها السرد صيغة الجمع (نحن)، بدلاً من السرد من زاوية رؤية المفرد المتكلم (أنا).

فهذه الـ (نحن) تظهر بتأثير متماثل أو متشابه فى القصة (غير الكاملة أيضاً) (سور الصين العظيم) أو فى طبعة أخرى (عند بناء سور الصين العظيم). وهذه الـ (نحن) التى تقدم السرد، هى صيغة صريحة حميمية مفتوحة، تماثل الـ (نحن)، المستعملة فى الخطاب أو السرد داخل نطاق الأسرة الواحدة، وكما فى قصة (المغنية چوزفين) التى يستخدم فيها كافكا نفس الصيغة فى السرد (نحن)، يشعر القارىء بها وقد اتخذت نبرة أليفة محسوبة مبهجة ومؤثرة.

فقد أحس «الراوى» فى قصة (سور الصين العظيم) بحاجته إلى الحماية التى تكمن فى هذه الكلمة، فى غمار التوحد المنعزل فى صيغة الراوى، والسرد بضمير المتكلم المفرد.

وقد كتب (كافكا) قصة (الجحر) فى السنة الأخيرة من حياته، وكان قد أتم كتابتها، لكن ما تبقى من صفحاتها لا يكاد يكشف عن نهايتها للقارىء. والراوى (أنا) لهذا الجزء المتبقى من القصة؛ هو حيوان منعزل، وحيد، عصبى المزاج، أسلوبه فى الحياة، والطابع النفسى

لشخصيته يذكر القارىء على الفور «بالحفّار» أو ما يسمى بـ (الغرير) وهو حيوان ثديي يحفر لنفسه في باطن الأرض أوكاراً وممرات. فهو في القصة يعيش في داخل جحر يتألف من ممرات ممتدة، ومخازن وحفرات للنوم ونقاط للدفاع، كان قد حفرها كلها، عندما كان صغيراً، بعد أن قضى فترة تجوال بائسة. وفي إحدى المناسبات يسمع هذا الحيوان ضوضاء تتكرر؛ صادرة لابد عن عدو ما، ويتبدى له حينذاك عقم كل إجراءات الدفاع التي كان قد أعدّها ضد هذا العدو المجهول، ثم... تنتهي فجأة هذه القصة غير المكتملة بوصف لهذا الموقف اليائس. أما القصة في نسختها الكاملة، فكانت قد واصلت وصف المعركة التي دارت وانتهت بهزيمة العدو.

و(الجحر) هو رمز للأمان عندما يتحقق في الدنيا. «فالجحر» ليس مجرد (فجوة) يمكن اللجوء إليها؛ بل هو التعبير عن طبيعته الخاصة (طبيعة الجحر) التي لا يمكن فقدانها.

يقول (الحيوان) في القصة : «عندما أكمن في «الحصن»... تكون كل فكرة عن مجرد السلامة هي أبعد شيء عن ذهني، ذلك لأنني أعلم أنه هنا في هذا المكان يتواجد حصني... حصني الذي لا يمكن قط أن ينتمي إلى أي كائن آخر، والذي يكون في جوهره هو حصني أنا، وأنه بداخله يمكنني في هدوء أن أتقبل تلك الضربة المحتومة التي يوجهها لي عدوي في ساعة النهاية، ذلك أنّ دمي سوف يراق هنا فوق أرضي أنا؛ وأنه لهذا لن يضيع».

وبهذا يصبح الصراع في الدنيا جحيماً متحرك الزوايا، تتبادل فيه الحقائق أماكنها وأوضاعها، وتلتبس في كثافة حالكة مراوغة، متسلحة

بكلمات ملتبسة متشابهة،... لهذا يصبح الصراع صراعاً صلباً جهنميا له منطق، و«حوار» الخنجر ذى الحدَّين.

وإن كان الراوى فى قصة كافكا (عرب وبنات آوى) يصف جشع (بنات آوى) فى اشمئزاز، ويرى أن العين لا ترتاح فى نظرتها إلى واقع الدنيا ويرى أحد نقاد «كافكا» وهو (هربرت تاوبر) أن التهكم والسخرية الرافضة هى ما يسيطر على قصة (عرب وبنات آوى)، وليست نغمة المرح الحقة.

أما قصة (التحول) فهى تقدم للقارىء حالة من حالات (الفشل) تؤدى إلى (الموت)، وهى قصة تجسد أزمة (وجود) وتشير فى وضوح إلى (انقسام يقع نتيجة لتراكمات فيفصل بين الوعى واللاوَعْى) كما يقول عنها الناقد (بينو ڤون فيزه).

ويتمثل ذلك الانقسام فى بقاء (الذات) الحقيقية (المنسحبة فى عجز من المواجهة) فى البيت على هيئة حشرة هائلة الحجم تسترخى فى الفراش. بينما الجسد الذى يرتدى ملابس تلك «الذات» أى حرفياً الواجهة الخارجية لتلك «الذات»، تترنّح خارجة إلى اضطراب الدنيا الخارجية، وتقوم بالعمل (كبائع متجول).

ومن خلال «التحوُّل» ومبدؤه الأساسى هو الاغتراب عن الذات يكون هذا (الانقسام) هو المبدأ الذى يقوم عليه بناء القصة.

ويقوم مبدأ (الانقسام) كذلك، نتيجة للاغتراب أساساً فى قصص أخرى لكافكا تتفق مع قصة (التحوُّل) فى اتخاذها لموضوع (العقاب) أرضية لها، وهى قصة (فى مستعمرة العقاب) وقصة (الحكم).

أما (سور الصين العظيم) ففيها يعبّر السور عن إرادة لإقامة مملكة الرّب، أو إرادة تتشوق نحو الاكتمال الدنيوى، إلا أن هذا الاكتمال لا يتاح له أن يتحقق بصورة مباشرة، وإنما يتحقق فقط فى صورة (أبنية أو إنشاءات جزئية). فهذه الإنشاءات الجزئية هى (الاكتمالات) المنعزلة، الاكتمالات الخاصة، والتحققات النوعية الجزئية. وأنه ليس للإنسان سوى أن يحقق فقط أهدافاً فردية (شخصية / خاصة) ومحدودة.

وينشأ هذا أصلاً عن طبيعة الإنسان نفسه من ناحية؛ ذلك أن الإنسان لا يحتمل أى عبء يتجه وجهة لا نهائية، ولا يسعه أى جهد مطلق لا تلوح له أية إمكانية تجسد مرئية.

نشرت قصة (أبحاث كلب) فى «المساء» على حلقات خمس من ٦٩/٤/١٨ إلى ٦٩/٤/٢٧ - ونشرت (سور الصين العظيم) فى (جاليرى ٦٨) . و(الجحر) على سبع حلقات فى «المساء» من ٦٩/٢/٧ إلى ٦٩/٢/١٤ و(التحول) على ثمانى حلقات من ٦٨/٩/٤ إلى ١٩٦٨/٩/٢٠، مصحوبة كلها برسومى لها.

الدسوقى فهمى

التحول

الفصل الأول

استيقظ «جريجور سامسا» ذات صباح بعد أحلام مزعجة، فوجد نفسه قد تحول فى فراشه إلى حشرة هائلة الحجم. كان مستلقياً على ظهره الجامد الذى كان مقسما إلى أجزاء صلبة تشبه الدروع وعندما رفع رأسه قليلاً أمكنه أن يرى الجثة المقببة بنية اللون مقسمة إلى فصوص جامدة مستديرة. لم يكن غطاء الفراش مستقرا فوقها بعد، فى وضعه السابق بل لقد كان على وشك أن ينزلق تماما من فوقها. وكانت سيقانه العديدة التى كانت تبدو رفيعة على نحو بائس، بالنسبة لبقية جسمه تبدو مسننة أمام عينيه بصورة منفرة.

تفكر قائلا فى نفسه - ما الذى حدث لى؟.

لم يكن الأمر حلما.

كانت حجرته، حجرة نوم إنسان عادية إلا أنها تبدو فقط صغيرة للغاية على نحو ما، وكائنة وسط الجدران الأربعة المألوفة، وتعلو المنضدة التى كانت تنتشر فوقها أنواع من الملابس المبعثرة

المفكوكة - فقد كان بائعا متجولا - صورة معلقة كان قد قطعها أخيرا من إحدى المجلات المصورة ووضعها فى إطار رقيق مذهب كانت تبدو فيها سيدة ترتدى قبعة من الفراء وقميصا من الفراء، جاكتة فى وضع معتدل ومادة نحو المتفرج غطاء يد من الفراء كان ساعدها كله مختفيا في داخله.

ثم تحولت عينا جريجور بعد ذلك إلى النافذة وقد دفعته السماء المعتمة - كان في مقدور المرء أن يسمع وقع قطرات المطر فوق إطار النافذة - إلى الاكتئاب. فماذا لو استغرق فى النوم فترة أخرى قصيرة وتناسى ذلك الهراء كله؟. فكر فى ذلك إلا أنه لم يسعه أن يفعله لأنه كان معتادا أن ينام على جانبه الأيمن ولم يكن فى وسعه أن يستدير وهو فى حالته الراهنة ومهما حاول أن يميل جسمه بالقوة على جانبه الأيمن كان ينقلب ثانية فى كل مرة على ظهره دائما ولقد قام بهذه المحاولة مائة مرة على الأقل مغلقا عينيه، حتى لا يرى سيقانه المرتعشة ثم توقف عن المحاولة فقط حينما بدأ يشعر فى جانبه بألم لعين خفيف لم يسبق له أن عانى مثله من قبل.

تفكر قائلا : يا إلهى، أية مهنة مرهقة تلك التى اخترتها لنفسى متجولا يوما بعد آخر، إنه عمل أشد إثارة للسخط مما لو أدى المرء العمل نفسه في المتجر، وهناك فوق هذا كله متاعب السفر الدائمة من القلق على اللحاق بالقطار إلى الفراش، والوجبات غير المنتظمة والعلاقات العارضة التى تبقى علاقات جديدة دائما ولا تتمخض أبدا عن أصدقاء متآلفين فليأخذها الشيطان جميعا، أحس باحتكاك بسيط فوق بطنه فسحب نفسه ببطء على ظهره مقتربا من قمة الفراش حتى يتمكن من أن يرفع رأسه

بسهولة أكثر وتفحص الموضع الذى كان يشعر بتآكله فوجده محاطا بعديد من البقع البيضاء الصغيرة التى لم يمكنه أن يدرك طبيعتها وحاول أن يلمسها بإحدى سيقانه إلا أنه أعاد ساقه على الفور ثانية إلى مكانها ذلك أن الملامسة ولدت رعشة باردة سرت فى أوصاله.

انزلق هابطا مرة أخرى إلى وضعه السابق وتفكر قائلا فى نفسه إن هذا الاستيقاظ المبكر يصيب المرء بالغباء التام، إن المرء ليحتاج إلى كفايته من النوم وإن التجار الآخرين ليعيشون كهوانم الحريم فعندما عدت - مثلا - من تجوالى ذات صباح إلى الفندق لكى أدون الطلبات التى حصلت عليها كان هؤلاء الآخرون جالسين فحسب يتناولون إفطارهم فلأحاول فقط أن أجرب السلوك على هذا النحو مع رئيسى وسوف أفصل فى التو واللحظة، وعلى أى حال فربما كان فى هذا كل الخير لى من يدرى ولو لم يكن على أن أحتفظ بذلك العمل من أجل والدى لكنت قد أعلنت رأيى منذ وقت طويل ولكنت قد ذهبت إلى الرئيس وأخبرته صراحة برأيى فيه. وقد كان ذلك كفيلا بأن يطرحه أرضا من على مكتبه وإنها أيضا لطريقة شاذة فى السلوك تلك الجلسة إلى مكتب فى أعلى والتخاطب إلى أسفل مع العاملين وخاصة عندما يكون عليهم أن يقتربوا تماما بسبب ثقل سمع الرئيس. حسنا ما يزال هناك شعاع من الأمل فلقد كنت قد قررت أن أدخر مبلغا كافيا من المال لكى أتمكن من دفع ديون والدى له - ولسوف يستلزم منى خمس سنوات أخرى أو ستا وسوف أمضى فى هذا السبيل دون تراجع. حينئذ سوف يمكننى أن أسترد حريتى كاملة والآن يحسن لى رغم هذا أن أنهض فإن قطارى يتحرك فى الخامسة.

نظر إلى المنبه الذى كانت تتوالى دقاته من فوق الصندوق وحدث نفسه قائلاً - يا أبانا الذى فى السماء! كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف بينما كان العقربان يتحركان فى هدوء ولقد كانت الساعة قد تجاوزت النصف بعد السادسة بل لقد كانت تقترب من السابعة إلا ربعاً. ألم ينطلق رنين المنبه، كان فى مقدور المرء أن يرى من الفراش أنه كان مضبوطا بدقة على الساعة الرابعة ولقد انطلقت رناته بالطبع نعم لكن. هل من الممكن أن يبقى المرء نائما فى هدوء وسط مثل تلك الضجة التى تصم الآذان حسنا إنه لم ينم فى هدوء إلا أن الأمر كان يبدو كذلك كله فى الظاهر. لكن ما الذى سوف يفعله الآن، إن القطار التالى يمضى فى تمام السابعة ولكى يتمكن من اللحاق بذلك القطار فإن عليه أن ينطلق كالمجنون ولم تكن حتى «عيِّناته» قد حزمت بعد كما أنه هو نفسه لم يكن يشعر على وجه الخصوص بالانتعاش ولا بالنشاط. وحتى لو أنه تمكن من اللحاق بالقطار فليس فى وسعه حينذاك أن يتجنب وقوع عراك بينه وبين الرئيس لأن حمّال المتجر سيكون قد انتظر قطار الساعة الخامسة وسيكون قد سجل عدم حضوره، منذ ذلك الوقت لم يكن الحمّال سوى مخلوق غبى إمعة من أتباع الرئيس. حسنا فلنفرض أن بإمكانه أن يقول إنه كان مريضا إلا أن هذا العذر سوف لا يقبل أكثر من أى عذر آخر سواء، كما أنه سيبدو مثيرا للشك به أنه لم يسبق له أن مرض مرة واحدة طوال الأعوام الخمسة التى قضاها فى الخدمة ومن المؤكد أنه كان على الرئيس نفسه أن يحضر وبرفقته طبيب التأمين الصحى وكان سيعنف والديه لتكاسل ابنهم وسيقطع السبيل أمام مختلف الأعذار بإشارة من يده إلى طبيب

التأمين الذى يرى البشر جميعهم ـ طبعا ـ متمارضين فى تمام العافية فإلى أى حد كان خطؤه سيبدو فى هذه الحالة، كان جريجور يشعر أنه حقا على ما يرام فيما عدا نوع من الخمول الذى كان يبدو زائدا تماما عن المألوف بعد مثل ذلك الاستغراق الطويل فى النوم كما أنه كان جائعا جدا على غير العادة.

وبينما كان هذا كله يدور بغاية السرعة فى رأسه حين كان عاجزا عن أن يقرر مغادرة فراشه وكان المنبه قد أشار لتوه إلى السابعة إلا ربعا. انبعثت دقة واحدة على الباب خلف رأس فراشه وارتفع صوت ما ـ كان صوت أمه ـ قائلا ـ جريجور لقد بلغت الساعة الآن السابعة إلا ربعا ألن تسافر اليوم... ذلك الصوت الرقيق. أصيب جريجور بصدمة عندما استمع إلى صوته وهو يجيبها، كان صوته هو حقا دون شك إلا أنه كان مصحوبا بزقزقة صارخة مخيفة متصلة كانت تذيله كالهمس الذى كان يجعل الكلمات تخرج فى جرسها الواضح فقط للوهلة الأولى لكن أصداءه كانت ترتفع متكسرة حولها لتشوه وقعها حتى أنه لم يكن يسع المرء أن يتثبت من أنه قد سمعها بوضوح. وقد أراد جريجور أن يجيب فى النهاية وأن يشرح كل شىء إلا أنه قصر نفسه لظروفه تلك فقط على أن يقول.. نعم.. نعم أشكرك يا أمى سوف أنهض الآن ويبدو أن الباب الخشبى الذى كان يفصلهما لابد قد تسبب فى ألا يبدو التغيير فى صوته ملحوظا خارجه ذلك أن والدته قد قنعت بذلك الرد ومضت مبتعدة إلا أن تلك الكلمات القصيرة المتبادلة قد تسببت فى إزعاج باقى أفراد الأسرة عندما تبينوا منها أن جريجور كان ما يزال بالمنزل على عكس ما كانوا يتوقعون وكان والده قد شرع

يطرق أحد الأبواب الجانبية بقبضته في رفق منادياً ـ جريجور.. جريجور ما الذى حدث لك. ثم راح ينادى ثانية بعد قليل بصوت أكثر ارتفاعا ـ جريجور.. جريجور.. وأمام الباب الداخلى الآخر كانت أخته تقول في صوت خفيض باك ـ جريجور ألست على ما يرام هل تحتاج إلى أى شيء، وأجابهما معا على الفور قائلا ـ إننى جاهز الآن، باذلا كل جهده في أن يجعل صوته يبدو عاديا بقدر الإمكان ناطقا الكلمات بكل وضوح وتاركا لحظات من الصمت بين كل كلمة والأخرى وعلى هذا فقد مضى والده عائدا لتناول إفطاره لكن شقيقته همست قائلة ـ جريجور افتح الباب، افتحه و.. مع ذلك فلم يكن ليفكر في فتح الباب وشعر بالامتنان لتلك العادة الحكيمة التى اكتسبها من أسفاره وهى تعوده على إغلاق كل الأبواب أثناء الليل حتى في المنزل.

كان أول ما ينوى أن يفعله هو أن ينهض فى هدوء دون أن يزعجه أحد و.. أن يرتدى ملابسه وأهم من هذا كله أن يتناول إفطاره ثم بعد ذلك يتدبر ما الذى يجب عليه أن يفعله فقد كان منزعجا جدا وهو فى فراشه ولم تكن تأملاته تنتهى إلى نهاية معقولة وتذكر أنه غالبا ما أحس بآلام وأوجاع خفيفة ربما كانت قد سببتها له الأوضاع غير الصحيحة التى كان يتخذها أثناء نومه وكان يتأكد عندما كان ينهض فى كل مرة أنها لم تكن سوى محض خيالات ولقد كان يتطلع فى لهفة إلى رؤية أوهام هذا الصباح وهى تنقشع هى أيضا. وأن يتضح له أن التغيير فى صوته لم يكن سوى نذير بنوبة برد شديدة وهى علة التجار الجوالين العتيدة... لم يكن لديه أدنى شك فى ذلك.

كان طرح الغطاء أمرا سهلا للغاية، لم يكن عليه سوى أن ينكمش قليلاً على نفسه وسوف ينزلق الغطاء تلقائيا إلا أن الحركة التى تلى ذلك هى ما كانت تشق عليه خاصة وأنه كان عريض الجسم بصورة غير عادية، ولسوف يحتاج إلى أذرع وأيد لكى يرفع نفسه إلى أعلى إلا أنه لم يكن له بدلا من ذلك فقط سوى تلك الأرجل العديدة الضئيلة التى لم تتوقف عن الاضطراب فى كل الاتجاهات والتى لم يكن بوسعه أن يتحكم فيها.

وعندما حاول أن يثنى واحدة من تلك السيقان وجدها قد فردت نفسها تماما على الفور و.. عندما نجح فى ثنيها أخيرا كما أراد اضطربت بقية السيقان جميعا فى نفس الوقت اضطرابا أشد عنفا فتذبذبت فى صورة غاية فى الفظاعة.

وحدث جريجور نفسه قائلا : وما فائدة الاستلقاء كسلا فى الفراش إذن وفكر أنه ربما يمكنه أن يغادر الفراش بالجزء الأسفل من جسمه أولا إلا أن الجزء الأسفل من جسمه الذى لم يكن قد رآه ولم يكن حتى قد تمكن من أن يكوّن فكرة واضحة عنه كان من الصعب جدا أن يتحرك كما اتضح من المحاولة، كان يتململ فى بطء شديد، وعندما تملكه الضيق فى النهاية ودفعه إلى أن يجمع كل قواه مندفعا فى تهور إلى خارج الفراش كان قد أخطأ فى توجيه حركته وانحط فى عنف بجزئه الأسفل فى أسفل الفراش و.. هيأ له الألم الشديد الذى أحسه فى تلك اللحظة أن ذلك الجزء الأسفل من جسمه ربما كان بالتحديد هو أكثر أجزاء جسمه حساسية.

وعلى هذا فقد حاول أن ينهض بالجزء الأعلى من جسمه أولا ورفع رأسه بحذر متجها نحو حافة الفراش وبدا ذلك سهلا إلى حد بعيد، وتبع جذعه حركة رأسه أخيرا في بطء على الرغم من تلاحق أنفاسه وثقل جسمه... لكنه حتى عندما كان قد أخرج رأسه تماما خارج الفراش كان يحس بالفزع ما يزال يتملكه، الفزع الشديد من الاستمرار في محاولته ذلك أنه لو ترك جسمه يسقط على هذا النحو في نهاية الأمر فلن يسلم رأسه من الجراح سوى بمعجزة، ومهما كان الثمن فقد كان عليه ألا يفقد وعيه الآن، والآن على وجه التحديد كان هو الوقت الذى يجب عليه فيه أن يبقى فى الفراش.

لكنه بعد أن استقر ثانية في وضعه السابق متنهدا بعد تكرار المحاولات نفسها وراح يرقب سيقانه الضئيلة وهى تتخبط بعضها ببعض فى عنف أشد قسوة من ذى قبل - لو كان ممكنا أن يحدث ذلك - بينما يرى هو أن ليس ثمة وسيلة للسيطرة على ذلك الاضطراب المحتوم و.. مرة أخرى حدث نفسه قائلا، إنه من المستحيل البقاء فى الفراش وإن الحل الأقرب إلى الصواب هو أن يغامر فى سبيل بصيص من الأمل فى النهوض منه ولم ينس أن يذكر نفسه فى تلك الأثناء أن التفكير الهادىء - على قدر ما يسعه الهدوء - أفضل كثيرا من القرارات اليائسة وركز فى تلك اللحظات بقدر ما وسعه التركيز على النافذة إلا أن منظر ضباب الصباح الذى كان يحجب الجانب الآخر من الشارع الضيق قد بث فيه - لسوء الحظ - قليلا من الراحة والعزاء.

وقال لنفسه عندما رن جرس المنبه مرة أخرى إنها الساعة السابعة الآن.. الساعة السابعة الآن و.. ما يزال هناك مثل ذلك الضباب الكثيف وظل مستلقيا فى هدوء لفترة قصيرة وهو يتنفس تنفسا خفيفا كما لو كان يتوقع أن مجرد رقدته تلك ربما أصلحت كل شىء، و أعادته إلى حالته العادية الحقيقية.

إلا أنه سرعان ما قال لنفسه «يجب علىّ أن أكون خارج هذا الفراش قبل أن تدق الساعة معلنة السابعة والربع دون أن يجانبنى التوفيق فى إنجازه فربما وصل شخص ما بأية حال ـ من المتجر فى ذلك الوقت للسؤال عنى حيث يفتح المتجر أبوابه ـ قبل السابعة و.. بدأ يهز جسده على الفور فى إيقاع منتظم بهدف تطويحه خارج الفراش ولو اصطدم بشىء ما بخروجه من الفراش على هذا النحو ففى وسعه أن يمنع عن رأسه أى أذى برفعه بزاوية حادة عندما يسقط ويبدو أن ظهره كان صلبا بدرجة تكفى لكى يتحمل ألم سقطته فوق السجادة و.. كان أخشى ما يخشاه هو صوت الارتطام المرتفع الذى لن يكون فى مقدوره أن يمنعه والذى، ربما سبب قلقا ـ إن لم نقل رعبا ـ خلف كل الأبواب و.. عليه أن يقوم بتلك المخاطرة على أية حال.

وعندما أصبح بالفعل فى منتصف محاولته لمغادرة الفراش ـ وكانت هذه المحاولة الجديدة للخروج من الفراش تأخذ شكل لعبة أكثر من كونها مجهودا لأنه لم يكن بحاجة فقط سوى إلى أن يهز نفسه بالتطوح هنا وهناك ـ باغتته فكرة المساعدة التى تسهل تلك اللعبة إلى حد بعيد. ولسوف يكون شخصان قويان كافيين للغاية وكان يفكر فى والده وفى الخادمة، و.. لن يكون عليهما سوى أن يفردا أذرعتهما تحت ظهره

المحدودب ويرفعاه من الفراش ومن ثم ينحنيان إلى أسفل بحملهما وعليهما أن يكونا مترفقين بما يكفى لكى يتركا له الفرصة لكى ينقلب تماما إلى الأرض حيث يمكن أن يكون ثمة أمل حينئذ فى أن تجد أقدامه سبيلها إلى العمل بصورة تامة، حسنا هل يجب عليه أن يزعق طالبا النجدة ـ متجاهلا أن كل الأبواب كانت جميعها مغلقة، لم يتمكن من أن يمنع الابتسامة عندما راودته هذه الفكرة على الرغم من بؤسه.

كان قد قطع شوطا بعيدا حتى أنه لم يعد فى مقدوره أن يحفظ توازنه سوى بصعوبة بالغة عندما كان يطوّح نفسه بشدة وكان عليه أن يستجمع قواه ليتخذ قراره الأخير فورا ذلك أن الوقت أوشك أن يبلغ السابعة والربع فى خلال خمس دقائق ـ عندما دق جرس الباب الخارجى، قال لنفسه وقد جمد تماما «ها هو شخص ما قد قدم من المتجر بينما اهتزت سيقانه الدقيقة مضطربة فى سرعة و.. ظل كل شىء هادئا لدقيقة وقال جريجور لنفسه وهو يتعلق بأمل مجنون، إنهم لن يحاولوا أن يفتحوا له الباب لكن الخادمة ذهبت بالطبع كالعادة إلى الباب فى خطواتها المتثاقلة و.. فتحته ولم يكن جريجور فى حاجة سوى أن يسمع جملة «صباح الخير» الأولى التى سيقولها الزائر لكى يتعرف على شخصيته على الفور ـ لقد كان الباشكاتب نفسه، يا له من قدر أن يُقضَى عليك بالعمل فى متجر حيث يثور حولك أشد أنواع الارتياب تزمتا لأقل إهمال! هل المواطنون جميعا وبصفة خاصة مجرد أوغاد لا يوجد بينهم أبدا ولو رجل واحد فقط مخلص فى تفانيه، رجل على الرغم من أنه قد يضيع ساعة أو نحوها من وقت عمل المتجر ذات صباح فإنه

يكاد يفقد صوابه تحت وطأة عذاب الضمير وهو غير قادر رغم ذلك على أن يبارح فراشه وهل يكفي حقا أن يرسل مستخدمه للاستفسار لو كانت هناك ثمة ضرورة للاستفسار بالمرة. هل كان على الباشكاتب نفسه أن يحضر وأن يكشف أمام الأسرة كلها.. أمام أسرة بريئة أن مثل تلك الظروف المريبة من الممكن أن تفحص على يد من لا يقل عنه شخصيا خبرة بهذه الأمور وتحت وطأة الحيرة التى سببتها له هذه التأملات لا بسبب أى دافع آخر من دوافع الإرادة. طوح جريجور نفسه إلى خارج الفراش بكل ما أوتي من قوة ولقد ارتفع صوت صدمة مدوية إلا أنها لم تكن صدمة بالفعل. فلقد خففت السجادة إلى حد ما من شدة الصدمة كما أن ظهره أيضا كان أقل صلابة مما كان يظن وعلى هذا فقد كان ما حدث هو مجرد هبدة حمقاء إلا أنها لا تبعث كثيرا على الارتياح لم يكن فقط قد رفع رأسه بعناية كافية وعلى هذا فقد أصيب و.. قد أداره وحكه على السجادة فى ألم وهياج.

قال الباشكاتب في الغرفة المجاورة إلى اليسار ـ لقد كان ذلك، شىء ما قد انطرح أرضا بالداخل، و.. حاول جريجور أن يفترض في نفسه أنَ شيئا كهذا الذى حدث له اليوم ربما حدث يوما ما للباشكاتب، ولا يسع المرء فى الواقع أن ينكر إمكان أن يحدث ذلك. إلا أن الباشكاتب تقدم خطوتين بثبات، في الغرفة المجاورة وصر حذاؤه المصنوع من الجلد الجيد كما لو كان ذلك إجابة مقتضبة على ذلك الافتراض. وكانت أخته تهمس إليه من الغرفة التى إلى اليمين لتنهى إليه الموقف، قائلة : جريجور إن الباشكاتب هنا. تمتم جريجور قائلاً لنفسه : أعلم ذلك، إلا أنه لم يجرؤ على أن يرفع صوته إلى حد يكفى لكى تسمعه أخته.

وقال والده أخيرا من الغرفة التي إلى اليسار : ـ جريجور، لقد حضر الباشكاتب، وهو يريد أن يعرف لماذا لم تلحق بالقطار المبكر. إننا لا نعرف ماذا نقول له، وهو بالإضافة إلى هذا يريد أن يتحدث إليك شخصيا فافتح الباب أرجوك إنه سيكون كريما بما يكفى ليغفر لك اضطراب نظام غرفتك».

وكان الباشكاتب يهتف فى أثناء ذلك قائلا فى ود ـ «صباح الخير يا سيد سامسا»!.

وقالت والدته للزائر بينما كان والده ما يزال يحدثه من خلال الباب إنه ليس على ما يرام.. إنه ليس على ما يرام يا سيدى، صدقنى وإلا فأى شيء آخر يمكن أن يعوقه عن اللحاق بالقطار إن الفتى لا يفكر أبدا سوى فى عمله وإن تعوده على عدم الخروج فى الأمسيات ليحزننى للغاية فلقد كان هنا طوال الأيام الثمانية الماضية وقد بقى كل ليلة من الليالى قابعا بالمنزل إنه يجلس فحسب هناك إلى المائدة فى هدوء يقرأ جريدة أو يتطلع فى جدول مواعيد القطارات، إن تسليته الوحيدة هى أعمال النجارة الدقيقة وحفرها وتخريمها فهو قد أنفق ليلتين أو ثلاث ليال فى صنع إطار صغير لصورة ولسوف يدهشك عندما تتفحص جمال صنعه، إنه معلق على أحد حوائط غرفته ولسوف تراه لأول وهلة عندما يفتح جريجور الباب. يجب علىّ أن أعلن سرورى لقدومك يا سيدى. يجب علينا ألا نثقل عليه أبدا بإرغامه على فتح الباب لأنه حرون جدا و.. إننى واثقة من أنه على غير ما يرام وأنه لم يكن فى تقديره أن يتأخر هذا الصباح.

قال جريجور بتباطؤ للغاية «إننى قادم فورا» دون أن يتحرك بوصة واحدة لخوفه من أن يفوته سماع كلمة واحدة من الحديث.

وقال الباشكاتب ـ «لا أظنني بحاجة إلى مزيد من التفسير يا سيدتي وآمل ألا يكون في الأمر ثمة خطورة على أننا يجب أن نقول من ناحية أخرى إننا ـ معشر رجال الأعمال ـ لحسن حظنا أو لسوئه علينا ببساطة في الأغلب أن نتجاهل أية وعكة خفيفة طالما كان أمامنا ما يجب أن نقوم به من الأعمال.

تساءل والد جريجور بصبر نافد وهو يدق ثانية على الباب ـ حسنا، هل يمكن أن يدخل الباشكاتب الآن فقال جريجور ـ «لا» وتبع هذا الرفض صمت أليم ساد الحجرة التي إلى اليسار بينما بدأت أخته تنهنه باكية في الحجرة التي إلى اليمين.

لماذا لم تنضم أخته إلى الآخرين ربما كانت قد غادرت الفراش لتوها ولم ترتد حتى الآن ملابسها بعد حسنا لماذا كانت تبكي لأنه لم ينهض ولأن الرئيس سوف يزيد أنانيته في مطالبة والديه بديونهما القديمة كانت هذه بالتأكيد أشياء لم يكن المرء في حاجة إلى أن يقلق الآن بخصوصها فلا يزال جريجور بالمنزل وهو لا يفكر مطلقاً في ترك الأسرة في هذه اللحظة بالفعل كان ممددا فوق السجادة وأي شخص كان يعلم حقيقة حالته لم يكن ليتوقع منه أن يسمح للباشكاتب بالدخول إلا أن جريجور لم يستطع سوى بصعوبة بالغة أن يصرف نفسه لحظتها عن التفكير في فظاظة مثل ذلك السلوك التي كان من الممكن بحثها تماما فيما بعد بشكل كاف ولقد بدا لجريجور أنه كان من الأقرب للصواب أن يتركوه حينئذ في سلام بدلا من أن يزعجوه بدموعهم وتوسلاتهم إلا أن شكوكهم ومخاوفهم بالطبع كانت ما تزال هي ما يبعثهم جميعا على مثل ذلك الارتباك و.. تبرر سلوكهم.

وأخيرا هتف الباشكاتب قائلا فى صوت أكثر ارتفاعا : ما الذى دهاك يا سيد سامسا؟، فها أنت ذا تتحصن داخل حجرتك، مجيبا علينا فقط بنعم، ولا، ومسببا لوالديك كثيرا مما لا يلزمهما من الإزعاج، ومهملا ـ وأنا أذكر هذا فقط فى سياق الحديث ـ مهملا واجبات عملك بصورة لا تعقل إننى اتحدث الآن باسم والديك، وباسم رئيسك وأرجوك فى جدية تامة أن تقدم تفسيرا سريعا ودقيقا لذلك كله. إنك لتدهشنى . إنك لتدهشنى! لقد عهدتك شخصا هادئا، يعتمد عليه، ولكنك تبدو الآن فجأة ميالا إلى استعراض نفسك فى استهتار لقد لمّح لى الرئيس مبكرا هذا الصباح بتفسير ـ ممكن ـ لغيابك ـ مع الإشارة إلى تلك الدفعات النقدية التى تسلمتها أخيرا كأمانة، لكننى تعهدت فورا بكلمة شرف مؤكدة، إن هذا لا يمكن أن يكون، لكن لم تعد لدى الآن أدنى رغبة، وأنا أراك مهملاً عملك على هذا النحو الذى لا يصدقه عقل، فى الدفاع عنك مطلقا. كما أن وضعك فى المؤسسة لم يعد على سابق عهده من الثبات. ولقد جئت قاصدا أن أقول لك هذا كله على حدة، لكن بما أنك تضيع وقتى بلا داع إلى هذا الحد، فلست أرى ثمة ما يمنع والديك من سماع هذا بدورهما. فلم يكن عملك مرضيا بالمرة، منذ مضى وقت غير قليل، وليس هذا بالطبع هو موسم الرواج من بين مواسم السنة، إننا نوافقك على هذا، إلا أنه لا يوجد بين مواسم السنة موسم لا يلزمنا فيه القيام بأى عمل على الإطلاق، ويجب ألا يوجد هذا الموسم يا سيد ـ سامسا ـ !!.

صاح جريجور قائلا وقد نسى نفسه فى ارتباكه، ونسى كل شىء آخر حوله: لكننى يا سيدى، فى سبيلى لكى أفتح الباب فى التو

واللحظة. وإن وعكة طفيفة، نوبة من نوبات البرد، هى ما عاقتنى عن النهوض، إننى مازلت مستلقيا فى الفراش. لكننى أشعر الآن بأننى على ما يرام وإننى لأنهض من الفراش الآن، فأرجو أن تسمح لى بدقيقة أخرى أو دقيقتين!، إننى لست على خير ما يرام تماما، كما كنت أعتقد، إلا أننى بخير حقا!. كيف يتسنى لشىء من هذا القبيل أن يطرح المرء أرضا فجأة!. لقد كنت على خير ما يرام فى الليلة الماضية بالذات، ويمكن أن يخبرك والدى بهذا، وإلا فلن يكون ما دهمنى سوى مجرد توجس طفيف. وقد كان من واجبى أن أشير إلى ذلك. فلماذا لم أرسل تقريرا إلى المؤسسة عن ذلك، إلا أن المرء يظن دائما أن أية وعكة قد تمر بسلام، دون أن تضطره إلى البقاء فى المنزل أرجوك يا سيدى، أن تعذر والدى!، إن كل ما تلومنى الآن عليه، لا أساس له، كما أن أحدا لم يشر لى إليه من قبل بكلمة قط. ولعلك لم تطلع بعد على قائمة الطلبات الأخيرة التى سلمتها، وعلى أية حال، فما يزال فى وسعى أن ألحق بقطار الساعة الثامنة فقد تحسنت كثيراً خلال تلك الساعات القلائل التى ارتحت خلالها، فلا تتأخر هنا بسببى يا سيدى، ولسوف أستأنف عملى فى الحال، وأرجو أن تتكرم، فتخبر الرئيس بذلك، وأن تعتذر له نيابة عنى!.

وبينما كان يتتابع هذا كله ويختلط، وجريجور لا يكاد يعى ما الذى يقوله، كان قد بلغ صندوق الملابس فى سهولة تامة، ربما بسبب التمرينات التى كان قد قام بها فى الفراش، وكان يحاول الآن أن يرفع نفسه إلى أعلى مستندا إليه، وكان ينوى بالفعل أن يفتح الباب، وأن يخرج فعلا، ويتحدث إلى الباشكاتب، وقد كان متلهفا أن يعرف ما الذى

سوف يقوله الآخرون، بعد طول إلحاحهم، لحظة أن تقع أعينهم عليه، فإن ارتسم على وجوههم الرعب، فإن المسئولية حينئذ سوف لا تكون مسئوليته هو ويمكنه أن يبقى ساكنا، أما إذا واجهوه في هدوء، فلن يكن أمامه حينئذ أيضا ثمة ما يكدره ويمكنه بالفعل أن يتوجه إلى المحطة لكي يلحق - لو أمكنه أن يسرع في السير - بقطار الساعة الثامنة، ولقد انزلق في البداية بضع مرات من فوق سطح صندوق الملابس اللامع لكنه تمكن في النهاية، بانتفاضة أخيرة، من أن يقف مستقيما، ولم يلق بالا حينئذ إلى الآلام التي كان يشعر بها في النصف الأسفل من جسده مهما اشتد وخزها، ثم ترك جسده ليسقط إلى ظهر أحد المقاعد القريبة، وتشبث بأرجله الدقيقة في حواف المقعد، وقد مكنه ذلك من السيطرة على نفسه من جديد، وكان قد توقف تماما عن الكلام ذلك أنه كان في وسعه الآن أن يتسمع إلى ما كان يقوله الباشكاتب.

كان الباشكاتب يتساءل قائلا : هل فهمتم حرفا واحدا مما قال؟ هل أنتم واثقون من أنه لا يحاول خداعنا... وصاحت والدته قائلة وسط دموعها : آه يا عزيزي لعله يعاني مرضا فظيعا، بينما نسبب له نحن مزيدا من الآلام. صاحت تنادي : جريتا، جريتا - وأجابتها أخته من الغرفة الأخرى: نعم يا ماما؟. كانتا تتصايحان على بعضهما عبر حجرة جريجور! - عليك أن تسرعي هذه اللحظة باستدعاء الطبيب، إن جريجور مريض، اذهبي لاستدعاء الطبيب، اسرعي هل سمعت رنة حديثه؟.

رد الباشكاتب قائلا في صوت خفيض بدرجة ملحوظة بالقياس إلى جلجلة صوت الأم : إن صوته لم يكن صوتا بشريا!، بينما كان صوت

والده ينطلق مناديا عبر الصالة إلى المطبخ وهو يضرب يديه ببعضهما: أنَّا، أنَّا!، اذهبى حالا للبحث عن حداد كوالين! بينما انطلقت الفتاتان لتوهما مسرعتين عبر الصالة، وانبعث حفيف جونلتيهما ـ كيف تمكنت أخته من أن ترتدى ملابسها بمثل هذه السرعة؟.

و.. فتحتا باب الشقة الخارجى. لم يسمع صوت اغلاق الباب بعد ذلك، كان يبدو واضحا أنهما قد تركتاه مفتوحا كما يفعل المرء فى البيوت التى تدهمها إحدى النكبات الفاجعة.

إلا أن جريجور كان قد أصبح أكثر هدوءا الآن. ويبدو أن الكلمات التى تفوه بها، لم تعد مفهومة على ما يبدو، على الرغم من أنها كانت قد بدت له واضحة بدرجة كافية بل ربما أكثر وضوحا عن ذى قبل، وربما ـ لأن أذنه كانت قد اعتادت على نبراتها إلا أنهم على أية حال قد أحسوا الآن أن مكروها قد ألم به، و.. أصبحوا على أتم استعداد لمساعدته ولقد أراحه اليقين القاطع الذى بنى على أساسه هذه التقديرات المبدئية لموقفه فلقد أحس بنفسه، وقد انخرط مرة أخرى فى سلك البشر وأفعمت نفسه بالأمل فى أن ينجلى الموقف عن نتائج خطيرة وخارقة على يدى كل من الطبيب وحداد الكوالين، دون أى تمييز محدد ـ فى الحقيقة ـ بينهما، ولكى يجعل صوته واضحا بقدر المستطاع استعدادا للحديث الحاسم الذى كان يترقبه الآن، سعل قليلا، بقدر ما وسعه الهدوء بالطبع، بما أن تلك السعلة، كان من المحتمل أن تبدو مقطوعة الصلة هى أيضا بالسعلة البشرية، ذلك أنه كان ما يزال بوسعه أن يحتاط لكل شىء. وكان قد هبط على الغرفة المجاورة فى تلك الأثناء، صمت تام. ربما كان والداه يجلسان مع الباشكاتب إلى

المائدة، يتهامسون، وربما كانوا قد استندوا جميعا إلى الباب يتسمعون!.

دفع جريجور المقعد ببطء نحو الباب، ثم.. تركه، وتشبث بالباب، ليستند إليه - كانت الحوافر التى تنتهى بها سيقانه الدقيقة لزجة على نحو ما - ثم استراح لحظة، مستندا إلى الباب بعد جهوده تلك. ثم حاول أن يدير المفتاح فى القفل بفمه. لكن اتضح لتعاسته، أنه لم تكن له بالفعل أية أسنان - فبأى شىء آخر يمكنه أن يقبض على المفتاح؟ ولكن فكيه بدلا من ذلك كان غاية فى الصلابة بالتأكيد، و.. قد أمكنه أن يحرك بهما المفتاح، غافلا عن حقيقة أنه كان بلا ريب، قد هشمها فى بعض المواضع، فلقد انبثق من فمه سائل بنى اللون، فلطخ المفتاح وتساقط فوق الأرض.

صاح الباشكاتب قائلا من الناحية الأخرى للباب : انظروا إلى ذلك.. إنه يدير المفتاح! - كان ذلك تشجيعا عظيما لجريجور، إلا أنهم تصايحوا جميعا يشجعونه، والده ووالدته هى أيضا : استمر، اضغط على المفتاح! و.. ليقينه من أنهم كانوا جميعا يتعقبون جهوده باهتمام، أطبق فكيه على المفتاح فى تهور بكل ما أوتى من القوة وعندما ازداد دوران المفتاح، تقوس هو أيضا بدوره حول الكالون، مرتكزاً الآن فقط على فمه، دافعا المفتاح، كما ينبغى، أو جاذبا إياه ثانية إلى أسفل بكل ثقل جسده وقد دفعت أولى التكات مرتفعة الصوت التى صدرت عن الكالون، جريجور إلى الإسراع فى مهمته، ومن ثم قال لنفسه أخيرا، وهو يطلق زفرة ارتياح عميقة : وهكذا لن احتاج أخيرا إلى حداد الكوالين - ثم .. ضغط رأسه على مقبض الباب لكى ينفتح!.

كان لا يزال مختفيا وراء الباب عندما انفتح بالفعل إلى آخره، لأنه كان قد سحب ضلفته مختفيا خلفها وكان عليه لكى يظهر من فتحة الباب أن يحرك جسده ببطء منحرفا نحو حافة الضلفة التى كانت تحجبه، وكان عليه لكى يفعل ذلك أن يتفادى السقوط مقلوبا على ظهره، فوق عتبة الباب، كان لا يزال منشغلا باتمام تلك الخطة العسيرة، دون أن يجد فسحة من الوقت لمتابعة أى شىء آخر سواها، حتى سمع الباشكاتب، وهو يطلق آهة مرتفعة ـ بدت كما لو كانت لفحة من الهواء ـ وكان قد تمكن الآن من أن يراه واقفا كما كان أمام الباب، لاطما فمه المفغور بإحدى كفيه ومتراجعا فى بطء كما لو كانت قد دفعته قوة شديدة غير منظورة، وأطبقت أمه ـ وكان شعرها الذى لم تكن قد رجلته بعد، على الرغم من وجود الباشكاتب، مايزال أشعث ومنفوشا فى كل اتجاه ـ كفيها على بعضهما أولا، ثم تطلعت نحو والده، و.. تقدمت نحو جريجور خطوتين، ثم سقطت على الأرض وسط ملابسها التى انتشرت حولها وقد اندفن وجهها تماما بين صدرها، أما والده فقد ضم قبضته بعنف، وقد ارتسم على وجهه تعبير قاس كما لو كان قد انتوى أن يدفع جريجور ثانية إلى داخل غرفته، ثم نظر حوله متفحصا حجرة الجلوس بنظرة زائغة، ثم غطى عينيه بكفيه، و.. انخرط فى البكاء حتى اضطرب صدره العريض.

لم يخرج جريجور عندئذ إلى حجرة الجلوس، وإنما بقى بداخل حجرته مستندا إلى الضلفة الثابتة المغلقة من الباب، وعلى هذا فقد تبدى للرؤية نصف جسده فقط، و.. رأسه مائل إلى جانب حتى يتابع النظر إلى الآخرين وكان الضوء قد انتشر ساطعا فى تلك الاثناء وكان

فى إمكان المرء أن يرى فى مواجهته بوضوح فى الجانب الآخر من الشارع، قِطَعاً من المبنى الرمادى القاتم، الذى لا نهاية لطوله ـ وقد كان لمستشفى ينساب على صفحته فى نعمة حسابية جافة، صف من النوافذ الروتينية المنتظمة، وكان المطر ما يزال يتساقط، إلا أنه كان يتساقط فقط فى قطرات واضحة متناثرة أو بمعنى أصح، فى طرطشات متناثرة، مطردة الإيقاع وكانت أطباق الفطور قد رصت بكثرة فوق المائدة، فقد كان الفطور هو أهم وجبات اليوم عند والد جريجور الذى كان يتلكأ قبل تناوله بساعات عديدة، يقرأ خلالها مختلف الصحف وفى مواجهة جريجور تماما، كانت ثمة صورة فوتوغرافية معلقة على الحائط له فى ملابس الخدمة العسكرية كملازم، .. يده على مقبض السيف، وعلى ملامح وجهه ترتسم ابتسامة ثابتة، تدعو المرء إلى تقدير بذلته ورتبه العسكرية. كان الباب الذى يفضى إلى الصالة مفتوحا وكان فى إمكان المرء أن يرى أن الباب الخارجى كان مفتوحا أيضا ما يزال، تبدو خلفه بسطة السلم وأولى درجات السلم الهابطة إلى أسفل.

قال جريجور، مدركا تماما أنه الوحيد الذى لم يعد يسعه أن يحتفظ بهدوئه، على عكسهم : حسنا، سوف ارتدى ملابسى، ثم أحزم عيناتى، و.. أرحل!!. هل تسمحون لى فقط بالذهاب؟ ـ ها أنت ذا يا سيدى ترى أننى لست حرونا، و.. أننى راغب فى العمل، إن حياة الارتحال، هى حياة شاقة إلا أننى لم أعد قادرا على أن أحيا حياة أخرى سواها، فإلى أين ستذهب أنت يا سيدى؟ إلى الإدارة؟، نعم هل تتكرم بنقل صورة صادقة لهذا كله! إن المرء ليعجز إلى حين، إلا أن لحظات عجزه هذه بالذات هى ما يجب عندها تذكر خدماته السابقة،

وإن ما يحفظه المرء في ذاكرته من هذا فيما بعد، بعد أن تكون قد زايلته شدته يدفعه بلا شك إلى العمل بأقصى ما يسعه الجهد والتركيز! إنني ملتزم بأن أخدم الرئيس في إخلاص وإنك لتعلم هذا حق العلم وعليّ بالاضافة إلى هذا أن أعول والدي، وشقيقتي! لقد سقطت فريسة لعديد من المحن المروعة، إلا أنني سأنجو منها في النهاية فلا تحاول أن تجعل الأمور تبدو بالنسبة لي أشد سوءا مما هي عليه، دافع عني في المؤسسة! إنني أعلم أن التجار السفريين، لا يتمتعون بأي عطف هناك، فالناس يعتقدون أنهم يكسبون من الأموال ملء أجولة، ولا يقومون إلا بقضاء أوقات ممتعة في رحلاتهم، اعتقاد خاطيء ليس ثمة سبب يدعونا الآن بصفة خاصة إلى مراجعته إلا أنك تتمتع يا سيدي برؤية للأمور أكثر وضوحا عما يراه الرئيس نفسه، الذي يدع حكمه، بما أنه مالك المؤسسة يميل بسهولة ضد أحد مستخدميه. وإنك لتعلم حق العلم، أن السفري الذي لا يتواجد في الإدارة على مدار السنة بطولها غالبا، عرضة لأن يقع بسهولة فريسة للغيبة، وسوء الطالع، والشكاوي التي لا أساس لها في حقه، والتي لا يعلم عنها شيئا البتة في أكثر الأحيان، إلا بعد أن يعود مجهدا من تجواله، ليعاني شخصيا حينئذ فقط نتائج شرورهم التي لا يسعه إذ ذاك أن يتعقبها حتى يقف على دوافعـها الأصليـة. سيدي، يا سيدي، لا تنصرف أرجوك، دون أن تجيبني بكلمة تـؤكد ثقتـك بأنني على حق، و.. لو إلى حد مـا، على الأقل!.

إلا أن الباشكاتب كان قد استدار متراجعا من فوره عند سماعه أولى كلمات جريجور، محدقا فيه فقط بفم مفغور، فوق كتف مرتعد!،

و.. لم يتوقف ولو للحظة واحدة بينما كان جريجور يتحدث، وإنما انسل مبتعدا نحو الباب، دون أن يرفع عينيه عن جريجور، سوى مرة، لمسافة خطوة فقط، كما لو كان قد تلقى إنذارا سريا بمغادرة الحجرة! وكان قد بلغ الصالة للتو. و.. لكن المباغتة التى خطا بها خطوته الأخيرة إلى خارج حجرة الجلوس كانت تكاد تدفع المرء إلى أن يظن أن كعب قدمه لابد قد لسعه لحظتها حشرة ما! وفى الصالة مد ذراعه الأيمن مرة أخرى أمامه نحو السلم، كما لو كانت ثمة قوة خارقة للطبيعة، تنتظره لتتلقفه هناك.

ولقد أدرك جريجور أنه لم يكن يجب عليهم أن يسمحوا للباشكاتب مهما كانت الظروف، بأن ينصرف فى حالته العقلية المضطربة تلك، لو أن وضعه فى المؤسسة حقا، لم يكن قد أصبح حرجا إلى أقصى حد، إلا أن والديه لم يتفهما ذلك كما ينبغى، فلقد كانا قد اقتنعا نهائيا، على مر السنين أن جريجور، كان قد استقر فى تلك المؤسسة إلى الأبد، كما أنهما كان منشغلين فوق الطاقة علاوة على ذلك بهمومهم الطارئة، لدرجة جانبهم فيها تماما تدبر العواقب، إلا أن هذا التبصر لم يغب عن بال جريجور! فقد كان الواجب عليهم أن يقنعوا الباشكاتب، وأن يهدئوا ثائرته، وأن يغروه على البقاء، حتى يكسبوه أخيرا فى صفهم، ذلك أن مستقبل جريجور كله، ومستقبل أسرته بالتالى كان يتوقف على ذلك، لو أن أخته كانت موجودة فقط إذ ذاك! فلقد كان ذكاؤهاكافيا لإدراك الموقف!. و.. لقد شرعت فى البكاء بينما كان جريجور مستلقيا ما يزال على ظهره فى هدوء، ولا شك أن الباشكاتب بانقياده المعهود للنساء، كان سيتصرف تبعا لإرادتها، و.. لابد أنها كانت ستغلق باب

الشقة، وتتحدث معه فى الردهة بعد أن يزايله كل ما استولى عليه من الرعب، إلا أنها لم تكن هناك! وكان على جريجور أن يتملك زمام الموقف بنفسه! ودون أن يخطر بباله، أنه كان لايزال جاهلا بإمكانياته على الحركة و.. دون أن يتذكر حتى أن كلماته فى أقصى احتمالات تأثيرها ـ وفى أقصى احتمالات وضوحها ـ سوف يلتبس فهمها على الباشكاتب مرة أخرى.

ترك ضلفة الباب، واندفع من خلال فتحته، وبدأ السير متجها نحو الباشكاتب، الذى كان قابضا بكلتا يديه ـ بصورة مضحكة ـ على الدرابزين فوق بسطة السلم، لكنه فجأة تهاوى على الأرض مطلقا صرخة خافتة، ضاعت وسط كل سيقانه العديدة، بينما كان يبحث عن شىء يستند إليه. وهكذا انطرح أرضا عندما كان قد بدأ يمارس لأول مرة فى ذلك الصباح، إحساسا بالراحة الجدية، فلقد كانت الأرض صلبة تحت أقدامه، وكانت حركة سيقانه ـ كما لاحظ فى سعادة ـ طيعة للغاية بل لقد جاهدت لتحمله إلى الأمام فى أى اتجاه شاء، وكان قد أوشك على الاعتقاد بأن الشفاء التام من كل آلامه كان قد بات فى متناول يده! إلا أنه فى نفس اللحظة التى وجد نفسه أثناءها منطرحا على الأرض، ينتفض من غلبة شوقه إلى أن يتحرك غير بعيد عن والدته، بل أمامها مباشرة للحقيقة، هى، التى كان يبدو عليها وكأنها قد تحطمت تماما، قفزت فجأة واقفة على قدميها، ناشرة أمامها ذراعيها وكل أصابعها، صارخة : «النجدة» بحق الإله، «النجدة». ثم أحنت رأسها إلى أسفل، كأنما لتجد جريجور أمامها على ما يرام، إلا أنها على عكس ما كانت تتوقعه، أخذت تتراجع مبتعدة بظهرها، بلا شعور.. إلى الخلف، غائبة

تماما عن أن تتذكر أن المائدة المحملة، كانت تقبع خلفها، لتجد نفسها فجأة مستقرة فوق سطحها، كما لو كان اصطدامها بها قد وقع في غيبة العقل. كما بدت ذاهلة أيضا عن إناء القهوة الكبير الذى انقلب بجوارها، وانصبت القهوة، وفاضت فوق السجادة!.

تمتم جريجور قائلا في صوت خافت وهو يتطلع إليها : «أماه!! أماه!». وكان الباشكاتب قد اختفى تماما من مخيلته في تلك اللحظة، ولم يسعه بدلا من ذلك، أن يقاوم اصطكاك فكيه ببعضهما، وهو يرى القهوة باللبن. وقد دفع هذا والدته إلى أن تطلق صرخة أخرى، هاربة من المائدة، لتسقط بين ذراعى والده، الذى أسرع لينتشلها! لكن جريجور لم يكن لديه الآن متسع من الوقت للاهتمام بوالديه، فلقد كان الباشكاتب يهبط السلالم بالفعل، بينما كان يختلس، بذقنه فوق الدرابزين، نظرة أخيرة إلى الخلف وقفز جريجور مندفعا، ليضمن اللحاق به بقدر الإمكان، ويبدو أن الباشكاتب كان قد تنبأ بما انتواه، لأنه قفز هابطا بضع درجات دفعة واحدة، واختفى، بينما كان مايزال يعوى، مطلقا صيحة تأفف أخيرة، تردد صداها في كل جنبات السلم!.

ولقد بدا أن فكاك الباشكاتب - لسوء الحظ - قد أحنق جدا والد جريجور الذى كان قد ظل هادئا غاية الهدوء حتى الآن، لأنه بدلا من أن يسرع ليلحق بالرجل نفسه أو على الأقل لا يعوق جريجور في مطاردته له قد أمسك بيده اليمنى العصا التى كان الباشكاتب قد نسيها فوق المقعد واختطف صحيفة كبيرة بيده اليسرى من فوق المائدة، وراح يدق الأرض بقدميه، ويدفع العصا بالصحيفة على رأسها ليرغم

جريجور على العودة ثانية إلى داخل حجرته!! ولم تفلح توسلات جريجور ولم يفهم في الحقيقة - رجاء واحدا من رجاءاته، ومهما أحنى رأسه في تواضع، لم يكن والده يجيبه سوى بأن يدق له الأرض في ضجة أشد ارتفاعا. وخلف والده فتحت والدته إحدى النوافذ على مصراعيها، رغم برودة الجو، وانحنت تطل منها خارجا، إلى أبعد ما وسعها ذلك ووجهها بين كفيها! وهبت من الشارع لفحة قوية من الهواء. ورفرفت الستائر، وتطايرت الصحف من فوق المائدة، وصفت صفحاتها الشاردة فوق الأرض! ودفعه والده إلى الخلف بلا رحمة، وهو يصفر، ويتصايح كوحش، إلا أن جريجور لم يكن متمرسا قط على السير متراجعا بظهره... كان سيره على هذا النحو بطيئا حقا، فلو أن الفرصة أتيحت له فقط حتى يستدير إذن لأمكنه أن يعود إلى حجرته على الفور، لكنه كان خائفا من إغاظة والده، ببطء مثل تلك المحاولة للدوران على نفسه، وربما صكته عصا والده حينئذ، في أية لحظة. في خبطة قاتلة على ظهره، أو فوق رأسه. ورغم ذلك، فلم يكن أمامه أي شيء آخر ليفعله بعد أن أدرك في رعب أنه في تحركه إلى الخلف بظهره، لن يمكنه حتى أن يتحكم في تحديد الاتجاه الذي سوف يتخذه، وعلى هذا، وبينما عيناه القلقتان، ترقبان والده طوال الوقت من فوق كتفه في حذر، بدأ يتحرك مستديرا بأقصى ما وسعته السرعة، التي بدت - للحقيقة - غاية البطء!! وربما كان والده قد أدرك حسن نواياه، لأنه توقف عن التدخل فيما عدا محاولته من حين لآخر، أن يقدم له بعض العون، على تنفيذ خطته، بطرف العصا، على البعد!! فلو أنه أقلع فقط عن إصدار ذلك الصفير الذي لا يطاق!! فلقد كان يوشك أن يفقد

جريجور صوابه تماما!! كان قد أوشك على إتمام دورانه، عندما أربكه ذلك الصفير، حتى أنه قد انحرف قليلا إلى سابق وضعه، مرة أخرى!! إلا أن رأسه عندما أصبحت تواجه مدخل الباب أخيرا لحسن الحظ، اتضح - بكل بساطة - أن جسده كان عريضا جدا، بحيث لا تسعه فتحة الباب، وكان والده بالطبع في حالته تلك، أبعد من أن يفكر، في أي شيء من قبيل أن يفتح له ضلفة الباب الأخرى، حتى يتيح له مسافة كافية للمرور، كانت لديه مجرد الرغبة الملحة في إعادة جريجور ثانية إلى حجرته بأسرع ما يمكن!! إنه لن يتيح أبدا لجريجور أن يقوم بتلك الترتيبات الطارئة، التي تنتهي بوقوفه، فربما أمكنه أن يمر منزلقا - لو وقف - من خلال فتحة الباب وربما كان قد رفع صوته الآن أكثر من ذي قبل، لكي يحث جريجور على المضي إلى الأمام، كما لو لم تكن هناك أية عقبات تمنعه من المرور، لكن الصوت الصادر من الخلف لم يعد يطن في سمع جريجور، رغم ذلك، باعتباره صادرا عن أب واحد فقط، - ولم تكن هذه مجرد نكتة - فاندفع - وليحدث ما يحدث - مقتحما فتحة الباب، فارتفع أحد جانبيه، وانزلق في فتحة الباب بزاوية ما، وغطت الرضوض مؤخرته كلها، ولطخت الباب أبيض اللون لطشات مرعبة، ولم يلبث حتى انزلق أكثر من ذي قبل، وأصبح من المستحيل أن يواصل الحركة مطلقا، بلا معاونة وتعلقت سيقانه مضطربة في الهواء، على أحد جوانبه. أما السيقان التي في الجانب الآخر فقد انسحقت في الأرض بألم لا حد له - عندما دفعه والده دفعة قوية من الخلف كانت خلاصا فعليا له، وارتمى بعيدا في داخل حجرته، يدمي في غزارة. وكان الباب قد انصفق خلفه!! ومن ثم هبط الصمت أخيرا بعد ذلك.

الفصل الثانى

لم يفق جريجور، إلا بعد أن هبط المساء من السبات العميق الذى استغرقه، والذى بدا أقرب إلى الإغماء منه إلى النوم، ولاشك أنه كان سيستيقظ من تلقاء نفسه بعد وقت قصير، لأنه أحس بأنه قد استغرق فى النوم، لكن بدا كما لو كان وقع قدم هاربة، وإغلاق الباب المؤدى إلى الصالة فى حذر، هو ما كان قد أيقظه. وكانت المصابيح الكهربائية فى الشارع قد ألقت ضوءا خافتاً هنا وهناك، على السقف، وفوق سطوح قطع الأثاث، لكن أرضية الحجرة، حيث كان قابعا كان يسودها الظلام، وفى بطء بدأ يحرك أمامه فى تخبط قرون استشعاره، التى كان قد أدرك الآن فقط جدواها، ثم اندفع فى طريقه نحو الباب، ليرى ما الذى كان يحدث هناك. كان يحس بجانبه الأيسر وكأنه ندبة واحدة ضيقة، ممتدة فى بشاعة، فلم يكن يسعه بالفعل إذ ذاك سوى أن يتأرجح فى حركته فوق سيقانه التى تتألف من صفين، وكانت ساق صغيرة من سيقانه - بالإضافة إلى هذا - قد تهشمت بقسوة، فى مجرى أحداث ذلك الصباح - ولم يكن يقل عن معجزة، أنه لم تتحطم سوى واحدة فقط من سيقانه وتجرجرت خلفه بلا نفع.

وكان قد بلغ الباب قبل أن يكتشف ما الذى كان قد جره حقا نحوه. رائحة الطعام، ذلك أنه كان قد استقر بالقرب من الباب وعاء قد امتلأ باللبن الحليب، كان يطفو فوق سطحه فتات من الخبز الأبيض. كاد أن يضحك من فرط السعادة فلقد كان قد أمسى الآن أشد جوعاً مما كان عليه فى الصباح، ودب رأسه حتى ما فوق العينين فورا فى قلب وعاء اللبن. لكنه سحبها ثانية فى خيبة أمل، ليس فقط لأنه لم يكن يسعه أن يطعم بسبب الألم الذى كان يرهقه فى الجانب الأيسر - فلم يكن يمكنه أن يتناول طعامه سوى بخفقان أجزاء جسده جميعا متضامنة فى وقت معا - بل لأنه لم يستسغ اللبن أيضا، على الرغم من أنه كان شرابه المفضل، وإن هذا كان هو السبب بلا شك فى أن أخته قد وضعته له هناك، وقد استدار مبتعدا بالفعل عن الوعاء فى اشمئزاز وزحف راجعا إلى وسط الحجرة!!.

ولقد استطاع أن يرى من خلال شرخ فى الباب، أن المدفأة كانت مشتعلة فى حجرة الجلوس، لكن.. بينما كان والده معتادا فى مثل هذا الوقت على قراءة جريدة المساء لوالدته ولشقيقته أيضا فى بعض الأحيان، بصوت مرتفع، فإنه لم يكن يسمع ثمة أى صوت هناك الآن! حسنا.. ربما كان والده قد أقلع أخيرا عن عادته تلك، على القراءة بأعلى صوته، تلك العادة التى تشير إليها شقيقته فى أغلب أحاديثها وخطاباتها، إلا أن ذلك الصمت كان قد هبط على كل مكان، رغم أن الشقة لم تكن بالتأكيد خالية من سكانها. قال جريجور لنفسه : «ما أروع الحياة الهادئة التى تحياها أسرتنا»، أحس، بينما كان يقبع هناك بلا حراك محدقا فى الظلام، بالزهو الشديد لحقيقة أنه قد تمكن

من أن يحقق لوالديه ولشقيقته الحياة في مثل هذه الشقة الفاخرة! لكن ماذا لو كان على كل تلك السكينة، والراحة، والرضى، أن تؤول جميعها الآن إلى الرعب؟ زحف جريجور قاطعا الحجرة ذهابا وجيئة لاجئا إلى الحركة، كوسيلة تصرفه عن الاستغراق في مثل تلك الأفكار.

ولقد حدث مرة خلال تلك الأمسية الطويلة، أن انفتح أحد الأبواب التي تتوسط الشقة، لحظة قصيرة، ثم أغلق ثانية بسرعة، ثم حدث ذلك للباب المقابل، فيما بعد، أيضا ويبدو أن أحدهم كان قد رغب في الدخول، ومن ثم رأى أن من الأفضل ألا يفعل. فقبع جريجور فورا أمام الباب الذي يفتح على حجرة الجلوس وقد انتوى أن يغري أي زائر متردد على الدخول، أو أن يكتشف على الأقل من عساه أن يكون، إلا أن الباب لم يفتح قط ثانية، وضاع انتظاره عبثا!! كانوا يريدون جميعا أن يدخلوا إليه في ذلك الصباح الباكر، عندما كانت الأبواب مغلقة، والآن بعد أن فتح لهم أحد الأبواب بنفسه، وكان الآخر قد ظل مفتوحا على ما يبدو طوال النهار لم يدخل أي منهم، وحتى المفاتيح كانت في ثقوب الأبواب من الخارج.

لم تنطفيء المدفأة في حجرة الجلوس إلا في وقت متأخر من الليل، وفي مقدور جريجور بسهولة أن يؤكد أن والديه وشقيقته، قد ظلوا جميعا متيقظين حتى ذلك الحين، لأنه كان قد تمكن من أن يتسمع في وضوح ثلاثتهم، وهم يسترقون الخطى، مبتعدين على أطراف أصابعهم. لم يكن يبدو أن أحدا منهم سيزوره قبل طلوع النهار، كان ذلك أكيدا، وعلى هذا فقد كان لديه متسع من الوقت ليتدبر فيه وحده كيف يرتب حياته

من جديد، إلا أن الغرفة الشاهقة الخاوية، التي كان يتعين عليه أن يستلقي متمددا فوق أرضيتها كانت قد ملأته بشعور لم يتمكن من تعليله، بما أنها كانت هي نفس حجرته التي قضى فيها سنواته الخمس الماضية.. وبحركة نصف واعية، لم تفتقر إلى ظل من الشعور بالحرج، اندفع غاطسا تحت الكنبة، حيث أحس بالراحة من فوره، على الرغم من أن ظهره كان مضغوطا على نحو ما، وأنه لم يكن يمكنه أن يرفع رأسه إلى أعلى، وكان ما أسف عليه فقط، هو أن جسده كان أعرض من أن يختفي بكامله، تماما، تحت الكنبة!.

وبقي تحت الكنبة طوال الليل محاولا قطع الوقت أحيانا بالنعاس الخفيف، الذى كان جوعه، يوقظه منه متوفزا، وأحيانا يقطعه مهموما مخططا بعض الآمال المبهمة، التي كانت تنتهي كلها إلى نفس النتائج، التي تتلخص في أن عليه أن يتمدد الآن أرضا، وبمعالجة الصبر، وغاية التساهل، يمكنه أن يساعد الأسرة على تحمل الصعاب التي سيسببها لهم بحالته الراهنة.

وفى الصباح المبكر جدا، بينما كان ظلام الليل ما يزال سائدا تماما سنحت لجريجور الفرصة لكي يختبر سلامة حلوله الجديدة، فلقد فتحت شقيقته الباب قادمة من الردهة وحملقت في الداخل، مرتدية ثيابها كاملة تقريبا، لم تتمكن من رؤيته لأول وهلة، إلا أنها عندما رأته تحت الكنبة ـ حسنا ـ لقد كان مقدرا له أن يتواجد في مكان ما من الحجرة فلم يكن في مقدوره أن يطير بعيدا، هل كان يسعه أن يفعل..؟ فزعت غاية الفزع، حتى أنها صفقت الباب، فانغلق ثانية، لما لم تتمكن من السيطرة على أعصابها، إلا أنها فتحت الباب مرة أخرى - على

الفور، كما لو كانت قد ندمت على تصرفها ودخلت على أطراف أصابعها، كما لو كانت تعود مريضا، أو شخصا غريبا.. فدفع جريجور رأسه إلى الأمام، وراح يتطلع إليها! هل ستلاحظ أنه قد ترك اللبن، دون أن يمسه، وأن ذلك لم يكن يعنى أنه ليس جائعا؟ وهل ستحضر بعض أنواع الطعام الأخرى التى يستسيغها؟ إنها إن لم تفعل ذلك من نفسها، فلسوف يتضوّر جوعا دون أن يلفت نظرها إلى حقيقة الأمر على الرغم من أنه قد أحس بدافع وحشى لأن يندفع خارجا من تحت الكنبة، وأن يرتمى على قدميها، يستعطفها أن تأتى له بشىء يأكله. إلا أن شقيقته، لاحظت من فورها فى دهشة، أن الوعاء كان ما يزال ممتلئا فيما عدا كمية قليلة من اللبن، كانت قد تناثرت كلها حوله، فرفعت الوعاء على الفور، لا بكفيها العاريتين، فى الحقيقة، بل بقطعة من القماش، وحملته إلى الخارج.. وتملك جريجور فضول وحشى، لمعرفة ما الذى سوف تحضره بدلا من ذلك، واستغرقته التخمينات، إلا أن ما فعلته حقيقة ـ لطيبة قلبها ـ بعد ذلك، لم يكن جريجور يستطيع أن يصل إليه قط بتخميناته.

فحتى تكتشف ما الذى يفضله كانت قد أحضرت له عينات تقريبا من كل ألوان الطعام مفروشة كلها فوق إحدى الجرائد القديمة. كانت هناك خضروات بائتة نصف متعفنة وعظام بقيت من حساء الأمس، مغطاه بدهن أبيض كان قد تجمد وبعض الزبيب واللوز وقطعة من الجبن بإمكان جريجور أن يؤكد أنها كانت قد فسدت منذ يومين وقطعة مستديرة من الخبز الجاف وكسرة خبز مدهونة بالزبد وكسرة مملحة، ومدهونة أيضا بالزبد.. بجوار هذا كله وضعت ثانية نفس الوعاء، الذى

كانت قد صبت فيه بعض الماء والذى كان قد قصر خصيصا فيما يبدو على استعماله الخاص وفى لباقة زائدة، انسحبت مسرعة، مدركة أن جريجور لن يأكل فى وجودها بل لقد أدارت المفتاح فى كالون الباب حتى يدرك أن فى إمكانه أن يأخذ راحته بقدر ما يشاء وأتبع ذلك صفير سيقان جريجور عندما اتجه نحو الطعام ولابد أن جراحه كانت قد التأمت تماما علاوة على ذلك لأنه لم يعد يشعر بالعجز وهذا ما حيره وجعله يتذكر الآن كيف أنه كان قد جرح أحد أصابعه بسكين بسيطا منذ أكثر من شهر مضى و.. أنه ظل يعانى من ألم الجرح حتى يوم أمس الأول و.. فكر متسائلا «هل أنا الآن أقل حساسية» وراح فى شراهة يمتص الجبن الذى اجتذبه على الفور، أكثر من باقى المأكولات كلها، وبسرعة التهم ودموع الرضا تترقرق فى مآقيه كل الجبن قطعة بعد أخرى والتهم الخضراوات والدهون، لكن الخبز الطازج لم يجذبه بل إنه حتى لم يطق رائحته ثم سحب بالفعل الأشياء التى كان يستطيع أن يأكلها وانتحى بها جانبا. ولقد أجهز من فوره على وجبته وكان مستلقيا فى تكاسل فى نفس مكانه عندما أدارت شقيقته المفتاح ببطء كإشارة له لكى ينسحب، فنهض إذ ذاك على التو رغم أنه كان قد أوشك على أن يستغرق فى النوم وأسرع فاندس مرة أخرى تحت الكنبة.. لكن البقاء تحتها كلفه جهدا ملحوظا من الضغط على نفسه لكى يبقى على حالته ولو للفترة القصيرة التى يستغرقها وجود أخته بداخل حجرته فقط حيث كانت الوجبة الضخمة قد زادت من ضخامة حجمه إلى حد ما، و.. لأنه كان متشنجا حتى أنه لم يكن قادرا على التنفس سوى بصعوبة. ولقد دهمته نوبات خفيفة من ضيق التنفس وكانت عيناه قد

جحظتا قليلا إلى الخارج بينما كان يرقب شقيقته المطمئنة وهى تجمع بمكنسة ليس فقط بقايا ما أكله بل حتى الأطعمة التى لم يقربها كما لو كانت هذه الأطعمة قد أصبحت غير ذات نفع لأى كائن آخر و.. جرفتها بسرعة فى دلو، كانت قد غطته بغطاء من الخشب وحملته إلى الخارج وما كادت تدير ظهرها حتى أخرج جريجور رأسه من تحت الكنبة و.. تمدد وجذب جسده خارجا.

وعلى هذا النحو كان يطعم جريجور.. مرة فى الصباح الباكر حينما يكون والداه والخادمة مازالوا مستغرقين جميعا فى نومهم و.. مرة أخرى بعد أن يتناولوا جميعا وجبة الغذاء حيث يغفو والداه بعدئذ إغفاءة قصيرة و.. يمكن إرسال الخادمة إلى الخارج فى مهمة أو أخرى بتدبير شقيقته وليس هذا بالطبع لأنهم كانوا يريدونه أن يموت جوعا بل ربما لأنه لم يكن فى وسعهم أن يعلموا عن نظام تغذيته أكثر مما تنتهى إليه أحاديثهم وربما أيضا لأن شقيقته قد شاءت أن تجنبهم بقدر الإمكان مشقة مثل تلك الهموم الصغيرة لما كانوا قد ناءوا بالفعل تحت عبء ماتزل بهم.

بأى عذر أمكنهم أن يتخلصوا من الطبيب وحداد الكوالين فى ذلك الصباح الأول، هذا ما لم يتوصل جريجور إلى اكتشافه لأنه منذ ذلك الحين لم تصدم أيا منهم حقيقة أن الآخرين لا يفهمون ما يقوله حتى شقيقته لم تصدمها هذه الحقيقة أنه يفهم ما يقولونه و.. على هذا فقد كان عليه أن يقنع كلما دخلت شقيقته إلى حجرته بسماعها وهى تطلق زفرة من حين لآخر ودعاء عارضا للقديسين وفيما بعد عندما كانت قد اعتادت ذلك الوضع إلى حد ما ـ لم يمكنها بالطبع أن تتعود تماما عليه

ـ كانت تلقى أحيانا، بإحدى التعليقات التى قد تكون مقصودة أو.. قد تفسر على أنها كذلك.

قد تقول عندما يجهز جريجور تماما على طعامه «حسنا، لقد أعجبه الغذاء، اليوم» و.. عندما لا يكون قد قارب الطعام وهذا ما أخذ يحدث أكثر فأكثر باطراد فإنها تقول غالبا فى حزن (لقد ترك كل شىء كما هو مرة أخرى).

وعلى الرغم من أن جريجور لم يكن يسعه أن يحصل مباشرة على الأخبار إلا أنه يتسمع إلى الحجرات المجاورة وما تكاد ترتفع الأصوات حتى يسرع نحو باب الحجرة ملتصقا به ضاغطا كل جسده إليه. لم تجر ثمة أحاديث تتناوله بحال من الأحوال فى الأيام الأولى على وجه الخصوص ولا حتى عن طريق غير مباشر. و.. لمدة يومين كاملين كانت ثمة قرارات تصدر عند تجمعهم إلى كل وجبة كانت تتناول ما يجب عليهم عمله لكن.. هذا الموضوع كان يثار أيضا بين الوجبات ذلك أنه كان يوجد دائما عضوان هناك على الأقل من أعضاء الأسرة بالمنزل بما أن أحدا منهم لم يكن يرغب فى أن يبقى وحده فى الشقة، ثم أنهم لم يفكروا أيضا فى مغادرتها جميعا فى وقت معا.

ولقد حدث فى نفس اليوم الأول من تلك الأيام أن ركعت الطباخة ـ لم يكن محددا مدى معلوماتها عن الحالة ولا كيف بلغتها تلك المعلومات ـ عند قدمى والدته ورجتها أن تسمح لها بالذهاب وعندما رحلت بعد ذلك بربع ساعة لهجت بالشكر على طردها بينما اغرورقت عيناها بالدموع كأنما عرفانا بالخير العميم الذى أنعم به عليها و.. دونها تريث، أقسمت يمينا مؤكدة بأنها سوف لا تتفوه مطلقا بكلمة واحدة لأى شخص كان عما حدث.

وأصبح على أخت جريجور أن تطبخ أيضا الآن مساعدة لوالدتها. لم يكن المطبخ فى الحقيقة أمرا ذا بال لأنهم لم يكونوا تقريبا يأكلون أى شىء وكان جريجور يسمع دائما أحد أفراد الأسرة يحاول عبثاً أن يحث الآخر على أن يأكل إلا أنه لم يكن يتلقى ردا سوى «شكرا، لقد أكلت ما يزيد عن كفايتى» أو شيئا من هذا القبيل ولعلهم لم يكونوا يشربون شيئا كذلك وكانت أخته تلح على والدها مرة بعد أخرى تسأله إن كان يرغب فى شىء من البيرة وتعرض استعدادها عن طيب خاطر لإحضارها بنفسها و.. إذا لم يحر جوابا باردا على إلحاحها اقترحت إن فى إمكانها أن ترسل البواب ليحضرها و.. هكذا حتى لا تعود به حينئذ حاجة إلى مواصلة الاعتذار فى رقة وإنما تنطلق «لا» مدوية صادرة عن والده فلا يبقى ثمة ما يقال بعد ذلك فى هذا الشأن.

و.. ضمن أحداث ذلك اليوم الأول شرح والد جريجور وضع الأسرة المالى والآمال التى يتعلقون بأذيالها لكل من والدته وشقيقته. وكان ينهض تاركا المائدة من حين لآخر لكى يخرج إيصالا أو مذكرة من داخل الخزانة الحديدية الصغيرة التى كانت هى كل ما تمكن من إنقاذه وسط انهيار تجارته منذ خمس سنوات. وقد كان فى استطاعة المرء أن يسمعه وهو يعالج فتح المقعد التركيب و.. يسمع خشخشة الأوراق عندما ينزعها ثم.. صوت إغلاق الخزينة ثانية، ذلك التقرير الذى أعلنه والده كان هو أول تصريح سار يسمعه جريجور منذ بداية سجنه. فقد كان موقنا أنه لا شىء قد تبقى بعد من تجارة والده، فوالده لم يكن قد صرح على الأقل بشىء يفيد عكس هذا و.. لم يكن هو قد سأله بالطبع صراحة فى هذا الخصوص.

كانت رغبة جريجور الوحيدة إذ ذاك هى أن يبذل جهد ما يستطيع لكى يعين أسرته على أن تنسى بأقصى ما يسعه من السرعة تلك الكارثة التى انقضّت على المتجر وألقت بهم جميعا فى حافة من اليأس المطبق. وهكذا كان قد نهض لكى يعمل بحماس ولم يلبث حتى تحول من كاتب صغير إلى تاجر متجول، تناوشه بالطبع فرص أعظم لكسب المال وسرعان ما تحول نجاحه إلى قطعة كبيرة مستديرة من العملة أمكنه أن يضعها فوق المائدة لدهشة أسرته وسعادتها. تلك كانت أياما مجيدة بالطبع و.. لن تكرر تلك الأيام. لن تكرر على الأقل نفس ذلك المجد على الرغم من أن جريجور قد كسب فيها بعد الكثير من المال حتى أصبح قادرا على مواجهة كافة نفقات الأسرة و.. قد قام بذلك. ولقد تعودت الأسرة ببساطة على هذا كما تعوده جريجور. فكان المال يؤخذ بامتنان. و.. يعطى عن طيب خاطر. لكن لم تكن ثمة فورة واحدة غير معتادة من دفء العاطفة. كان قد ظل متآلفا فقط مع شقيقته. ولقد كانت ضمن الخطط السرية فيما يختص بها - هى التى تهوى الموسيقى على عكسه ويمكنها أن تعزف عزفا مؤثرا على الكمان - خطة ارسالها فى العام التالى للدراسة فى الكونسيرفاتوار. على الرغم من النفقات الباهظة التى تتطلبها تلك الدراسة والتى يجب تدبيرها بطريقة ما وكان ذكر الكونسيرفاتوار يتردد غالبا فى الأحاديث التى كانت تدور بينه وبين شقيقته فى أثناء فترات زيارته القصيرة للمنزل لكن دائما كمجرد حلم جميل لن يقدر له أن يتحقق ولقد كان والداه يعارضان حتى تلك الإشارات البريئة إليه إلا أن جريجور كان قد بت فى أمره بصورة قاطعة و.. كان قد انتوى أن يعلن تلك الحقيقة بما يلزمها من الخطورة والأهمية فى يوم عيد الميلاد.

تلك كانت هى ما تدور فى رأسه من الأفكار - العقيمة تماما فى وضعه الراهن بينما كان قد انتصب واقفا خلف الباب ملتصقا به منصتا. وكان ينصرف أحيانا عن التسمع و.. أحيانا ما كانت رأسه تسقط فى إهمال مستندة إلى الباب لإرهاقه الشديد إلا أنه كان يتمالك نفسه على الفور. ذلك أن أقل صوت يمكن أن يحدث ارتطام رأسه بالباب كان من الممكن سماعه فى الخارج و.. كان حديثهم ينقطع تماما إذ ذاك و.. قد يقول والده بعد برهة (ترى ما الذى يفعله هناك الآن) ملتفتا بلا شك نحو الباب و.. بعدئذ فقط يعود مرة أخرى إلى الاتصال تدريجيا ما انقطع من الحديث.

كان جريجور قد علم الآن على قدر ما وسعه العلم. فلقد كان والده يميل إلى التكرار عند تفسير أى شىء تقريبا لأنه كان قد نفض يديه من أمثال تلك الأمور منذ وقت طويل مضى و.. لأن والدته أيضا لم يكن فى مقدورها أن تدرك الأمور على الفور.. أن قدراً ما من المال المستمر - مبلغا ضئيلا حقا للغاية - كان قد أحيا بعضا من حطام ثروتهم وكان قد تزايد قليلا أيضا لأن أرباحه لم تكن قد مست فى تلك الأثناء. كما أن المال الذى يدفعه جريجور كل شهر للمنزل - لم يكن يستبقى لنفسه فقط سوى بضعة دولارات - لم يكن قد أنفق عن آخره بالإضافة إلى هذا ولقد كوّن مجموع بقاياه مبلغا يمكن اعتباره رأسمالا صغيرا. وخلف الباب أومأ جريجور برأسه فى تشوق متهللا لاكتشاف هذا التدبير غير المتوقع وذلك التبصر. لقد كان فى إمكانه بالفعل أن يسدد للرئيس مزيدا من ديون والده بما يحصل عليه من المال الإضافى وكان هذا سيعجّل حينئذ بحلول هذا اليوم الذى يتخلص فيه من وظيفته إلا أن أسلوب والده فى تدبير الأمر كان بلا شك أفضل.

إلا أن ذلك المبلغ لم يكن بحال من الأحوال يكفي لكي تعيش الأسرة مرتكنة إليه فربما بعد عام أو عامين على الأكثر يجدون أنفسهم مرغمين على الإنفاق من أساس المبلغ نفسه هذا كل ما فى الأمر.. لم يكن يجب أن يمس هذا المبلغ بل كان يجب أن يبقى جانبا للأيام الحالكة أما المال اللازم لنفقات المعيشة فكان يلزمهم أن يتكسبوه. ولقد كان والده يتمتع ما يزال بصحة كافية حتى الآن لكنه كان عجوزا و.. لم يكن قد اضطلع بأداء أى عمل من الأعمال طوال الأعوام الخمسة الماضية وهى أعوام التبطل الخمسة الأولى طوال حياته المليئة بالكفاح الشاق على الرغم من عدم نجاحها حتى أنه كان قد أصبح سمينا إلى حد ما و.. أصبح متثاقلا فى حركته.

أما والدة جريجور العجوز، فكيف يتسنى لها أن تتكسب خبزها وهى مريضة بالربو الذى كان يرهقها حتى عندما تتجول فى أنحاء الشقة ويضطرها إلى الاستلقاء على الكنبة فى معظم الأيام تجاهد لاهثة لالتقاط أنفاسها إلى جوار إحدى النوافذ المفتوحة و.. هل يمكن لشقيقته أن تعمل لتكسب رزقها.. لقد كانت مجرد طفلة فى السابعة عشرة من عمرها وكانت قد عاشت حياة لاهية حتى ذلك الحين، أنفقتها فى الاختيال بثيابها الأنيقة والنوم الطويل والمساعدة فى شئون البيت والخروج أحيانا فى بعض الزيارات البريئة والعزف فوق هذا كله على الكمان.

حينئذ وعلى الرغم من كل ما تقدم ذكره من الحاجة إلى تكسب سبيل العيش ترك جريجور الباب مبتعدا و.. ألقى بنفسه فوق الكنبة الجلدية الباردة التى بجوار الباب و.. قد أحس بالسخونة اللاهية من فرط الخجل والحزن.

وغالبا ما كان يستلقى فوق تلك الكنبة طوال الليالى متقلبا فوق غطائها الجلدى دون أن يغلبه النوم قط أو مرهقا لنفسه بالمجهود الخارق الذى يقتضيه دفع أحد المقاعد إلى النافذة و.. من ثم ينهض متشبثا بقاعدة النافذة مستندا إلى المقعد مائلا على زجاج النافذة فى تشوق واضح إلى الحرية التى كان يتيحها له دائما التطلع من خلال النافذة ذلك أن الضباب والغموض كان قد بدأ بعنف فى الواقع ويوما بعد يوم حتى تلك الأشياء التى لم يكن يهتم بالتطلع إليها ويحجبها عن رؤيته حتى المستشفى عبر الشارع الذى كان قد مل رؤيته دائما أمام عينيه كان قد أصبح الآن بعيدا عن مجال رؤيته. و.. لو أنه لم يكن يعرف أنه كان يقطن فى شارع شارلوت وهو شارع هادىء إلا أنه واحد من شوارع المدينة على الرغم من ذلك، لاعتقد أن نافذته إنما كانت تطل على فراغ مقفر حيث تختلط السماء الرمادية والأرض الرمادية بعضها ببعض و.. لم تكن أخته بسرعة بديهتها فى حاجة إلى أن تلاحظ أكثر من مرتين وجود المقعد ذى الذراعين إلى جانب النافذة حتى تدفعه بعد كل مرة ترتب فيها حجرة جريجور حتى فى النهاية إلى نفس مكانه هناك بجوار النافذة كما أنها كانت تترك النافذة مفتوحة أيضا على مصراعيها.

لو أمكنه أن يتحدث إليها وأن يشكرها على كل ما تقوم به من أجله فلقد كان يستطيع أن يقابل خدماتها بصورة أفضل مما يلقاها به بالفعل ولقد كان هذا يثقل عليه و.. لقد حاولت هى دون شك أن تواجه فى بساطة كل المكاره التى فرضها عليها قيامها بأداء واجبها نحوه ولقد نجحت بالطبع فى ذلك بمرور الوقت إلا أن ذلك الوقت كان قد علم

جريجور الكثير أيضا. فلقد كان جريجور يضيق بالأسلوب الذى كانت تدخل به حجرته فما كانت تكاد تدخلها حتى تندفع مباشرة نحو النافذة دون أن تتريث حتى لكى تغلق الباب كما اعتادت أن تفعل فى عناية حتى تحجب مرأى حجرة جريجور عن أنظار الآخرين و.. من ثم تفتح مصراعى النافذة بأصابع متعجلة كما لو كانت على وشك الاختناق، لتتوقف بعدئذ لحظة أمام تيار الهواء المطلق فى برود مرير وتتردد أنفاسها عميقة مضطربة ولقد كان اندفاعها الصاخب ذاك يكدر جريجور مرتين كل يوم فكان يربض مرتجفا تحت الكنبة طوال الوقت متيقنا تمام اليقين من أنها قد كفته مشقة الانزعاج الذى لم تكن تتحمله قط ببقائها فى وجوده بداخل الحجرة دون أن تسرع بفتح النافذة.

وفى إحدى المناسبات بعد حوالى شهر من تحول جريجور، وبعد أن لم يعد هناك ما يدعوها إلى أن تظل على فزعها عند رؤيته، كانت قد أتت مبكرة قليلا على غير عادتها، ووجدته محدقا من خلال زجاج النافذة فى سكون تام، وقد بدا كما لو كان غولا فى هيئته تلك. ولم تكن الدهشة لتستولى على جريجور لو أنها لم تدخل الحجرة مطلقا، ما دامت لن تتمكن فورا من فتح النافذة، بينما كان يقف أمامها هناك، إلا أنها لم تتراجع فحسب، بل قفزت راجعة كأنها واجهت خطرا، وصفقت الباب.. فانغلق فى ضجة صاخبة حتى أن الغريب ما كان ليحسبه فقط إلا مستلقيا هناك فى انتظارها وقد انتوى أن ينهشها. ولقد اختبأ فى الحال تحت الكنبة بالطبع، لكن كان عليه أن يبقى منتظرا حتى الظهر حتى تعاود الدخول ثانية إلى حجرته ولقد بدت إذ ذاك ملهوفة على غير العادة، غاية اللهفة؟ ولقد أتاح له ذلك أن يدرك كم كان مرآه شنيعا فى

نظرها حتى الآن، أنه كان مقدرا له أن يبقى على شناعته تلك.. وكم كانت لابد تتكبد من الجهد، حتى تمنع نفسها من الفرار لرؤية ذلك الجزء الصغير من جسمه الذى كان يبرز خارجا من تحت الكنبة، ولكى يجنبها ـ لهذا ـ رؤية ذلك الجزء من جسمه، حمل ذات يوم ملاءة على ظهره إلى الكنبة، وقد اقتضاه ذلك أربع ساعات من العمل ـ ثم .. نشرها فوقها بحيث تحجبه كلية حتى لا تتمكن من رؤيته، ولو اضطرت حتى إلى أن تنحني على الأرض! فهل رأت من غير الضرورى نشر تلك الملاءة.. إذن لكانت قد رفعتها ثانية بالتأكيد، من فوق الكنبة، فلقد كان واضحا بصورة كافية ـ أن تستر جريجور، واحتجابه ذاك، لم يكن ليريحه فى شيء، إلا أنها تركتها كما هى فى مكانها، ولقد خيل لجريجور حتى أنه قد لمح فى عينيها نظرة امتنان عندما رفع الملاءة برأسه قليلا، فى حذر، ليرى أثر ذلك الترتيب الجديد عليها!.

لم يستطع والداه أن يقدما على دخول حجرة جريجور طوال الأسبوعين الأولين، وغالبا ما كان يسمعهما وهما يعبران عن تقديرهما لنشاط شقيقته في حين أنهما كثيرا ما كانا من قبل قد انتهراها، لكونها فى ظنهما ابنة غير ذات نفع على نحو ما. إلا أنهما الآن أباه وأمه كليهما غالبا ما كانا ينتظران فى الخارج أمام الباب، فى أثناء قيام شقيقته بترتيب حجرته، وكان عليها فور خروجها أن تنهى إليهما كيف كانت الأمور تبدو بداخل الحجرة على وجه الدقة.. ما الذى أكله جريجور، وكيف تمكن الآن من تدبير أموره، وعما إذا لم يكن ثمة احتمال لبعض التحسن الطفيف فى حالته. وسرعان ما بدأت أمه تعلن فى الحال، فوق ذلك، رغبتها في زيارته فى إلحاح، إلا أن والده

تلك السقطة الخطرة، لم تكن لتصيبه بأى ضرر. ولقد لاحظت شقيقته تلك التسلية الجديدة التى كان جريجور قد اهتدى إليها - فلقد كان قد ترك خلفه آثارا لتلك المادة اللزجة التى تفرزها حوافره، فى كل بقعة زحف فوقها - وقررت فى نفسها أن تهيىء له بقدر الإمكان، أوسع مجال ممكن ليزحف فيه، وأن تزيل قطع الأثاث التى تعوق حركته، وفى مقدمتها صندوق الملابس، ومائدة الكتابة. إلا أن هذا العمل كان أصعب من أن تضطلع بالقيام به وحدها، ولم تجرؤ على طلب العون من والدها، أما فيما يختص بالخادمة، وهى فتاة صغيرة فى السادسة عشرة فقد كان لديها الجرأة لتواصل البقاء بعد رحيل الطباخة، فلم يكن يمكنها أن تطلب مساعدتها، ذلك لأنها كانت قد اشترطت - كهبة خاصة - أن يؤذن لها بإغلاق باب المطبخ عليها، وأن تفتحه لدواع محددة. وعلى هذا فلم يكن أمامها سوى أن تستدعى والدتها، حينما يكون والدها خارج المنزل، وقد لبت السيدة العجوز تلك الدعوة فى فضول مفعم بالفرح المتشوق، الذى تبدد مع ذلك عند باب حجرة جريجور، ولقد دخلت شقيقة جريجور أولا لتطمئن على كل شىء، قبل أن تسمح لوالدته بالدخول، وفى سرعة خاطفة جذب جريجور الملاءة إلى أسفل، وطواها طيات عديدة، حتى تبدو كما لو كانت قد ألقيت بالفعل، عرضا فوق الكنبة. ولم يحملق خارجا من تحت الكنبة، فى هذه المرة، وقد زهد فى الاستمتاع بمشاهدة أمه فى تلك المناسبة، سعيدا فقط بمجرد دخولها حجرته! قالت لها أخته : «ادخلى إنه مختبىء»! وهى تسحب أمها بيدها، على ما يبدو، إلى الداخل! وكان بإمكان جريجور أن يتسمع الآن إلى جهاد المرأتين فى زحزحة صندوق الملابس العتيق

الثقيل من مكانه، بينما تطالب أخته بالقيام بالعبء الأكبر من المجهود، دون أن تلقى بالا إلى تحذيرات أمها، التى كانت خائفة من احتمال إفراط ابنها فى إرهاق قواها فوق الطاقة! ولقد استغرق ذلك وقتاً طويلا! وبعد أن مرت ربع ساعة على الأقل عليهما وهما تجذبان ذلك الصندوق، اعترضت أمه قائلة، بأنه من الأفضل أن يظل ذلك الصندوق فى مكانه كما هو، لأنه - أولاً - كان ثقيلا جدا، ولن يمكن إخراجه قبل عودة والده إلى المنزل، كما أن بقاءه على هذا النحو، فى وسط الحجرة، يعوق حركة جريجور، بينما لا يبدو مؤكدا - من ناحية أخرى - أن إزالة الأثاث سيفيد جريجور فى أى شىء! وقد كانت مدفوعة على عكس ذلك، إلى التفكير بأن رؤية جدران الحجرة العارية كانت قد ضغطت على قلبها، فلماذا لا يقدر لجريجور أن يحس الإحساس نفسه؟ بما أنه قد اعتاد على اثاثه تلك الفترة الطويلة، وأنه ربما أحس بالضياع تماما بدونه.. ثم استنتجت قائلة فى صوت خفيض : «ثم ألا تبدو» ولقد كانت فى الحقيقة تتحدث هامسة فى الأغلب، طوال الوقت، كما لو كانت تفعل ذلك، كى لا تتيح لجريجور - الذى لم تكن تدرى فى أى مكان مختبئا على وجه التحديد - أن يسمع حتى أقل همساتها، لأنها كانت مقتنعة بأنه لن يمكنه أن يفهم معنى كلماتها : «ألا تبدو كما لو كنا نوحى إليه عندما ننقل أثاثه بعيدا، بأننا قد فقدنا الأمل نهائيا فى شفائه، وأننا إنما نتركه وحيدا فى قسوة؟.. إننى أعتقد أنه من الأفضل أن نترك حجرته بنفس حالتها التى كانت عليها دائما، فإذا ما عاد إلينا ثانية كما كان، فلسوف يجد أن شيئا لم يتغير، وسيمكنه حينئذ بسهولة أكثر أن ينسى ما حدث له فى تلك الأثناء!» ولقد تحقق جريجور - عند سماعه

لتلك الكلمات التى قالتها أمه عن أن انتقاده لكل أشكال الحديث المباشر طوال الشهرين الماضيين، كان بالإضافة إلى اطراد الحياة العائلية الممل، لابد قد أصابه بالتشوش العقلى، وإلا فإنه لا يمكن أن يعلل حقيقة أنه قد تطلع باهتمام تام إلى إخلاء حجرته من الأثاث. فهل يريد حقا أن تتحول حجرته الدافئة، المجهزة على ذلك النحو المريح، بأثاث الأسرة العتيق، إلى حب خاو سوف يمكنه دون شك أن يزحف خلاله فى شتى الاتجاهات دونما عائق لكن على حساب إهدار كل ذكرى لأرضيته البشرية، فى نفس الوقت! لقد كان قد أوشك حقا على أن ينسى تماما أن صوت أمه الذى لم يكن قد سمعه منذ وقت طويل، كان هو فقط ما دفعه للعدول عن ذلك،.. إن شيئا لن يخرج من حجرته، ويجب أن يبقى كل شىء كما كان من قبل، إنه لا يمكنه أن يستغنى عن ذلك التأثير الطيب الذى يعكسه وجود الأثاث على إدراكه وحتى لو عاقه الأثاث فى زحفه اللاواعى عندما يدور بلا توقف، ويدور داخل الحجرة، فلن يكون ذلك عبئا فى وجوده بداخلها، بل ميزة هائلة!.

إلا أن شقيقته كانت ترى ـ لسوء الحظ ـ عكس ذلك الرأى، وكانت قد أصبحت معتادة، وليس دونما سبب ـ على أن تعتبر نفسها خبيرة فى شئون جريجور، وكأنما لمناقضة والديها، وعلى هذا فقد كانت نصيحة أمها كافية لتجعلها تصمم ليس فقط على إزالة الصندوق ومائدة الكتابة، تبعا لما انتوته فى البداية، بل على إزالة كل ما فى الحجرة، فيما عدا الكنبة التى لا غنى له عنها. ولم يكن ذلك التصميم بالطبع، مجرد نتيجة لعناد صبيانى، وللثقة بالنفس التى كانت قد جنتها أخيرا، إلى هذا الحد غير المتوقع وفى مقابل ذلك البذل.. بل لأنها

كانت قد أدركت فى الحقيقة، إن جريجور فى حاجة إلى مساحة متسعة ليزحف فوقها، فى حين أنه ـ من ناحية أخرى ـ لم يكن قط يستعمل ذلك الأثاث بالمرة، وهذا ما كان يبدو واضحا! وثمة عامل آخر، ربما كان أيضا هو ذلك المزاج المتحمس، لفتاة مراهقة، ذلك المزاج الذى يندفع إلى استهلاك نفسه فى كل مناسبة.. والذى أغرى «جريتا» أخيرا على أن تبالغ تجسيم الرعب الذى تعكسه ظروف شقيقها، كى يتسنى لها أكثر، أن تضطلع بأداء كل ما قد يتطلبه من أعباء! ففى حجرة يستقل جريجور وحده، وحتى بجدرانها العارية لم يكن سواها، ثمة من يحق له أن يضع قدميه مطلقا!.

وعلى هذا لم تكن لتتزحزح عن تصميمها أمام والدتها، التى بدت فوق ذلك متعجلة فى داخل حجرة جريجور، وغير واثقة لهذا من تماسكها.. وسرعان ما لجأت إلى الصمت، وعاونت ابنتها بأقصى ما فى وسعها، لدفع الصندوق إلى الخارج. ولقد كان فى مقدور جريجور أن يعيش الآن بدون الصندوق، لو اضطره الأمر إلى ذلك، لكنه كان يجب أن يحتفظ بمائدة الكتابة. وما أن فرغت المرأتان من دفع الصندوق إلى خارج حجرته، حتى أخرج جريجور رأسه من تحت الكنبة لكى يرى كيف يسعه أن يتدخل برفق وحذر، بقدر الامكان! لكن كانت أمه ـ لسوء الحظ ـ هى التى رجعت أولا، تاركة «جريتا» تطوق الصندوق بذراعيها، فى الحجرة المجاورة، حيث كانت تحاول زحزحته بمفردها دون أن يتحرك أمامها ـ بالطبع ـ من مكانه. ولم تكن أمه معتادة مع ذلك على رؤيته ـ فربما أحزنتها رؤيته ـ ولهذا تقهقر جريجور مسرعا فى ذعر إلى الطرف الآخر من الكنبة، لكن لم يسعه أن يمنع اهتزاز الملاءة قليلا

من الأمام. وقد كان ذلك كافيا لجذب انتباهها، لكنها توقفت وظلت ساكتة للحظة، ومن ثم عادت إلى «جريتا».

وعلى الرغم من أن جريجور ظل يؤكد لنفسه أن شيئا لم يكن قد وقع خلافا للعادة، وأن قليلا فقط من قطع الأثاث كان يجرى استبدالها إذ ذاك، إلا أنه كان عليه في الحال أن يقر بأن اندفاع كلتا المرأتين هنا وهناك ونداءاتها الخافتة، وأصوات جرجرة الأثاث فوق الأرض كانت قد آلمته كلها، كما لو كانت ضجيجا هائلا صادرا من كل الجهات في وقت معا، ومهما حاول أن يحني رأسه، وأن يلصق سيقانه بجسمه، أو ينكمش على نفسه ملتصقا بالأرض فقد كان عليه أن يعترف بأنه لم يكن ليحتملها طويلا! كانت المرأتان تقومان بإخلاء حجرته تماما، دافعتين بكل شيء كان قد أحبه إلى الخارج.. الصندوق التي كان يحتفظ فيه بمنشار الحلية، وبعض الأدوات الأخرى، كان قد تم سحبه بالفعل إلى الخارج.. وكانتا الآن تزيحان مائدة الكتابة التي كانت قد تهاوت تقريبا مائلة نحو الأرض. تلك المائدة التي كان قد قام بأداء واجباته المنزلية فوقها حينما كان طالبا بكلية التجارة، وحينما كان تلميذا بالمدرسة الابتدائية!. لم يعد لديه مزيد من الوقت لإضاعته في تقدير النوايا الطيبة لهاتين المرأتين اللتين كان قد نسى الآن وجودهما على الأغلب، فلقد كانتا متعبتين للغاية حتى أنهما كانتا تعملان في صمت، ولم يكن ليسمع فقط سوى وقع أقدامها!.

ولهذا اندفع خارجا ـ كانت المرأتان تنحنيان إلى مائدة الكتابة في الحجرة المجاورة، حتى تتمكنا من التقاط أنفاسهما ـ ولقد غير اتجاهه أربع مرات، حيث لم يكن يدرى ما الذى كان ينبغى عليه أن ينقذه أولا،

ثم.. اصطدم على الحائط المقابل الذى كان قد أصبح عاريا تماما بالفعل خلافا لما كان يتوقعه - بصورة تلك السيدة التى كانت ترتدى كل ذلك الفراء، فزحف صاعدا نحوها على الفور، وضغط جسمه إلى الزجاج الذى بدا سطحه مناسبا تماما للثبات فوقه.. وأراح بطنه الملتهبة!. لن يمكن لأحد أن يرفع تلك الصورة التى كانت تختفى تحته على الأقل!. أدار وجهه ناحية الباب المؤدى إلى حجرة الجلوس، حتى يمكنه أن يرقب المرأتين عند عودتهما!.

لم تسمحا لنفسيهما بفترة طويلة من الراحة، بل رجعتا لتوهما، وكانت «جريتا» قد لفت ذراعها حول أمها، تسندها، قائلة وهى تلتفت حولها: «حسنا» ما الذى سوف نأخذه الآن؟» فالتقت عيناها بجريجور فوق الحائط إلا أنها احتفظت بهدوئها.. ربما من أجل والدتها، وأحنت رأسها نحو أمها إلى أسفل، حتى تبعدها عن التطلع إلى أعلى، ثم قالت فى غير تكلف، على الرغم من اضطراب صوتها: «هيا، أليس من الأفضل أن نعود إلى حجرة الجلوس، كانت نواياها واضحة غاية الوضوح بالنسبة لجريجور، فلقد أرادت أن تشيع أمها إلى الداخل بسلام، ومن ثم تطارده، لكى يهبط من على الحائط! «حسنا، دعها تفعل ذلك»!. فلقد تعلق بصورته، ولن يتركها، ولسوف يطير مندفعا فى وجه «جريتا».

إلا أن كلمات «جريتا» كانت قد نجحت فى إزعاج أمها التى كانت قد انحرفت خطوة إلى جانب، ولمحت الكتلة البنية الضخمة، فوق ورق الحائط المنقوش بالزهور، وقبل أن تعى حقا أن ما رأته كان هو جريجور، صاحت فى صوت خشن مدو : «آه يا إلهى، يا إلهى»! وتهاوت

مفرودة الذراعين فوق الكنبة كما لو كانت أسلمت الروح. ولم تحرك ساكنا!.

صاحت شقيقته، وهى تهز قبضتها متطلعة نحوه : «جريجور» كانت هذه هى المرة الأولى التى خاطبته فيها مباشرة، منذ تحوله، واندفعت إلى داخل الحجرة المجاورة بحثا عن إحدى زجاجات العطور، لكى تساعد أمها على أن تفيق من إغمائها ورغب جريجور كذلك فى تقديم المساعدة، فلقد كانت هناك ثمة فسحة من الوقت لإنقاذ الصورة ـ لكنه كان ملتصقا جدا بالصورة وكان عليه أن ينزع نفسه منها انتزاعا ومن ثم اندفع يعدو خلف شقيقته إلى داخل الحجرة الأخرى، كما لو كان يمكنه أن ينصحها بما ينبغى عليها عمله، وكانت قد بحثت فى تلك الأثناء بين عديد من الزجاجات الصغيرة، وعندما استدارت خلفها اضطربت فى فزع عند رؤيته، وسقطت إحدى الزجاجات من يدها، وتحطمت فوق الأرض، وجرحت إحدى الشظايا وجه جريجور، وطرطشت فوقه قطرات من مادة طبية قارضة، وجمعت «جريتا» كل الزجاجات التى تمكنت من حملها وأسرعت بها إلى أمها دون أن تتريث لحظة واحدة، ثم دفعت الباب بقدمها، فانصفق بفرقعة مدوية، وأصبح جريجور الآن معزولا عن أمه، التى ربما كانت توشك الآن على الموت بسببه، إلا أنه لم يجرؤ على فتح الباب خوفا من إفزاع شقيقته التى كان عليها أن تبقى إلى جوار أمها، ولم يكن أمامه أى شىء آخر ليفعله سوى الانتظار متكدرا بسبب تأنيبه لنفسه، وقد بدأ ـ لخوفه ـ يزحف هنا وهناك فوق كل شىء.. فوق الجدران والأثاث والسقف، وفى غمرة يأسه أخيرا عندما أخذت الحجرة بكاملها تدور حوله، سقط منحطا فى وسط المائدة الكبيرة.

وانقضت فترة قصيرة من الوقت وكان جريجور ما يزال مستلقيا هناك في وهن، بينما كان الهدوء يلف كل شيء حوله. وربما كان هذا فألا حسنا. ثم دق جرس الباب وكانت الخادمة بالطبع محبوسة في داخل المطبخ المغلق عليها. وكان على «جريتا» أن تفتح الباب. كان والده هو القادم. وكانت الكلمات الأولى التي تفوه بها هي : «ما الذي حدث؟» فلابد أن وجه جريتا كان قد أوضح له كل شيء!.

وأجابته «جريتا» في صوت خفيض، مخبئة رأسها لا شك في صدره: «كان قد أغمي على أمي، ولكنها تحسنت الآن!.. وقد شرد جريجور خارجا من حجرته!.»

فقال والده : «هذا بالضبط هو ما توقعته.. هذا هو ما كنت أقوله لك بالضبط إلا أنكن لا تستمعن إلى شيء، أيتها النسوة!» بدا واضحا لجريجور أن والده كان قد تلقى أسوأ تفسير من تقرير «جريتا» المقتضب للغاية وتوهم أن جريجور قد أذنب بارتكابه جرما رهيبا، لهذا يجب على جريجور أن يحاول استعطاف والده بما أنه لا يتيسر له الوقت، ولا الوسيلة لمحاولة شرح الأمر! وعلى هذا فقد انطلق هاربا نحو باب حجرته، ثم ربض أمامه، لكي يتيح لوالده أن يرى عندما يدخل قادما من الصالة، أن لدى ابنه نية طيبة للدخول ثانية إلى حجرته على الفور وأنه من غير الضروري دفعه على الدخول مرغما.. ولو أن الباب فقط كان مفتوحا لكان قد اختفى إذن لتوه!.

إلا أن والده لم يكن في حالة يمكنه فيها إدراك مثل تلك التوضيحات، بل صاح قائلا فور ظهوره، في صوت بدأ الغضب في زمته والانتصار معا لأول وهلة : «آه..» فحسب المسلّم به أنه كان قد

استغرق للغاية أخيرا فى تسليته الجديدة، فى الزحف فوق الجدران، فلم يعد لديه نفس الاهتمام السابق بما كان يحدث فى أى مكان آخر من الشقة، ويجب عليه حقا أن يعد نفسه لمواجهة بعض التغييرات. لكن على الرغم من هذا كله، هل يمكنه أن يكون هذا هو أباه؟ ذلك الرجل الذى اعتاد أن يستلقى فى سأم، غارقا فى الفراش عندما كان جريجور يخرج فى إحدى رحلات عمله، والذى كان يستقبله عند عودته ليلاً مستلقيا فوق مقعد مستطيل، مرتديا روبه المنزلى، والذى لم يكن يمكنه بالفعل أن ينهض على قدميه، وإنما يرفع ذراعيه فقط للتحية، والذى كان إذا خرج فى بعض المناسبات النادرة مع أسرته مرة أو مرتين فى العام.. فى أيام الآحاد.. فى مناسبات الأعياد، سار بين جريجور وبين أمه، اللذين كانا يسيران فى بطء على نحو ما - أكثر بطئا حتى من سيرهما ذاك البطىء، وقد ارتدى معطفه العتيق، دافعا نفسه إلى الأمام بمجهود، مستندا إلى عصاه ذات المقبض الملتوى، التى كان يتلمس بها الأرض فى حذر عند كل خطوة، والذى حينما كان يريد أن يقول شيئا ما، توقف تماما عن السير وجمع حراسه من حوله؟ لقد كان يقف هناك الآن فى هيئة ثابتة مرتديا بدلة أنيقة زرقاء اللون ذات أزرار مذهبة، كتلك التى يلبسها سعاة البنوك، وقد انتفخت ذقنه القوية المقسمة إلى شطرين فوق ياقة سترته العالية المنشاة، وتحت حاجبيه المنفوشين تلمع عيناه السوداوين فى يقظة، ونظرات نافذة وشعره الأبيض الذى كان أشعث ذات مرة، كان ممشطا الآن، منبسطا على جانبى مفرق يتألق مستقيما فى عناية. وخلع «الكاب» الذى يحمل شارة مذهبة - ربما كانت شارة أحد البنوك - وطوحه فى رمية واسعة عبر

فخامة، وممتلئة بالعقد والفجوات، استقر شيء ما فجأة مرتطما بالأرض إلى جواره. وتدحرج أمامه! كانت تفاحة.. وتبعتها تفاحة أخرى على الفور!. وتوقف جريجور فى ذعر! لم يكن ثمة سبيل الآن لمواصلة الجرى إلى الأمام لأن والده كان قد صمم على إطلاق تلك القذائف نحوه!. كان قد ملأ جيوبه بتلك الثمار من أحد الأطباق الممتلئة فوق البوفيه، وراح الآن يسدد التفاحة بعد الأخرى دون أدنى اهتمام بإحكام التسديد فى حينه، وتدحرجت التفاحات الصغيرة الحمراء، كما لو كانت كل منها مشدودة بمغناطيس ومسددة نحو الأخرى.. وتدحرجت تفاحة لم تكن قد سددت بقوة كافية، فوق ظهر جريجور، ثم انزلقت دون أن تلحق به أى أذى إلا أن واحدة أخرى تبعتها على الفور، استقرت فى ظهره وغاصت فيه، وأراد جريجور أن يجر نفسه إلى الأمام، كما لو كان فى الإمكان ترك ذلك الألم المفزع، الذى لا يحتمل، خلفه، لكنه أحس به فى البقعة نفسها، كما لو كان قد ثبت فيها مسامير.. ومدد جسمه وتعطلت حواسه كلها.

وبآخر نظرة أمكنه أن يعيها، رأى باب حجرته وقد انفتح، واندفعت أمه خارجة منها، وخلفها شقيقته تطلق صرخاتها - فى قميصها الداخلى - لأن ابنتها كانت قد خلعت عنها ملابسها، حتى يسهل عليها التنفس بسهولة أكثر، ويمكنها أن تفيق من إغمائها! رأى أمه تندفع متجهة نحو والده.. واحتضنته، متحدة به فى وحدة كاملة - إلا أن عينى جريجور أطرقتا عند هذا الحد نحو الأرض - ويداها تلتفان حول عنق والده، كما لو كانت تستعطفه أن يبقى على حياة ابنها!.

بدت الإصابة الخطيرة التى أصابت جريجور، والتى أقعدته عن الحركة لأكثر من شهر - فقد كانت التفاحة قد انغرست فى جسمه كذكرى مرئية.. طالما أن أحدا لم يغامر بإزالتها وكأنها قد دفعت حتى والده نفسه إلى أن يتذكر أن جريجور كان واحدا من أفراد الأسرة، على الرغم من تعاسته الراهنة، وهيئته البشعة، ولا تجب معاملته باعتباره عدوا، وأن واجب الأسرة، على العكس من ذلك يقتضيها نبذ القرف، ومعالجة الصبر ولا شىء غير الصبر.

وعلى الرغم من أن إصابته تلك كانت قد شلت قواه عن الحركة - ربما إلى الأبد - وأصبح زحفه عبر حجرته بمرور الوقت، يستغرقه دقائق طويلة، وكأنه جريح عجوز - ولم يعد ثمة مجال الآن للتساؤل عن الزحف فوق الجدران - إلا أنه كان يرى أنه قد استعاض، إلى حد كاف، عن ذلك الضرر الذى ألم به، بحقيقة أن باب حجرة الجلوس - الذى كان قد اعتاد على مراقبته باعتباره لمدة ساعة أو ساعتين مقدما - كان يترك مفتوحا دائما كل ساعة، حتى أنه كان يمكنه، بينما كان يستلقى مختبئاً عن الأنظار وسط ظلام حجرته، أن يراهم جميعا بجوار المائدة، التى كانت تستقر فوقها لمبة مضاءة، وأن يستمع إلى حديثهم، بغاية الرضا، لأنه كان يختلف تماما عما كان قد تسمع إليه منهم من قبل، من أحاديث.

كان حديثهم يفتقر حقا إلى طابع الحياة الذى كان يطبعه فى الأوقات السابقة والذى كان يتذكره دائما فى شوق زائد، فى حجرات نوم الفنادق الضيقة، التى كان يتردد عليها ليستلقى مرهقا فوق الأسرة الرطبة، وكانوا يلجأون فى أغلب الأحيان إلى الصمت، وسرعان ما كان والده يستغرق نائما فى مقعده ذى المسند، وكانت والدته وشقيقته

تنبهان بعضهما إلى التزام الصمت. وقد كانت والدته تنحنى نحو اللمبة.. منكبة على بعض أشغال التطريز الفاخرة لأحد محلات بيع الملابس الداخلية، أما شقيقته التى كانت قد حصلت على وظيفة بائعة فى أحد المحلات فقد كانت تدرس الاختزال واللغة الفرنسية فى أثناء تلك الأمسيات، كمحاولة لتحسين وضعها وكان والده يستيقظ أحيانا.. فيقول لوالدته، متجاهلا تماما أنه كان نائما: (يا للكمية الهائلة من التطريز التى أنجزتها اليوم!). ومن ثم يستغرق ثانية فى النعاس مرة أخرى على الفور بينما تتبادل المرأتان ابتسامة متعبة.

وكان والده قد تشبث فى نوع من العناد بالبقاء مرتديا زى العمل حتى فى داخل المنزل. وظل روبه المنزلى معلقا بإهمال فوق شماعته. وكان ينام بملابسه كاملة حيث كان يجلس كما لو كان على أتم استعداد فى أية لحظة حتى بينما يكون فى منزله إلى تلبية إشارة أو نداء من رئيسه. وكنتيجة لذلك بدأ زيه الذى لم يكن قد تسلمه جديدا تماما عند بدء عمله فى الاتساخ، على الرغم من العناية الزائدة التى كانت توليه إياها الأم والأخت.. حتى يظل نظيفاً. وكان جريجور ينفق الأمسيات الطويلة محدقا فى بقع الشحم العديدة التى كانت تتناثر على ذلك الرداء الذى تلمع فوقه الأزرار المذهبة دائما فى غاية اللمعان، والذى يرتديه الرجل العجوز فى أثناء نومه مرهقا للغاية لكن فى سلام تام.

وعندما دقت الساعة معلنة العاشرة حاولت أمه أن توقظ أباه ببعض الكلمات الرقيقة وأن تدفعه بعد ذلك إلى الذهاب إلى فراشه. فلم يكن ليرتاح فى نومه. فى جلسته تلك فوق المقعد وقد كان النوم المريح هو كل ما يحتاجه. حيث كان يذهب إلى عمله فى الساعة السادسة صباحا..

إلا أنه كان يصر بالعناد الذى كان قد استولى عليه منذ أن أصبح ساعيا بالبنك على البقاء أطول مدة ممكنة بجوار المائدة على الرغم من أنه كان يغرق ثانية فى النعاس عادة وفى النهاية وبعد أقصى إلحاح ممكن كان ينهض من على المقعد ذى المساند ويتجه نحو فراشه.

ومهما كانت أمه وشقيقته تلحان على ملاحظته باستعجالاتهما الرقيقة فقد كان يهز رأسه ما يقرب من ربع الساعة مغلقا عينيه رافضا النهوض على قدميه. وكانت الأم تجذبه من كمه، هامسة فى أذنه بتردد. وكانت الأخت تترك دروسها لتعاون أمها فى مهمتها تلك. إلا أن والد جريجور لم يكن ليستجيب. بل كان يهبط غاطسا فى مقعده أكثر من ذى قبل. ولم يكن ليفتح عينيه حتى ترفعه المرأتان من تحت إبطيه فينظر إليهما واحدة بعد الأخرى معلقا عادة بقوله : (هذه هى حياتى.. وتلك هى سكينة وهدوء شيخوختى!). ومن ثم ينهض متساندا عليهما فى تثاقل كما لو كان عبئا ثقيلا بالنسبة لنفسه. ويدفعهما إلى أن توصلاه حتى الباب. وحينئذ يدفعهما بعيدا عنه ليواصل السير وحده. بينما كانت الأم تترك إبر تطريزها وكانت الابنة تترك قلمها. لتلحقا به.. وتسندانه ثانية.

فمن من أفراد تلك الأسرة المكافحة.. المرهقة.. كان يجد الوقت ليهتم بشئون جريجور، أكثر مما تتطلبه الضرورة القصوى؟ كان الاهتمام بشئون المنزل قد هبط أكثر فأكثر. وكانت الخادمة قد رحلت. وكانت تحضر فى الصباح وفى المساء غسالة ضخمة شرسة يتطاير شعرها الأبيض حول رأسها للقيام بالأعمال المنزلية المرهقة وكانت والدة جريجور تقوم بأداء كل شىء آخر بالإضافة إلى الأكوام الهائلة من أعمال التطريز. أما حلى الأسرة ومقتنياتها جميعا، تلك التى

اعتادت أمه وشقيقته أن ترتدياها بخيلاء في الحفلات والسهرات، فكان عليها أن تباع. كما اكتشف جريجور ذات مساء عندما سمعهم جميعا يتناقشون حول الأثمان التي كانوا ينتظرونها. إلا أن أشد ما كان يسخطهم، هي حقيقة أنهم لم يكن يمكنهم إخلاء الشقة التي كانت قد أصبحت متسعة الآن جدا، بالنسبة لظروفهم الراهنة لأنهم لم يكن يمكنهم أن يهتدوا إلى وسيلة ينقلون بها جريجور.

مع أن جريجور كان يرى بوضوح تام، أن ما يتعلق به من اعتبارات لم يكن هو اللعبة الأساسية التي تمنعهم من الانتقال. لأنه كان يمكنهم بسهولة أن يعوقهم حقيقة عن الانتقال إلى شقة أخرى. فقد كان تقريبا هو يأسهم التام. اعتقادهم أن الأقدار قد اختصتهم بمصيبة. لن يحدث لها مثيل قط لأي من أقربائهم أو معارفهم. فلقد كانوا قد بلغوا أقصى ما يمكن أن تبلغه الرؤساء من الناس تحت ضغط الأقدار. كان الأب يحضر الفطور لصغار الكتبة في البنك. وكانت الأم قد نذرت كل قواها في تطريز الملابس للغرباء أما الأخت فكانت تتراكض هنا وهناك خلف منضدة البيع، تلبية لرغبة الزبائن. أما ما عدا ذلك فلم يكن لديهم من الجهد ما يغريهم على أدائه. وكان الجرح الذي في ظهر جريجور قد بدأ يولمه من جديد حينما كانت أمه وشقيقته، بعد أن رافقتا والده إلى الفراش، وقد عادتا ثانية وتركتا عملهما واقتربتا من بعضهما وجلستا متلاصقتين.. ثم أشارت والدته عندئذ إلى حجرته قائلة : (اغلقي ذلك الباب يا جريتا).. وغرق جريجور ثانية في ظلام حجرته بينما اختلطت دموع المرأتين في الحجرة الأخرى أو لعلهما جلستا بلا دموع تحدقان في المائدة!.

وأصبح من النادر أن ينام جريجور بطول الليل أو النهار وكانت تستبد به على الأغلب فكرة أنه ما أن يفتح الباب ثانية، حتى ينهض للقيام بكل أعباء الأسرة مرة أخرى. كما اعتاد أن يفعل من قبل. وظهر شبح الرئيس. والباشكاتب فى مخيلته مرة أخرى بعد تلك الفترة الطويلة والتجار المتجولين والمستخدمين.. والعمال الذين بدوا بذلك الحمق.. واثنين أو ثلاثة من أصدقائه الذين يعملون فى مؤسسات أخرى. وخادمة فى إحدى الفنادق الريفية ذكرى جميلة عابرة، وعاملة خزينة فى أحد محال بيع القبعات. كان قد تودد إليها بإخلاص. لكن بغاية البطء ظهر كل هؤلاء. وبالاضافة إليهم غرباء أو أناس كان قد نسيهم تماما إلا أنهم جميعا بدلا من أن يساعدوه أو يعينوا أسرته لم يعثر المرء على أى أثر لهم قط. ولقد كان سعيدا باختفائهم. وفى أحيان أخرى. لم تكن حالته تسمح له بالتفكير فى أسرته. وإنما كان مفعما فقط بالغضب لإهمالهم له إلى ذلك الحد.. وعلى الرغم من أنه لم يكن لديه فكرة محددة عما كان يمكن أن يأكله. فقد كان يفكر فى الدخول إلى حجرة الكرار ليحصل على الطعام الذى كان فوق كل شىء حقا مشروعا له حتى ولو لم يكن جائعا ولم تلبث شقيقته حتى اهتمت بأن تحضر له ما كان يرضيه. لكن فقط فى الصباح، فى المساء فقد كانت تدفع بقدمها إلى داخل حجرته ما كان يقع تحت يدها من الطعام. تتعجل قبل أن تذهب إلى عملها. كانت ترفع بقاياه فى المساء، بضربة واحدة من المكنسة غير عابئة بما إذا كان الطعام قد راق له. إنه ـ كما كان يحدث فى أغلب الأحيان ـ قد ظل كما هو دون أن يمس. لم يكن لتنظيف حجرته الذى كانت تقوم بأدائه فى المساء يمكن أن يتم

بصورة أسرع مما كانت تؤديه بها. وكانت لطشات من القذارة قد امتدت على طول الجدران وكانت تتناثر هنا وهناك كتل من الأتربة والقذارة وكان جريجور قد اعتاد في بداية الأمر أن يقع في أحد الأركان والقذارة عندما تدخل شقيقته حتى يلومها في قرارته على ما يبدو، الا أنه ظل قابعا هناك في ركنه ذاك لعدة أسابيع دون أن يتمكن من أن يدفعها إلى القيام بتنظيفه ولقد كان في وسعها أن ترى الأتربة كما كان يراها. إلا أنها ببساطة كانت قد قررت أن تتركها على حالها. لكنها دافعت في حماس في الوقت نفسه عن حقها، في أن تنفرد برعاية شئون جريجور. في حساسية كانت جديدة عليها. وكانت تبدو كما لو كانت قد انتقلت عدواها إلى باقي الأسرة، وكانت أمه قد قامت في إحدى المرات لتنظيف حجرته تنظيفا شاملا. وقد استخدمت لذلك عدة جرادل من الماء - وقد ضايقت تلك الرطوبة كلها جريجور بالطبع هو أيضا فاستلقى متمددا في استياء دون حراك فوق الكنبة - إلا أنها نالت عقابها على ما جنت يداها. فما أن لمحت شقيقته منظر حجرته المتغير في تلك الليلة حتى اندفعت محنقة غاية الحنق إلى حجرة الجلوس. وعلى الرغم من ذراعي أمها المرفوعتين في توسل انفجرت في عاصفة من البكاء.. بينما تطلع والداها.. كان والدها في تفزع بالطبع ناهضا من فوق مقعده في حيرة عاجزة في بداية الأمر ثم خرجا عن الصمت أخيرا فلام الأب الأم إلى يمينه لعدم تركها تنظيف حجرة جريجور لشقيقته. وصرخ في الأخت على يساره بأنه ليس لها بعد الآن أن تقوم بتنظيف حجرة جريجور.

بينما حاولت الأم أن تجذب الأب إلى حجرة نومه بما أنه كان مهتاجا فوق طاقته. وكانت الأخت تنشج بشهقاتها ثم راحت تدق

المائدة بقبضتيها الصغيرتين. وأطلق جريجور صفيرا مرتفعا معلنا غضبه لأن أحدا منهم لم يفكر فى إغلاق الباب حتى يجنبه رؤية مثل ذلك المشهد وتلك الضجة الهائلة.

ولم تعد هناك حاجة بعد ذلك إلى تدخل الأم حتى بعد أن تعبت الأخت من مواصلة العناية بجريجور لإرهاق قواها فى عملها اليومى. كما لم يعد ثمة ما يدعو إلى إهمال جريجور تماما. فلقد كانت الغسالة هناك تلك الأرملة العجوز التى ساعدها بناؤها الضخم المتين على أن تبعث فى جريجور أسوأ ما أمكنها أن تبعثه فيه إلى الحياة. كانت قد فتحت باب حجرته ذات مرة دون قصد.. وعند رؤيتها لجريجور الذى اندفع مضطربا هنا وهناك لمفاجأته رغم أن أحدا لم يكن يطارده، توقفت فحسب فى مكانها عاقدة ذراعيها ومنذ ذلك الحين لم تترك مناسبة لفتح حجرته قليلا لمدة دقيقة فى الصباح وفى المساء لتلقى نظرة عليه. وكانت قد اعتادت فى البداية أن تناديه بكلمات ربما كانت تظنها ودية.. كقولها له : (والآن تعال هنا يا خنفس الفضلات العجوز!)، أو (انظروا الآن إلى خنفس الفضلات العجوز!) لم يكن جريجور يستجيب مطلقا لمثل تلك النداءات، وإنما كان يظل قابعا فى مكانه بلا حراك. كما لو لم يكن الباب قد فتح بالمرة. ربما كان عليهم أن يأمروا تلك الغسالة بتنظيف حجرته يوميا بدلا من السماح لها بإزعاجه باستهتار إلى ذلك الحد، كلما راق لها أن تفعل. وذات مرة فى الصباح الباكر - وكانت الأمطار الغزيرة تصفع زجاج النافذة ربما إيذانا بقرب حلول الربيع - كان جريجور ساخطا غاية السخط حتى أنه اندفع نحوها. كما لو كان ينوى مهاجمتها. على الرغم من بطء حركته، وعجزه

الشديد. عندما بدأت تخاطبه ثانية على ذلك النحو، لكن بدلا من أن يبدو الخوف على الغسالة.. كانت فقط قد رفعت مقعدا تصادف وجوده بجوار الباب. وكان واضحا، عندما انتصبت هناك بفمها المفغور على اتساعه، أنها لم تكن تنوى إغلاق الباب إلا بعد أن ينزل المقعد فوق ظهر جريجور تساءلت قائلة له : (أنت إذن لن تقترب؟).. بينما كان جريجور قد استدار مبتعدا، فوضعت المقعد ثانية بهدوء فى أحد الأركان.

لم يعد جريجور يأكل الآن أى شىء تقريبا. وحينما كان يمر فقط بجوار الطعام الذى كان يوضع من أجله.. كان يتناول جزءا صغيرا من أى شىء على سبيل التسلية، فيبقى فى فمه حوالى الساعة. ثم يبصقه مرة أخرى عادة وكان قد ظن فى بداية الأمر أن حزنه على سوء حال حجرته هو ما كان يمنعه عن الطعام إلا أنه سرعان ما اعتاد كل ما كان يطرأ على حجرته من التغيرات العديدة. وكان قد أصبح من عادة الأسرة أن تدفع إلى حجرته بكل الأشياء التى لم يكن لها أى مكان آخر فى الشقة. وكانت حجرته قد اكتظت أخيرا بالعديد من هذه الأشياء. حيث كانت إحدى الحجرات قد أخليت لثلاثة من السكان.

وقد كان لدى هؤلاء الشبان الثلاثة ـ الجادين ـ كان ثلاثتهم ذوى لحى كثيفة، كما لاحظ جريجور من خلال شقوق الباب، ولع شديد بالنظام لا فى داخل حجرتهم فقط، وإنما فى كل مكان بالمنزل. طالما أنهم قد أصبحوا الآن من سكانه وخاصة فى داخل المطبخ. وقد استغنوا عن عديد من الأشياء ـ لا لقذارتها ـ بل لأنهم لم يكونوا يحتملون وجودها بداخله، كما أنهم كانوا علاوة على ذلك قد أحضروا معهم بعض الأثاث الذى كانوا بحاجة إليه. ولهذا السبب أمكن الاستغناء عن عديد من

الأشياء التى لم تكن ذات نفع حتى يمكن بيعها، ولم تكن لتلقى بعيدا أيضا. ولقد وجدت كل تلك الأشياء طريقها بالطبع إلى حجرة جريجور، كما وجدت صفيحة الرماد، وكذلك صفيحة القمامة هى أيضا طريقها إلى حجرته. وكل ما لم يكن يلزم استعماله فى حينه. كانت الغسالة التى كانت تؤدى كل شىء فى سرعة بالغة تطوح به ببساطة إلى داخل حجرة جريجور. إلا أن جريجور لحسن حظه لم يكن يرى فقط سوى الأشياء التى كانت تطوحها إلى داخل حجرته ويدها التى كانت تطوح بها تلك الأشياء فقط. وربما كانت قد انتوت أن تخرج كل تلك الأشياء ثانية عندما تسمح الفرصة والوقت أو ربما كانت تجمعها فى كومة، حتى تلقى بها فى النهاية إلى الخارج.

إلا أن تلك الأشياء بقيت فقط فى الحقيقة حيث اتفق أن ألقتها الغسالة، إلا عندما كان جريجور يشق لنفسه طريقا وسط أكوام تلك البقايا.. فيبعثرها على نحو ما، مضطرا فى بداية الأمر، حيث لم يكن أمامه متسع من الفراغ لكي يزحف فيه. ثم بسعادة متزايدة فيما بعد. على الرغم من أنه كان يشعر بالحزن بعد تلك الرياضة فكان يتمدد بلا حراك، متعبا لدرجة الموت، عدة ساعات.

ولما كان السكان الجدد غالبا ما يتناولون عشاءهم بالمنزل، فى حجرة الجلوس المعهودة نفسها، فقد ظل باب الحجرة مغلقا دائما كل مساء إلا أن جريجور كان قد اعتاد بسهولة تامة على إغلاق الباب، حتى أنه عندما كان يفتح فى كثير من الأحيان فى بعض الليالى لم يكن جريجور يلحظ ذلك مطلقا. وكان يبقى متمددا فى مكانه، فى أقصى ركن مظلم من حجرته مختبئاً تماما عن أنظار الأسرة.

إلا أن الغسالة ـ كانت قد تركت الباب مفتوحا قليلا ذات مرة، وظل الباب مورويا على ذلك النحو، حتى بعد أن أضيء المصباح، وقدم السكان الثلاثة لتناول العشاء. كانوا قد جلسوا عند رأس المائدة، حيث كان يجلس جريجور ووالده وأمه في الماضي لتناول وجباتهم. فرد كل منهم فوطته، وأمسك بالشوكة والسكين، وظهرت أمه في الحال. في مدخل الباب المقابل، وبين يديها طبق ممتلىء باللحم، وخلفها مباشرة شقيقته تحمل طبقا ممتلئا بكومة عالية من البطاطس. كان البخار الكثيف يتصاعد من الطعام. وانحنى السكان على الطعام الذي وضع أمامهم، كما لو كانوا يتفحصونه قبل أن يشرعوا في تناوله. وقطع الرجل الذي كان يتوسطهم، والذي كان يبدو مسيطرا على رفيقيه الآخرين إلى حد ما، قطعة صغيرة من اللحم الموضوع أمامه في الطبق، ليرى إن كان قد تم نضجه أم يجب أن يعود إلى المطبخ مرة أخرى.. ولقد أبدى ارتياحه. وتنفست والدة جريجور وشقيقته ـ اللتان كانتا ترقبانه ـ قلقتين ـ في ارتياح وشرعتا تبتسمان.

كانت الأسرة نفسها تتناول وجباتها في المطبخ، وعند دخول والد جريجور إلى حجرة الجلوس، قبل أن يتجه إلى المطبخ، كان يدور حول المائدة، في انحناءة طويلة، و(الكاب) في يده.. فكان السكان الثلاثة يقفون مهمهمين بشيء ما، في داخل لحاهم. وعندما يخلون ثانية إلى أنفسهم، كانوا يلتهمون طعامهم في صمت تام، وقد بدا واضحا لجريجور، من بين الأصوات العديدة التي كانت تصدر عن المائدة، أنه كان يميز صوت أسنانهم أثناء مضغ الطعام، كما لو كان هذا إشارة

لجريجور بأن المرء بحاجة إلى الأسنان، حتى يمكنه أن يتناول طعامه، وأن الفكين، مهما بلغت قوتهما لا يفيدان شيئا، بلا أسنان.

قال جريجور لنفسه فى حزن : (إننى جائع للغاية، لكن ليس هذا هو الطعام الذى أريده، كيف يملأ هؤلاء السكان بطونهم، بينما أكاد أنا أتضور هنا جوعا)؟.

فى ذلك المساء - لم يكن جريجور يذكر طوال فترة وجوده هناك، فى داخل حجرته، أنه قد استمع قط إلى صوت الكمان، انبعث صوت العزف على الكمان صادرا من المطبخ، وكان السكان قد فرغوا للتو من تناول العشاء. وأحضر الرجل الأوسط إحدى الصحف وأعطى واحدة من أوراقها لكل من الساكنين الآخرين. وقد كانوا يضطجعون الآن على ظهورهم بارتياح.. يقرأون، ويدخنون. عندما بدأ العزف على الكمان أرهفوا أسماعهم، وهبوا واقفين على أقدامهم، ثم تسربوا على أطراف أصابعهم إلى الباب المؤدى إلى الردهة، حيث توقفوا متلاصقين بعضهم ببعض. ولابد أن حركتهم كانت مسموعة داخل المطبخ، لأن والد جريجور كان قد صاح قائلا : (هل أزعجكم صوت العزف على الكمان، يا أيها السادة؟. يمكننا أن نوقفه على الفور). فرد الساكن الأوسط قائلا: (بالعكس. هل يمكن أن تأتى الآنسة سامسا، لتعزف فى تلك الحجرة بجوارنا، حيث يناسبها ذلك، ويريحها أكثر؟) فصاح والد جريجور قائلا: (يمكننا ذلك بالتأكيد)، كما لو كان هو نفسه عازف الكمان. وعاد السكان الثلاثة إلى حجرة الجلوس. وجلسوا فى الانتظار، ووصل والد جريجور ومعه حامل النوتة. والنوتة فى يد الأم، والكمان تحمله شقيقته. وأعدت شقيقته كل شيء فى هدوء للبدء فى العزف. ولم يخاطر والداه اللذان لم

يسبق لهما من قبل تأجير غرفهما.. فكانت لديهما لهذا فكرة متضخمة من المجاملة اللائقة بالسكان، لم يخاطر والداه بالجلوس لهذا في مقعديهما الخصوصيين، بل استند والده بظهره إلى الباب. وقد دس يده اليمنى بين زرارين من أزرار سترة عمله، التي كان قد زررها بطريقة رسمية محكمة. وتقبلت والدته مقعدا.. قدمه إليها أحد السكان. ولما كانت قد تركت المقعد كما هو حيث تصادف أن وضعه لها الساكن، فقد جاءت جلستها في أحد الأركان الجانبية.

وبدأت شقيقة جريجور في العزف.. وراح الأب والأم من كلا الركنين الجانبيين يتابعان تحركات يديها باهتمام. واندفع جريجور بتأثير العزف قليلا إلى الأمام، حتى أصبح رأسه بالفعل في داخل حجرة الجلوس.. ولقد كانت قد مرت به فترة ما - كان يفخر فيها بتعقله، إلا أنه كان لديه، في تلك المناسبة بالذات.. ما يدفعه إلى الاختباء، لوجود تلك الكميات الهائلة من الأتربة التي كانت تتراكم داخل حجرته، وتثور في الهواء لأقل حركة، كما أنه كان هو نفسه معفرا بالأتربة، وكان الزغب، والشعر، وبقايا الطعام ينجر خلفه، ملتصقا بظهره، وبكل من جانبيه. وكان شعوره بالغربة الشديدة بالنسبة للجميع، أكبر من أن يسمح له بأن ينقلب على ظهره، وأن يحك جسمه فوق السجادة.. حتى يبدو نظيفا إلى حد ما. كما اتفق له أن فعل ذلك، ذات يوم عديدا من المرات.. لكن لم يمنعه أي ظل من الحرج، على الرغم من حالته تلك، من أن يتقدم قليلا فوق أرضية الحجرة النظيفة.

ولقد لاحظ، من باب الاحتياط، أن أحدا لم يكن منتبها لوجوده.. فقد كانت الأسرة كلها قد استغرقت في الاستماع إلى العزف على الكمان.

أما السكان، الذين كانوا قد جلسوا، بأيديهم مدسوسة فى داخل جيوبهم، ملتصقين بحامل النوتة الموسيقية.. بحيث كان يمكنهم جميعا أن يقرأوا الموسيقى - ولابد أن هذا قد ضايق شقيقته - فقد تراجعوا، مع ذلك، نحو النافذة. وراحوا يتحدثون فيما يشبه الهمس برؤوسهم المطرقة إلى أسفل. وظلوا هناك، بينما تابعهم والده بنظراته القلقة. ولقد أوضح سلوكهم هذا حقا إلى أبعد الحدود أن أملهم كان قد خاب فى الاستماع إلى عزف جيد، أو مسل، على الكمان.. وأنهم كانوا قد اكتفوا من المقطوعة بهذا القدر. وأصبحوا الآن يعانون من مواصلة ذلك الإزعاج، البعيد عن اللياقة. وكان باستطاعة المرء أن يتكهن بانزعاجهم من الطريقة التى ينفخون بها دخان سجائرهم عاليا فى الهواء، من خلال أنوفهم، وأفواههم. إلا أن شقيقته كانت تعزف بغاية الروعة، وكان وجهها مائلا فى انفعال إلى جانب، وعيناها تتابعان النوتة الموسيقية فى حزن.

وتقدم جريجور زاحفا مسافة أخرى قصيرة إلى الأمام، وخفض رأسه نحو الأرض. فربما أمكن أن تلتقى عيناه بعينيها. فهل كان حيوانا، إذا كان للموسيقى كل هذا التأثير عليه؟. لقد كان يحس كما لو كان الطريق قد انفتح أمامه إلى الغذاء المجهول الذى كان يشتهيه. ولقد صمم على مواصلة زحفه حتى يبلغ مكان شقيقته، ليجذب طرف جونيلتها، لعلها تدرك أن عليها أن تجىء بكمانها إلى داخل حجرته - ذلك أن أحدا لا يتذوق عزفها. كما يمكنه هو أن يتذوقه ولن يدعها تخرج من حجرته.. على الأقل، طالما بقى على قيد الحياة. ولسوف يصبح منظره المرعب ذا فائدة له، للمرة الأولى. فلسوف يرقب كل أبواب

غرفته في يقظة ويبصق على المتطفلين. ولن تحتاج شقيقته إلى أى شكل من أشكال الضغط. فلسوف تبقى إلى جواره، بدافع من رغبتها الخاصة. وسوف تجلس بجواره على الكنبة. وتميل عليه بأذنها لتسمعه وهو يمر إليها. وأنه كان قد حزم أمره نهائيا على إرسالها إلى الكونسيرفاتوار. وأنه - لولا نكبته - كان سيعلن ذلك على الجميع في عيد الميلاد - هل مر عيد الميلاد حقا منذ وقت طويل؟ - ولم يكن ليستمع إلى اعتراض قط في هذا الشأن. ولسوف تتأثر شقيقته جدا، لاعترافه هذا، حتى أن دموعها ستنهمر، ليرفع جريجور نفسه حينئذ حتى يبلغ كتفيها، ومن ثم يطبع قبلة فوق عنقها الذى كانت قد تركته عاريا الآن بلا شريط، ولا ياقة، بما إنها كانت تخرج للعمل.

صاح الساكن الأوسط قائلا لوالد جريجور: (مستر سامسا!).. وأشار بيده دون إضافة مزيد من الكلمات، نحو جريجور الذى كان يتقدم حينئذ ببطء نحو الأمام.

صمت صوت الكمان، وابتسم الساكن الأوسط لصديقيه في البداية بهزة من رأسه، ثم تطلع مرة أخرى إلى جريجور. وبدلا من دفع جريجور إلى خارج الحجرة، بدأ والده بتهدئة السكان، على الرغم من أنهم لم يكونوا قد فزعوا لرؤية جريجور بالمرة. بل ربما كانوا قد وجدوا في التطلع إليه - على ما يبدو - تسلية أكثر إمتاعا من الاستماع إلى العزف على الكمان. وأسرع والد جريجور نحوهم ناشرا ذراعيه، محاولات أن يحملهم على العودة إلى حجرتهم. وأن يحجب رؤية جريجور عن أنظارهم في الوقت نفسه.. إلا أن قليلا من الغضب كان قد بدأ يتملقهم الآن بالفعل. ولم يكن يسع المرء أن يدرك هل كان

غضبهم قد ثار لسلوك الرجل العجوز، أم أنهم كانوا قد غضبوا فقط حين ظهر لهم فجأة. إن ثمة جارا كجريجور كان يشغل الحجرة المجاورة لهم دون أن ينتبهوا إلى ذلك. ولقد طلبوا تفسيرا لذلك الأمر، من والده، ولوحوا له بأذرعتهم، كما لوح لهم، وراحوا يجذبون شعر لحاهم فى عصبية.. ولم يقفلوا راجعين إلى حجرتهم مرغمين.

وعادت شقيقة جريجور إلى وعيها فى تلك الأثناء. بعد أن كانت قد ظلت واقفة هناك، فى مكانها، كما لو كانت غابت عن الوعى، عندما قوطع عزفها على تلك الصورة، وجمعت شتات نفسها على الفور، بعد أن تجمدت لحظة ممسكة بالكمان والقوس بيدين مرتعشتين، معلقتين فى الهواء، محملقة فى نوتتها الموسيقية، دفعت الكمان إلى حضن والدتها - التى كانت جالسة فى نفس مكانها، تجاهد إحدى نوبات الربو، فى سبيل التقاط أنفاسها - واندفعت إلى داخل حجرة السكان، الذين كانوا فى اتجاهها الآن أمام تقدم والدها على نحو أسرع من ذى قبل. وكان فى إمكان المرء أن يرى الوسائد والأغطية وهى تتطاير فى الهواء تحت أصابعها المدربة. لتستقر مرتبة غاية الترتيب فى أماكنها. وكانت قد فرغت كذلك من ترتيب الأسرة، وانسلت خارجة قبل أن يصل السكان بالفعل إلى غرفتهم. وكانت قد انتابت الرجل العجوز نوبة أخرى من نوبات عناده لتأكيد ذاته، حتى أنه كان قد نسى كل ما كان يجب عليه أن يبديه من الاحترام لسكانه، فلقد ظل يدفعهم أمامه، ويدفعهم، حتى دق الساكن الأوسط الأرض بقدمه فى عنف عند مدخل حجرة النوم. لكى يجبره على التوقف. ثم قال الساكن رافعا إحدى يديه، متطلعا نحو والده جريجور، وشقيقته هى أيضا: (اسمح لى أن أعلن لك، أننى بسبب

تلك الأوضاع المقرفة التى تسود هذا البيت، وهذه الأسرة ـ وهنا بصق فوق الأرض باقتضاب صارم ـ ألفت نظرك إلى هذا .. فلن أدفع لك طبعا، حتى ولا أجر الأيام التى قضيتها هنا، بل على العكس، سأرفع دعوى ضدك، أتهمك فيها بالتخريب ـ صدقنى ـ وسأبنيها على حيثيات سأتمكن من إثبات قوة أثرها فى سهولة).. ثم توقف وحدق أمامه فى الهواء مباشرة، كما لو كان يتوقع شيئا ما.. ولقد اندفع صديقاه، فى الواقع، من خلال تلك الثغرة نفسها، بتلك الكلمات : (ونحن نلفت نظرك إلى هذا) وعند هذا الحد أمسك الساكن الأوسط بمقبض الباب، وصفعه، فانغلق بفرقعة مدوية.

ترنح والد جريجور متلمسا الهواء بأصابع يديه، فى طريقه إلى الأمام، ثم انحط فوق مقعده. ولقد بدا كما لو كان قد مدد نفسه فى جلسته المعهودة تلك لإغفاءة مسائية من تلك الإغفاءات التى كان قد اعتادها. إلا أن اهتزازات رأسه المتتابعة، التى بدت وكأنه كان قد فقد سيطرته عليها أوضحت أنه كان أبعد ما يكون عن النعاس. وكان جريجور قد ظل طوال ذلك الوقت واقفا فى هدوء فى نفس البقعة التى كان السكان قد لمحوه عندها. وقد كانت خيبة أمله تفشل خطته، وربما أيضا ضعفه الذى كان ناتجا عن شدة جوعه. وقد تسببا فى انعدام قدرته على الحركة. ولقد خاف ـ بتوقع بالغ ـ من أن يتحول ذلك التوتر الشامل، إلى هجوم من الجميع عليه وظل مستلقيا فى انتظار ما قد يحدث له. ولم يكن يمكنه أن يقاوم حتى الأصوات التى كانت قد انبعثت من الكمان، عندما سقط من حجر أمه.. منزلقاً من بين أصابعها المرتعشة إلى الأرض، مطلقا صوتا مدويا.

وقالت أخته وهي تضرب المائدة بيدها، كمقدمة لحديثها: «لا يمكن أن تظل الأمور تجرى على هذا النحو يا والدى العزيزين، ربما لا يمكنكما أن تدركا هذا، إلا أننى أدركه إننى لا يمكننى أن أتفوه باسم أخى في وجود ذلك المخلوق، على هذا فإن كل ما لدى لأقوله هو : يجب أن نحاول التخلص منه، فلقد حاولنا أن نعنى به، وأن نحتمله بقدر ما وسعنا أن نفعل ذلك، إنسانيا، إلا أننى لا أظن أن أحدا سيلومنا أقل اللوم».

قال والد جريجور فى نفسه : «إنها محقة إلى أبعد الحدود!».

أما أمه التى كانت قد اختفت لعجزها عن التنفس، فقد راحت تسعل فى راحة يدها وعيناها تشعان بنظرة وحشية.

واندفعت أخته نحوها، وأخذت جبهتها بين راحتيها. أما أفكار والده فقد بدت وكأنها كانت قد تخطت كل ما أحاط بكلمات «جريتا» من غموض. فاعتدل فى جلسته، وراح يعبث بأصابعه فى «كاب» الخدمة الذي كان موضوعا وسط الأطباق التى تبقت مكانها بعد انتهاء عشاء السكان. وراح يتطلع من وقت لآخر إلى هيكل جريجور الثابت فى مكانه.

وقالت شقيقته أخيرا لوالدتها فى صراحة، بينما كانت أمها تسعل فى تلاحق حتى أنها لم تكن تسمع كلمة واحدة مما يقال: (يجب علينا أن نحاول التخلص منه. فلسوف ينتهي هذا الحال بكليكما إلى الهلاك. إننى أرى هذه النهاية. فعندما يكون للمرء أن يفعل مثل تلك المشقة التى نعانيها جميعا، فإنه لا يمكنه أن يحتمل مشقة هذا العذاب المستمر فى البيت، فوق مشقته. إننى على الأقل لم أعد احتملها أكثر من ذلك).

ثم انخرطت فى نهنهتها تلك المفعمة، حتى أن دموعها انهمرت فوق وجه أمها، حيث جففتها بطريقة آلية.

قال الرجل العجوز بتعاطف وإدراك واضح: (لكن ما الذى يمكننا أن نفعله يا عزيزتى؟).

هزت شقيقة جريجور كتفيها فقط لتعلن شعورها بالعجز، الذى كان قد سيطر الآن عليها، أثناء بكائها على النقيض من ثقتها السابقة.

فقال والد جريجور فيما يشبه التساؤل : (لو أمكنه أن يدرك حالنا)؟.

وشوحت (جريتا)، التى كانت ما تزال تبكى فى حدة بيدها، حتى توضح له إلى أى مدى يستحيل التفكير فى ذلك!.

وعاد الرجل إلى تكرار قوله : (لو أمكنه أن يدرك حالنا؟) مغلقا عينيه، لكي يتدبر اقناع ابنته بأن ذلك الإدراك كان مستحيلا. «فلعلنا أن نصل معه حينئذ إلى حل ما، إلا أنه لما كانت...».

صرخت شقيقة جريجور قائلة : «يجب عليه أن يذهب، هذا هو الحل الوحيد يا أبى. يجب عليك فقط أن تحاول التخلص من فكرة أن هذا هو جريجور. إن اعتقادنا فى ذلك طوال تلك المدة، هو أصل كل متاعبنا. لكن كيف يمكن أن يكون هو جريجور؟ لو أن هذا هو جريجور، لكان قد أدرك منذ وقت طويل أن البشر لا يمكنهم أن يعيشوا مع مثل هذا المخلوق. ولكان قد رحل بعيدا من نفسه. ولن يكون لنا أخ حينئذ.. إلا أننا سنتمكن من مواصلة الحب. وسيمكننا أن نحتفظ بذاكراه فى إعزاز، لكن فى حالتنا هذه، فإن وجود هذا المخلوق يعذبنا، ويدفع سكاننا إلى الهرب، فتأمل هذا يا أبى؟» ثم صرخت قائلة فجأة «ها هو

ذا يعود ثانية إلى إزعاجنا!.»

وبانتفاضة رعب لم يتمكن جريجور مطلقا من أن يفهمها، حتى لقد أفزعت أمها أيضا، دفعت المقعد بعيدا عنها.. كما لو كانت على استعداد للتضحية بأمها. بدلا من أن تبقى قريبة إلى هذا الحد من جريجور. ثم اندفعت مختفية خلف والدها. الذى انتصب واقفا بدوره. وقد تملكه الغضب لفزعها. فمد ذراعيه أمامه للذود عنها.

لكن لم تكن لدى جريجور أدنى نية فى إفزاع أى شخص فضلا عن شقيقته، كان فقط قد بدأ يستدير لكى يزحف راجعا إلى حجرته. ولكنها كانت عملية تدفع من يشاهدها دون شك إلى أن ينتفض من الرعب. فلم يكن يمكنه أن يأتى بأغلب الحركات المعقدة اللازمة لدوراته. فيما عدا رفع رأسه. ثم حكها فى الأرض مرة بعد الأخرى. ثم توقف وتطلع حوله.. وبدا أن من الممكن إدراك نواياه الطيبة. كان فزعهم مؤقتا. وكانوا الآن يرقبونه فى صمت مطبق. استلقت أمه فوق مقعدها، وقد امتدت ساقاها. والتصقتا ببعضهما. وكانت عيناها مغلقتين تقريبا، فى حالة من الرعب. أما والده وشقيقته.. فقد ظلا جالسين بجوار بعضهما. وكانت ذراع شقيقته قد التفت حول عنق الرجل العجوز.

وفكر جريجور قائلا فى نفسه (ربما أمكننى أن أمضى الآن محاولا الدوران)، وبدأ مرة أخرى فى محاولته. لم يكن فى وسعه أن يمنع نفسه من اللهاث تحت وطأة المجهود. وكان يتوقف من حين لآخر حتى يلتقط أنفاسه. كما أن أحدا لم يزعجه. بل كان قد تُرك لنفسه.. وعندما أتم دورته زحف على الفور راجعا إلى حجرته مباشرة. ولقد أدهشته

تلك المسافة الطويلة التى كانت تفصله عن الحجرة. ولم يستطع أن يتذكر كيف استطاع أن يقطع هذه المسافة نفسها، بمثل تلك السرعة التى كان قد قطعها بها، فى تلك الحالة من الضعف التى كان يبدو عليها، وكان قد لاحظ أنهم لم يتفوهوا بكلمة واحدة، ولا كانت صيحة قد تدخلت فى محاولته الناجحة، عندما كان قد صمم على أن يزحف بأقصى سرعة ممكنة.

لكنه فقط كان قد أدار رأسه إلى الخلف، عندما كان قد أصبح أمام باب حجرته. لم يكن قد أدارها تماما .. ذلك أن عضلات رقبته قد تصلبت أخيرا بشدة. إلا أنه كان قد تمكن من إدارتها إلى حد كان كافيا لكى يرى أن شيئا لم يتغير خلفه. فيما عدا أن شقيقته كانت قد انتصبت واقفة على قدميها. وسقطت نظرته الأخيرة على أمه التى كانت قد استغرقت تماما فى النوم.

وما كاد أن أصبح فى داخل حجرته، حتى انغلق الباب خلفه فى سرعة وأحكم رتاجه، ثم دار المفتاح أيضا دورتين داخل الكالون. ولقد أزعجته تلك الضجة المفاجئة غاية الإزعاج، حتى أن سيقانه الدقيقة قد تهاوت من تحته. لقد كانت شقيقته هى التى بدأت كل ذلك التسرع. كانت قد انتصبت واقفة على أهبة الاستعداد، ثم وثبت وثبة خفيفة إلى الأمام، حتى أن جريجور لم يكن قد سمع وقع خطواتها عندما تبعته. ثم صاحت قائلة لوالديها: (أخيرا) بينما كانت تدير المفتاح داخل القفل!.

قال جريجور لنفسه - وهو يلتفت فى الظلام من حوله : (ماذا بعد؟).. وسرعان ما اكتشف أنه لم يكن قادرا أن يحرك الآن أى طرف

من أطرافه، ولم يدهش لذلك، إلا أن ما بدا له غير طبيعى هو عجزه التام عن أن يتحرك زاحفا فوق تلك السيقان الدقيقة الواهنة. لكنه كان قد أحس رغم ذلك بالراحة التامة. ولقد كان جسمه كله يؤلمه حقا، إلا أنه أحس بأن ذلك الألم قد بدأ يتناقص تدريجيا. وبدا له أن سيزول فى نهاية الأمر وقد كانت التفاحة المتعفنة المغروسة فى ظهره والجراح الملتهبة التى تحيطها والغطاء كله بالأتربة الناعمة لا يسبب أى نوع من الألم. وراح يفكر فى أسرته. فى رقة، وحب. أما القرار الذى كان يقضى عليه بأن يختفى، فقد كان واحدا من الأفكار التى كان متشبثا بها على نحو أشد عنفا من تشبث شقيقته بذلك - لو أمكن له أن يكون أشد عنفا منها - ولقد ظل فى وحدته تلك، وحيرته الصامتة حتى رنت ساعة البرج معلنة الثالثة صباحا.. وجذبه هذا مرة أخرى إلى وعيه. أول شعاع من الضوء يصله من العالم الخارجى ثم تهاوت رأسه تلقائيا. فسقطت فوق الأرض. ومن منخاريه خفقت آخر أنفاسه اللاهثة!.

وعندما وصلت الغسالة فى الصباح الباكر - تلك الغسالة التى كانت لفرط رعونتها ولفرط تعجلها تفتح كل الأبواب، بكل تلك الضجة.. دون أن تعبأ بتوسلاتهم إليها بأن تقلع عن ذلك، حتى أن أحداً فى الشقة كلها، لم يكن فيها بأية ذرة من النوم الهادىء بعد وصولها - لم تكن قد لاحظت شيئا مخالفا للعادة عندما استرقت النظر كعادتها إلى داخل حجرة جريجور. ولقد ظنت أنه كان مستلقيا عن عمد بلا حراك. متظاهرا بالاستغراق فى أحزانه ولقد دفعها بكاؤها إلى الاقتناع التام بتظاهره بمنع الحركة ولما كان قد تصادف وجود المكنسة ذات اليد

الخشبية الطويلة في يدها، فقد حاولت أن تداعبه بها من خلال فتحة الباب. وعندما لم يفلح هذا أيضا في حمله على الحركة أحست بالغيظ، ووخزته بطرف المكنسة في عنف، وعندما دفعته فوق أرض الحجرة دون أن تتلقى أي مقاومة. كان إدراكها قد استيقظ حينذاك. ولم يستغرقها ذلك طويل وقت حتى تدرك حقيقة الأمر. واتسعت عيناها ثم أطلقت صفيرا مرتفعا. إلا أنها لم تضع وقتها في تأمل الأمر أكثر من ذلك، بل فتحت باب حجرة نوم مستر سامسا وزوجته. وهتفت في ظلامها بأعلى صوتها، قائلة : (انظروا إلى ذلك الآن. لقد مات. إنه ملقى هنالك ميتا!).

ونهض مستر سامسا وزوجته في فراشهما المشترك وقبل أن يتمكنا من إدراك كنه ما أعلنته الغسالة، كانت قد استولت عليهما المفاجأة. التي لم يستوعباها سوى بصعوبة، إلا أنهما نهضا بسرعة من فراشهما. كل منهما من جانب، وألقى مستر سامسا ببطانية فوق كتفه. وكانت مسز سامسا فقط في قميص نومها، وبتلك الملابس دخلا حجرة جريجور. وانفتح في تلك الأثناء باب حجرة الجلوس أيضا. حيث كانت (جريتا) تنام منذ مجيء السكان. وقد كانت ترتدي ملابسها كاملة كما لو لم تكن قد استلقت مطلقا في فراشها. وقد أكد هذا شحوب وجهها أيضا.

تطلعت مسز سامسا نحو الغسالة متسائلة : (هل مات؟) على الرغم من أنها كانت قد حدقت فيه بنفسها كما أن الحقيقة كانت واضحة بدرجة كافية دون حاجة إلى أي بحث.

قالت الغسالة : (يمكنني أن أقول ذلك!) بينما كانت تدفع جثة جريجور بعيدا إلى أحد الجوانب بطرف المكنسة، تأكيدا لكلامها، وبدت

حركة ما عن مسز سامسا، كأنما لتمنعها عن أن تفعل ذلك، لكنها تراجعت.

وقال مستر سامسا : (حسنا. والآن شكرا للرب!) ورسم على صدره علامة الصليب، وحذت النسوة الثلاث حذوه.

وقالت - جريتا - التى لم ترتفع عيناها عن الجثة : (انظروا إلى أى حد قد صار هزيلا. لقد مر وقت طويل ولم يكن قد تناول فيه أى شىء، فلقد كان الطعام يخرج ثانية من حجرته كما دخلها!).

ولقد كان جسم جريجور مسطحا حقا، وجافا للغاية. كما بدا الآن عندما لم يعد مرفوعا بعد فوق سيقانه.. ولم يكن ثمة ما يمنع المرء من التطلع إليه عن كثب.

قالت مسز سامسا، بابتسامة مهزوزة (تعالى الآن إلى جوارنا لحظة قصيرة يا جريتا).

وتبعت جريتا والديها إلى حجرة نومها دون أن تقاوم النظر خلفها إلى الجثة. وأغلقت الغسالة باب الحجرة. وفتحت النافذة على مصراعيها. وعلى الرغم من أن الوقت كان مبكرا جدا فى الصباح، فقد كان هنالك ثمة رقة كان من الممكن الإحساس بها فى الهواء الطلق. وكان شهر مارس فوق هذا قد أوشك على نهايته.

وخرج السكان الثلاثة من حجرتهم، وقد ظهرت على وجوههم الدهشة عندما لم يجدوا طعام الإفطار. كانوا قد غابوا عن البال. صاح الساكن الأوسط قائلا للغسالة فى تبرم : (أين إفطارى).

إلا أنها وضعت إصبعها فوق شفتيها، وأشارت لهم فى سرعة دون أن تتفوه بكلمة أن يتوجهوا إلى مستر سامسا وزوجته. وظهر أن مستر

سامسا كان قد توجه إلى حجرة جريجور فاتجهوا إليها وتوقفوا هناك وأيديهم مدسوسة في داخل جيوب معاطفهم المتهدلة بداخل الحجرة التي كان الضوء يغمرها الآن.

وعند ذلك فتح باب حجرة نوم سامسا في زيه، بينما تعلقت زوجته بذراعه وتعلقت ابنته بذراعه الآخر. ولقد بدا ثلاثتهم كما لو كانوا قد بكوا طويلا، وكانت (جريتا) تخفى وجهها من وقت لآخر فى ذراع والدها.

صاح المستر سامسا قائلا، وهو يومىء نحو باب الشقة، دون أن يخلص ذراعيه من ذراعى المرأتين : (غادروا منزلى حالا!).

ورد الساكن الأوسط متراجعا قليلا إلى الخلف بابتسامة باهتة: (ما الذى تقصده بهذا؟).

بينما وضع كل من الساكنين الآخرين، يديه خلف ظهره. راح يفركهما ببعضهما، كما لو كانا يتأهبان فى مرح لخوض معركة مرتقبة كانا يتوقعان خروجهما منها فائزين.

فقال المستر سامسا وهو يتقدم بصحبة المرأتين نحو الساكن مباشرة: (إننى أقصد ما قد قلته!).

فتوقف هذا فى مكانه بهدوء مطرقا إلى الأرض. كما لو كانت أفكاره قد بدأت تتشكل فى داخل رأسه، فهى أشكال جديدة، ثم قال: (لنذهب إذن، على أية حال)! ثم تطلع إلى مستر سامسا، كما لو كان يتوقع بمزيد من الإذعان المفاجىء تغييرا ما فى قراره.

إلا أن مستر سامسا كان قد أومأ فقط باقتضاب مرة أو مرتين بعينين ثابتتين. وعند ذلك راح الساكن يتمشى بالفعل فى خطوات

واسعة فى الردهة. وكان رفيقاه يستمعان فقط، واقفين فى هدوء، يواصلان فرك أيديهما بضع لحظات أخرى، ثم أسرعا يهرولان خلفه، كما لو كانا قد خافا أن يبلغ مستر سامسا الردهة قبلهما، وأن يفصلهما عن زعيمهما. وفى الردهة تناول ثلاثتهم قبعاتهم من المشجب. كما تناولوا عصيهم من الحامل. وانحنوا فى صمت. ثم غادروا الشقة. وتبعهم مستر سامسا، والمرأتان فى ارتياب لم يكن له ما يبرره، إلى بسطة السلم.. وانحنوا فوق الدرابزين يرقبون الاشخاص الثلاثة الذين كانوا يهبطون السلالم فى بطء، محتجبين عن الأنظار، عند أحد منحنيات السلم فى كل طابق، ليعاودوا الظهور ثانية بعد دقيقة أو نحوها، وكلما هبطوا كلما ازداد اهتمام مستر سامسا بهبوطهم. وعندما التقى بهم أحد صبية الجزازين، وتخطاهم صاعدا السلم فى خيلاء بصينية فوق رأسه، ترك مستر سامسا والمرأتان بسطة السلم إذ ذاك، كما لو كان عبئا قد انزاح عن كاهلهم، وعادوا ثانية إلى داخل شقتهم.

وقرروا قضاء اليوم فى الراحة، والخروج من المنزل فلم يكونوا يستحقون فقط تلك العطلة من العمل، بل لقد كانوا فى أشد الحاجة إليها أيضا. وهكذا جلس ثلاثتهم على المائدة ليكتبوا ثلاثة خطابات للاعتذار عن العمل.

فقد كتب مستر سامسا اعتذارا للإدارة التى يعمل بها، وكتبت مسز سامسا اعتذارها لعميلها، وكتبت ـ جريتا ـ لرئيس المؤسسة التى تتبعها، وبينما كانوا منهمكين فى الكتابة دخلت الغسالة لتخبرهم بذهابها بعد أن فرغت من القيام بعملها الصباحى. ولقد أومأوا لها فى

البداية دون أن يرفعوا رؤوسهم نحوها.. لكن حين بدا أنها كانت قد ظلت تحوم حولها فقد تطلعوا إليها بانفعال.

صاح مستر سامسا ـ حسنا وظلت المرأة في وقفتها عند مدخل الباب متجهمة كما لو كان لديها ثمة أخبار سارة تود أن تنهيها إلى الأسرة.. لكنها كانت قد قررت ألا تتفوه بكلمة ما لم يطلب إليها ذلك. وقد كانت ريشة النعامة المثبتة فوق قمة قبعتها في اعتدال، والتي كان وجودها يضايق مستر سامسا منذ أن تمت خطوبة الغسالة، كانت تتمايل في سعادة في كل اتجاه.

تساءل مستر سامسا الذي كان يطلب من الغسالة أن تبدي احترامها له أكثر من الآخرين : (حسنا، ثم ماذا بعد ذلك؟).

ردت الغسالة قائلة : (آه).. كانت تضحك باستخفاف، وتظرف، حتى أنها لم تتمكن من مواصلة حديثها على الفور: (هذا هو الأمر، لا تشغلوا بالكم بكيفية التخلص من ذلك الشيء الذي في الحجرة المجاورة.. فلقد تدبرت أمره بنفسي منذ قليل).

انحنت مسز سامسا، وجريتا ثانية على خطابيهما كما لو كانتا قد توقعتا حدوث ذلك. أما مستر سامسا، الذي أدرك أن الغسالة كانت تتوق إلى أن تبدأ في وصف ذلك الأمر بالتفصيل. فقد صدها على الفور بإشارة حاسمة من يده. وعندما اكتشفت أنهم لم يسمحوا لها بسرد الحكاية، تذكرت ما كان ينتظرها على وجه السرعة. وقد كان غيظها قد ثار في حدة بالغة، فاندفعت في عنف وهي تقول : (إلى اللقاء جميعا). وانصرفت بعد أن صفقت الأبواب خلفها في ضجة هائلة.

قال مستر سامسا : (سوف ألفت نظرها هذا المساء).

إلا أنه لم يتلق ردا لا من زوجته ولا من ابنته. فلقد كانت الغسالة على ما يبدو قد أهدرت السكينة التى كانت قد أوشكت المرأتان على بلوغها.

قامتا، متجهتين نحو النافذة، وبقيتا هناك، وقد احتضنتا بعضهما البعض فى عنف.

واستدار مستر سامسا فى مقعده لينظر إليهما. وفى هدوء تطلع إليهما لحظة. ثم صاح قائلا: (هيا.. تعاليا الآن. أقبلا. وليكن ما قد كان. ولعلكما أن تهتما بى قليلا أنا أيضا).

قامتثلتا على الفور وأسرعتا نحوه.. فاحتضنتاه. ثم أسرعتا بإكمال كتابة خطابيهما ثم غادر ثلاثتهم الشقة معا. وهو ما لم يفعلوه منذ عدة شهور مضت. واستقلوا الترام، متجهين صوب الخلاء الفسيح، فى خارج المدينة. وكانت أشعة الشمس الدافئة قد فرشت الترام الذى لم يكن به سواهم. وعندما استندوا بظهورهم فى راحة على مقاعدهم، راحوا يتفحصون الصور التى تخيلوها للمستقبل.. وقد تبدت لهم عند فحصها عن كثب، غير مظلمة على الإطلاق. ذلك أن الأعمال التى كانوا قد حصلوا عليها والتى لم يكونوا قد بحثوا أمرها معا من قبل، كانت ثلاثاً من الوظائف الرائعة، كما أنها كانت جميعا كفيلة بأن تتمخض عن نتائج طيبة فيما بعد.. كما أن أكبر تقدم محسوس فى وضعهم، كان سيحققه بالطبع انتقالهم إلى شقة أخرى. وقد كانوا يريدون الحصول على شقة أصغر وأرخص. وتتميز إلى جانب هذا بحسن موقعها، وبسهولة القيام بأعبائها، على عكس شقتهم الحالية التى كان جريجور قد اختارها.

وبينما كانوا يتشوقون على هذا النحو، فوجىء المستر سامسا وزوجته كلاهما، فى نفس اللحظة تقريبا، وهما يلحظان حيوية ابنتهما المتزايدة، أنه على الرغم من كل أسى أيامـهما الحاضرة، تلك الأيام التى كانت قد صبغت خدى ابنتهما بذلك الشحوب، إلا أنها كانت قد تفتحت.. وأصبحت شابة جميلة، فاتنة القوام فشرعت السكينة حينئذ تهدهدهما، وتبادلا فيما يشبه الغيبوبة شعوراً مفعما بالرضا. عندها انتبها إلى أن الوقت لن يلبث حتى يدفعهما إلى البحث لها عن عريس طيب.

وكأنما كان تأييدا لأحلامهما الطارئة، ونواياهما الرقيقة، فقد قفزت ابنتهما على قدميها أولا، فور انتهاء رحلتهم، ثم تمطت بجسدها الغض!.

سور الصين العظيم

كان قد تم بناء الركن الشمالى لسور الصين العظيم فقد تقدم السور فى شطرين من الجنوب الشرقى والجنوب الغربى ما لبثا أن التقيا أخيرا هناك. وكانت هذه الطريقة للبناء المنفصل قد اضطلع بها ـ على نطاق ضيق ـ جيشان عظيمان من العمال هما : الجيش الشرقى والجيش الغربى.. وقد قام العمل على النحو التالى: تكونت فرق تضم كل منهما حوالى عشرين عاملا وألقى على عاتق كل فرقة إنجاز ما طوله خمسمائة ياردة من السور بينما قامت فرق مماثلة ببناء امتداد آخر بنفس الطول ليلتقى بالأول.. إلا أنه بعد أن تم هذا الاتصال لم يتقدم السور أبعد من تلك النقطة.. التى باستطاعتنا أن نقول إن تلك الياردات الألف قد انتهت عندها بل.. انتقل كلا الجانبين من فرق العمال ـ على عكس المتوقع ـ ليواصلا البناء من جديد فى أماكن أخرى بعيدة تماما عن بعضها البعض.

و.. كانت قد تركت بالطبع والحال هكذا فجوات عديدة واسعة كان سدها يتم تدريجيا و.. شيئا فشيئا لم يعد يحدث ذلك بالمرة حتى أنه قد بقيت ـ فى الحقيقة ـ بعض الثغرات كما هى فى مكانها حتى بعد أن تم صدور الإعلان الرسمى بالانتهاء من بناء السور و.. لقد ذكروا

فى الحقيقة أنه قد كانت هناك بضع فتحات لم يكن سدها قد تم نهائيا.. تصريح!! ربما لم يكن ـ رغم ذلك ـ أكثر من واحد هو أيضا من تلك الخرافات العديدة التى تسبب بناء السور فى انتشارها والتى لم يكن ثمة شخص واحد على الأقل و... قد رأى البناء الممتد أمامه بعينيه وتفحصه بنفسه قد كلف نفسه مشقة مراجعتها. وفى إمكان المرء أن يدرك الآن للوهلة الأولى أنه كان من اللازم مهما كانت الأحوال أن يتم بناء السور بطريقة متصلة ـ على الأقل ـ بمجهود الجانبين الرئيسيين!!. فلقد كان السور شيئا مدبرا فوق كل شيء.. وكانت قد ذاعت أنباؤه فى أنحاء العالم وأصبح معروفا بأنه حصن ضد شعوب الشمال إلا أنه.. كيف يتسنى للسور أن يضطلع بعبء حماية مادام لم يصبح بعد بناء متكاملا؟!.. ليست فقط عدم قدرة السور على أن يحقق حماية من أى نوع هى المشكلة ولكن.. المشكلة كانت تكمن فى كونه بالإضافة إلى افتقاره إلى أى من المميزات كان يشكل فى حد ذاته خطرا دائما!!.. فتلك الكتل المهجورة من أجزاء السور المنتصبة فى المناطق الصحراوية كان باستطاعة الشماليين أن يقوموا بهدمها فى سهولة المرة بعد الأخرى خاصة وأن تلك القبائل التى كانت منذ البداية قد توجست شرا عند رؤيتها لعمليات البناء كانت قد أخذت تغير مضارب خيامها بسرعة لا تصدق وكأنها فصائل من الجراد وتبعا لهذا فربما تكون ثمة فكرة عامة قد تكونت لديهم من التقدم فى بناء السور أفضل ممّا تكون لدينا عنه نحن بناؤوه.

إلا أنه ربما لم يكن ممكنا أبدا إنجاز مهمة البناء بطريقة أخرى ولكى نتفهم هذا، ينبغى علينا أن نضع فى اعتبارنا ما يلى : «إن الغرض من

البناء كان التحصن لعدة قرون!!» وعلى هذا، فإن الاهتمام بعرض كل حيل الأجيال، والشعوب التى عرفت حتى الآن، والإحساس الذى لا يهدأ، بالمسئولية الشخصية لدى البنائين، كان ضرورة لا غنى عنها للعمل!! حقا، لقد كان عمال وردية النهار الجهلة، من عامة الشعب الذين يقومون بأداء الأعمال اليدوية البحتة، من الرجال والنساء والأطفال، كانوا يعرضون خدماتهم مقابل لقمة العيش،.. إلا أنه للإشراف حتى ولو على أربعة من عمال وردية النهار، كان الأمر يتطلب خبيرا متمرسا بفن البناء، رجلا فى مقدوره أن يستوعب، و... فى وسع قلبه أن يفيض بالحساسية لكل ما يؤديه، و.. كلما ارتفع شأن العمل، كلما ازدادت المسئولية. وكان أمثال هؤلاء الرجال يتواجدون من وقت لآخر، ولو أنهم لم يكونوا فى الحقيقة بالكثرة التى كان باستطاعة العمل أن يمتصها، إلا أنهم كانوا يوجدون بأعداد كبيرة على كل حال.

ولما لم يكن العمل قد بدأ بلا تفكير. فقد انقضت خمسون عاما، قبل أن يتم وضع حجر الأساس، تأكدت خلالها أهمية فن العمارة، وخاصة العمارة الحرة، باعتبارها أهم فروع المعرفة فى كل أنحاء المساحة، التى كان على السور أن يحوطها، و.. قد كان كل من الفنون الأخرى، يحظى بمكان ما، بتفاوت فى الأهمية تبعا لدرجة ارتباطه، وعلاقته بفن العمارة،.. ومازالت تحضرنى القدرة على أن أتذكر بغاية الوضوح، كيف كنا نقف، ونحن بعد أطفال صغار، لا نكاد بعد نتمكن من الوقوف على أقدامنا فى حديقة أستاذنا، حيث كنا نؤمر ببناء سور ـ على نحو ما ـ من الحصى، وعندئذ كان الأستاذ يجذب طرف ردائه،

ويندفع ساخطا نحو السور وبالطبع كان يهدمه، ويعنفنا في قسوة على تفاهة عملنا، حتى أننا كنا نجرى إلى آبائنا باكين، في كل الاتجاهات!!، مجرد حادث عارض، ولكنه كاف للدلالة على روح العصر!!

لقد كنت محظوظا، فقد كان بناء السور قد بدأ عندما كنت في العشرين، وكنت قد اجتزت آخر امتحانات المدرسة المتوسطة، وأنا أقول إنني كنت سعيد الحظ، لأن الكثيرين ممن سبقوني في الحصول على أعلى درجات الدراسة العليا، التي كان في وسعهم أن يحصلوا عليها، لم يتمكنوا عاما بعد عام من العثور على أي عمل يتطلب خبرتهم، وضاعوا سدى، بكل ما في رؤوسهم من التصميمات الهندسية البارعة، وغرقوا بالآلاف في حضيض اليأس. لكن هؤلاء الذين أتيح لهم أن يعملوا كمشرفين في المشروع حتى ولو اضطرهم الأمر ربما إلى أن يعملوا في أدنى مرتبة كانوا جديرين حقا بعملهم، فقد كانوا بنائين من ذلك الطراز الذي انفعل طويلا، ثم.. لم يتوقف عن الانفعال ببناء السور.. رجال من ذلك الطراز الذي كان قد أحس منذ أن تم وضع الحجر الأول، بأنه قد أصبح جزءا من السور.. بناءون بالطبع من هذا الطراز، لم تكن فقط تتملكهم الرغبة في تأدية عملهم بأكثر الأساليب شمولا، بل لقد كانوا أيضا لا يقوون على مغالبة الصبر، لرؤية السور منتهيا، في تمام كماله! لم يكن لدى عمال النهار مثل هذا الصبر النافذ، لأنهم كانوا مشغولين فقط بأعبائهم، وتطوحهم، أما المستويات العليا من المشرفين، وحتى المشرفين المساعدين، فقد كان في وسعهم - في الحقيقة -، أن يلمسوا من الاطراد المتضاعف للبناء ما يكفي لرفع

روحهم المعنوية، وملئها بالثقة. إلا أن ثمة اعتبارات أخرى كان لابد منها لتشجيع الملاحظين الذين يتميزون - إلى حد بعيد - بالوعى بقيمة عملهم، الذى يبدو متواضعا فى ظاهره.

فليس في مقدور أى إنسان - على سبيل المثال - سواهم أن يواصل وضع الحجر فوق الآخر لشهور وربما لسنين، بلا توقف، فى تلك المناطق الجبلية الخالية من السكان، على بعد مئات الأميال من بيوتهم. إن فقدان الأمل من مثل هذا العمل الشاق الذى ربما، لا يشرف على الانتهاء، حتى مع نهاية رحلة العمر الطويلة، من شأنه أن يغرقهم فى اليأس و.. يجعلهم فوق كل هذا، أقل قدرة على العمل. لهذا السبب كانت قد تقررت طريقة البناء المنفصل، و.. قد أمكن إنجاز خمسمائة ياردة في خمس سنوات، وفى ذلك الحين، كان المشرفون، قد أصبحوا فى غاية الإجهاد كقاعدة عامة، وكانوا قد فقدوا كل الثقة بأنفسهم وبالسور، وبالعالم! و.. تبعا لذلك، فقد أرسلوا بعيدا، بعيدا جدا، ولما تكد بعد تنقضى تلك الاحتفالات المبتهجة التى أقيمت لتكريمهم بمناسبة إنهاء الياردات الألف من السور، ولقد شاهدوا خلال رحلتهم قطاعات تامة من السور، ارتفعت هنا، وهناك، حتي بلغوا جناح القائد الأعلى، حيث أنعم عليهم بشارة الشرف واستمعوا إلى هدير صيحات جيوش العمال الجديدة المبتهجة، تدوى فى طريقها إلى الأمام، متجمعة من جوف الأراضى، و.. شاهدوا الغابات التى قطعت لكى تتحول إلى سقالات من أجل السور، والجبال التى نحتت، وتحولت إلى أحجار لبناء السور، و.. تسمعوا إلى التراتيم المقدسة، والدعوات التى كانت ترتفع فى صلوات الصالحين، من أجل إتمام السور. لقد

هدأ ذلك كله قلقهم، وكانت الحياة الهادئة فى بيوتهم، حيث أتيح لهم أن يستريحوا لبعض الوقت، قد أعادت إليهم عافيتهم وتقريراتهم التى تم التصديق عليها فى تواضع!! وثقة نائب مقاطعتهم، البسيط المسالم، فى حتمية إنجاز السور، لملم هذا كله مرة أخرى خيوط الأرواح الموزعة، وأحكم رباطها، فقالوا كالأطفال المتفائلين أبدا عندئذ لبيوتهم «وداعا»!! فقد كانت الرغبة فى العمل من جديد فى بناء سور الوطن، قد أصبحت لا تقاوم، و.. رحلوا مبكرين عما كان ينبغى لهم، وشيعهم نصف أهالى القرية إلى مسافات بعيدة، وكانت تجمعات الناس الذين تتقدمهم البيارق، والسواعد الملوحة، المضطربة فى الهواء، تملأ كل الطرقات، على نحو لم يسبق لهم من قبل أن شاهدوا من خلاله ـ إلى هذا الحد ـ كم كان وطنهم عظيما، وغنيا، ورائعا، وجديرا بالحب. لم يكن أى فرد من هؤلاء الريفيين سوى شقيق، كان هناك ثمة من كان يبنى من أجله سورا لحمايته، و.. من سيعود ممتنا طوال حياته، وشاكرا للسور ما أخذه منه، وما أعطاه. الوحدة!! الوحدة!! جنبا إلى جنب، حلقة مترابطة من الأشقاء، تيار من الدم لم يعد بعد حبيساً فى حدود دورة دموية ضيقة، داخل جسد مفرد، ولكنه يدور فى جهد، بلا عودة.. عبر ترابط الصين الذى لا يحد!!.

وعلى هذا إذن، يصبح نظام البناء المنفصل أمرا مفهوما، إلا أنه كانت هناك ما تزال بعض الأسباب التى تبرره، وإلا فسوف يكون هناك ثمة غرابة فى توقفى أمام هذه المسألة، كل هذا التوقف، فهى أحد المسائل المتعارضة فى بناء السور عامة، مع أنها قد تبدو غير ذات أهمية عند النظرة الأولى إليها، فإذا أمكننى أن أنقل، وأوضح الأفكار

والأحاسيس التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، فإننى لا يمكننى أن أذهب إلى أبعد من ذلك، فى بحث أمر تلك المسألة بالذات.

عندئذ يجب أن يقال أولا، أنه فى تلك الأيام، كان يتم إنجاز الأشياء بأسلوب غريب إلى حد ما، بالنسبة لبناء «برج بابل» على الرغم من اتباع تعليمات (السماء)، فى حدود إمكانيات الاستنتاج البشرية على الأقل مع التباين الشديد فيما يتعلق بهذا الأمر. أقول هذا، لأنه فى أثناء المرحلة الأولى للعمل فى البناء، كتب أحد الباحثين كتابا عقد فيه المقارنة، بأسلوب غاية فى الاستفاضة، و.. قد حاول فى كتابه أن يثبت أن (برج بابل) قد فشل فى أن يحقق الغاية من بنائه، ليس بسبب الوسائل التى تقدمت عالميا، أو.. أنه على الأقل، بين تلك الوسائل المتميزة، لم يتحقق وجود أكثر هذه الأسباب أهمية. لم تكن براهينه تستند فقط إلى مجرد الوثائق والتقريرات المكتوبة، فلقد ادعى أنه قد قام أيضا بتحريات حول الموضوع، و.. أنه قد اكتشف أن (البرج) قد فشل، و.. كان مقدرا له أن يفشل بسبب ضعف الأساس. فى هذا المقام كان عصرنا غاية فى التفوق، بالنسبة لذلك الزمن القديم. وفى زمننا كان كل رجل متعلم، هو فى الغالب، بناءا محترفا، ومنزها عن الخطأ فيما يختص بإرساء الأساسات. إلا أن هذا ـ رغم كل شيء ـ لم يكن هو ما كان باحثنا مهتما بإثباته، فقد أكد أن السور العظيم وحده، سوف يقدم للمرة الأولى فى تاريخ البشرية، أساسا راسخا (لبرج بابل جديد)!! وعلى هذا فالسور أولا، ومن ثم (البرج)!!.. وقد كانت كل الأيدى تتناول كتابه فى ذلك الوقت، إلا أننى أعترف بأنه حتى فى أيامنا هذه ليس فى استطاعتى أن أستنتج كيف كان يمكن تصور

ذلك (البرج) (كيف يتسنى للسور، الذى لم يكن يشكل حتى دائرة، وإنما فقط نصف مربع أو نصف دائرة، أن «يقدم» أساسا لبرج؟، بالإمكان أن يتحقق معنى لهذا، فقط فى الإحساس الروحى، إلا أنه فى تلك الحالة.. لماذا بنى السور الأصلى؟ الذى كان ـ باعتباره شيئا ثابتا ـ هو نتيجة العمل مدى الحياة، لجماهير الناس؟ ولماذا وجدت فى الكتاب تصميمات غامضة على نحو ما كان لابد من تقبلها على أنها تصميمات (البرج) ومشاريع موضحة تفصيليا، لتجنيد طاقات الناس للعمل الجديد الهائل!.

كان هناك كثير من الأفكار الفجة فى رؤوس الناس، فى ذلك الوقت، وقد كان كتاب ذلك الباحث مجرد مثل لتلك الأفكار ـ ربما كان سببها ببساطة أن الكل كانوا يحاولون أن ينضموا على قدر طاقتهم إلى القوى المجندة من أجل إنجاز هدف وحيد. والطبيعة البشرية، متغيرة فى جوهرها، متحركة كالتراب، لا تستطيع أن تكبح طويلا، فإذا ما قيدت نفسها، فإنها سرعان ما تمزق قيودها فى جنون، حتى تشق كل شىء إلى شطرين، تمزق «السور» والقيود، وتمزق نفسها أيضا!!

ولم تكن تلك الاعتبارات بالذات التى كانت تناضل أصلا، ضد بناء السور قد سقطت ـ فى الواقع ـ من حساب القائد الأعلى، عندما كان قد تقرر نظام البناء المنفصل!!.

إننا.. وأنا أتحدث هنا بالنيابة عن الكثيرين ـ لم نكن قد أدركنا تلك الاعتبارات، حقيقة، بأنفسنا، إلى أن تفحصنا اللوائح التى أصدرها القائد الأعلى، عندما اكتشفنا أنه بدون القائد الأعلى، لم تكن دراسة «كتابنا» ولا خبرتنا الانسانية، لتغنينا عن القيام بواجباتنا المتواضعة

التى أديناها فى إطار الخطة الهائلة. وفى مكتب القائد - حيث كانت الخطة، وحيث لم يكن يعلم لحظتها، أى شخص ممن سألتهم، من الذين كانوا يجلسون هنا، ولا هم حتى، علموا الآن -!! فى ذلك المكتب.. كان فى مقدور المرء أن يثق من أن كل الأفكار البشرية، وكل الرغبات، كانت قد انعقدت، وفى مواجهتها كل الأهداف، والمنجزات، ومن خلال النافذة.. كان بهاء العوالم السماوية المنعكسة، تسقط فوق أيدى القادة، بينما هم يتعقبون خططهم!!.

ولهذا السبب كان لابد للمراقب اليقظ أن يدرك أن القائد، لو أنه أراد فعلا، لكان فى استطاعته أن يتغلب على تلك الصعاب التى كانت تقف فى طريق نظام البناء «المتواصل». وعلى هذا فلا يبقى شىء سوى النتيجة، وهى أن القائد قد اختار عامدا نظام البناء (المنفصل). إلا أن طريقة البناء المنفصل لم تكن فقط سوى خدعة متعمدة، وهى لهذا لم تكن مناسبة، وتبقى النتيجة، وهى أن القائد قد اختار شيئا غير مناسب، - نتيجة غريبة!! حقا!! إلا أنها فى نفس الوقت فى حاجة إلى كثير من النقاش حولها، وربما كان باستطاعة المرء أن يناقشها الآن فى أمان، وفى تلك الأيام كان لكثير من الناس، وللصفوة من بينهم - حكمة سرية، تقول ما يلى : حاول بكل ما أوتيت من قوة أن تتفهم أوامر القائد الأعلى، لكن فقط.. إلى حد معين، ثم تجنب التفكير فيما هو أبعد من ذلك الحد! قول حكيم جدا، لم يلبث أن دخلت عليه التعديلات ليصبح «مثلا سائرا»، كان يقتبس منه غالبا فيما بعد: تجنب التفكير فيما هو أبعد من الحد، ليس لأن ذلك قد يكون ضارا، فليس مؤكدا أبدا أنه سيجلب ضررا ما! لم يكن ما هو ضار، وما هو غير ضار، ذا علاقة

بالمشكلة، ولتنظر إلى النهر مثلا، فى الربيع.. إنه يرتفع حتى يصبح أعظم مما كان، ويغذى التربة فى سخاء، على طول امتداد ضفتيه، ويظل محتفظا بمجراه الأصلى حتى يصل إلى البحر، حيث يلقى هناك صدرا رحبا بلا حد، لأنه هو الطريق الذى يستحقه!.. إلى هذا الحد يمكنك أن تناقش أفكارك حول أوامر القائد الأعلى، إلا أن النهر يفيض بعد ذلك على الضفتين، ويفقد حدود مجراه، وشكله الخارجى، وتهبط سرعة تياره، ويحاول أن يتجاهل هدفه بتكوين بحار صغيرة، داخل الأراضى ويغرق الحقول، ولا يعود فى مقدوره أن يحتفظ طويلا بمجراه الأصلى، ولا أن يواصل امتداده من جديد، بل يضطر إلى التراجع ثانية بين ضفتيه، ويضطر إلى أن يجف فى بؤس فى فصل الجفاف، الذى لا يلبث أن يأتى.. إلى هذا الحد، ربما لا يسعك أن تناقش أفكارك عن لوائح القائد الأعلى.

والآن، على الرغم من أن تلك الحكمة، ربما كان فى وسعها أن تصل إلى حدود، وإلى قوة غير عاديتين، فى أثناء بناء السور، إلا أن لها فقط، فى الغالب، أهمية محدودة بالنسبة لدراستى الحالية، فتحرياتى تاريخية بحتة، وليس ثمة أضواء كاشفة بعد.. منذ ذلك الأمد الطويل الذى انقضى على اختفاء العواصف الرعدية، وعلى هذا فربما أخاطر بالبحث عن تفسير لنظام البناء المنفصل، الذى تجاوز ذلك النظام الذى اقتنع به الناس حينذاك! إن الحدود التى تفرضها على قدرتى على التفكير، هى حدود ضيقة للغاية، ولكن المساحة التى يجب اجتيازها هنا، مساحة غير محدودة!، ضد من كان على السور العظيم أن يقوم بدور الحماية؟ ضد شعوب الشمال!! والآن.. لقد أتيت من جنوب شرقى

الصين، وليس فى مقدور أى شماليين أن يهددونا هناك. إننا نقرأ عنهم فى كتب القدماء، وإن الفظائع التى ارتكبوها انسياقا مع طبائعهم، قد دفعتنا إلى أن نتنهد خلف أشجار أمننا، وأن الإنتاج المخلص «للفنان»، قد كشف لنا عن وجوههم اللعينة وأفواههم المفغورة، وأشداقهم المزودة بتلك الأنياب الرهيبة المشرعة، وعيونهم نصف المغمضة، التى تبدو للتو واللحظة، وكأنها تبحث عن الضحية، التى سوف تمزقها أنيابهم، وتلتهمها.. وعندما يتمادى أطفالنا فى رعونتهم، فإننا نلوح لهم بتلك الصور، فيهرعون باكين لتوهم، إلى أذرعتنا.. إلا أننا لا نعرف عن هؤلاء الشماليين شيئا آخر أكثر من ذلك. إننا لم نرهم، ولو أننا بقينا فى قرانا، فسوف لا نراهم، حتى لو أنهم امتطوا ظهور خيولهم البرية، بأقصى ما يستطيعون من سرعة متجهين مباشرة نحونا، فإن الأراضى الواسعة بلا حد، لن تمكنهم من أن يبلغونا، ولسوف تنتهى رحلتهم فى الفراغ.

فلماذا إذن نترك بيوتنا، ما دام الأمر كذلك، ونترك القناة والقناطر التى تنتصب فوقها، ونترك آباءنا، وأمهاتنا، وزوجاتنا الباكيات، وأطفالنا الذين يحتاجون إلى رعايتنا، ونرحل قاصدين إلى تلك المدينة النائية، لكى نتدرب هناك، بينما أفكارنا تواصل الرحلة - ما تزال - بعيدا.. إلى السور فى الشمال؟ لماذا؟ سؤال للقائد الأعلى.

إن قادتنا يعرفوننا، أنهم رغم غرقهم فى الهموم الهائلة، يعرفوننا. يعرفون مطالبنا الصغيرة. ويروننا ونحن نجلس معا فى أكواخنا المتواضعة. يقرون، أو لا يقرون، صلاة المساء التى يتلوها رب البيت وسط أفراد أسرته، وإذا كان مسموحا لى أن أعرب عن بعض هذه

الأفكار، التى تناولها القائد الأعلى، فإن على ان أقول، ان القائد الأعلى، ـ فيما اعتقد ـ قد وجد منذ قديم الزمان!! وأنه لم يكن قد استدعى، ـ ولنقل، كما يجتمع الحكام الصينيون الذين يستدعون على عجل ليناقشوا حلما خطيرا، رآه شخص ما، فى اجتماع ينعقد بالسرعة نفسها، وعلى هذا تقرع الطبول للناس فى تلك الليلة نفسها، لكى يغادروا فراشهم، ويتأهبوا لتنفيذ ما استقر عليه الرأى، حتى ولو لم يكن الأمر سوى مجرد إشعال شعلة، قربانا لأحد الآلهة، الذى لعله يكون قد أسدى معروفا ملحوظا لسادتهم فى اليوم السابق، فقط.. لمجرد محاصرتهم فى أحد الأركان المظلمة بهراوة، قد يكون مقدرا لها أن ترفع فى وجوههم، فى اليوم التالى، قبل أن تخمد نيران الشعلة!! أكثر من هذا أعتقد أن وجود القائد الأعلى كوجود الأبدية نفسها. كذلك القرار بأن يبنى السور، هو أيضا. وبغض النظر عن شعوب الشمال، الذين يتصورون أنهم هم السبب فى بنائه، وللأمانة أيضا نقول، بغض النظر عن الامبراطور الذى توهم أنه قد أصدر مرسوما ببنائه! نعلم نحن بنائى السور أن الأمر لم يكن كذلك، ومع ذلك، أمسكنا ألسنتنا.

❖ ❖ ❖

فى أثناء بناء السور، ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا، كنت قد انشغلت كلية على وجه الخصوص بتاريخ الأجناس المقارن وثمة أسئلة معينة، باستطاعة المرء أن يسبر بها غور الأعماق بما أنها كانت فقط تنهج هذا النهج. ولقد اكتشفت أننا نحن الصينيين، نمتلك طرازا معينا من «المؤسسات الشعبية والسياسية»، فريدة فى وضوحها، وأن

لنا مؤسسات أخرى، فريدة في غموضها، وأن الرغبة في تعقب دوافع هذه المظاهر، وخاصة الأخيرة منها، قد راودتني، وأن بناء السور نفسه، مرتبط جوهريا بتلك المسائل.

وأن واحدة من أكثر هذه المؤسسات غموضا الآن، لهي الامبراطورية نفسها.. في «بكين» - بالطبع - في البلاط الامبراطوري، ثمة بعض من الوضوح باستطاعة المرء أن يضع يده عليه، فيما يتعلق بهذا الموضوع، إنه وضوح أقرب إلى الوهم منه إلى الحقيقة وكذلك أساتذة القانون السياسي والتاريخ، في المدارس العليا يزعمون أنهم على علم تام، فيما يتعلق بهذه الأمور، وأن في وسعهم أن ينقلوا معلوماتهم تلك، إلى طلبتهم، وكلما هبط المرء أكثر بين أوساط المدارس المتوسطة كلما أمكنه أكثر - بالطبع - أن يجد مدرسين وتلاميذ يشكون في معلوماتهم الشخصية الزائفة، وكلما وجدت ثقافة سطحية، تتحلق السماء عاليا ببعض النواميس القليلة التي حفرت في رؤوس الناس منذ قرون، نواميس على الرغم من كونها لم تفقد شيئا من صدقها الأبدي إلا أنها بقيت مطموسة إلى الأبد، وسط ضباب هذا الاختلاط والتشوش الذي آلت إليه.

إلا أنه بالتحديد هو ذلك السؤال عن الامبراطورية الذي يلزم في رأيي، أن يطرح على عامة الناس، لكي يجيبوا عليه، بما أنهم في نهاية الأمر هم الدعامة الأخيرة للامبراطورية. وهنا يجب أن أعترف بأنه في مقدوري أن أتحدث مرة أخرى، فقط من أجل الوطن، وفيما عدا آلهة الطبيعة وطقوسها التي تملأ العالم كله، بتلك التغيرات الجميلة، الغنية، فإننا نفكر فقط في الامبراطور الحالي. فقط لو أننا كنا قد عرفنا من

هو، ولو أننا عرفنا عنه أي شيء محدد حقا - وليس بسبب مجرد الفضول الذى يملؤنا - لقد حاولنا أن نحصل على معلومات عن هذا الأمر، إلا أنه - كما يبدو غريبا - كان مستحيلا تماما اكتشاف أى شىء، سواء من الحجاج على الرغم من كونهم قد طافوا ببلاد كثيرة، أو من القرى القريبة، أو البعيدة، أو.. من البحارة، رغم أنهم قد أبحروا، ليس فقط فى قناتنا الضيقة، وإنما فى الأنهار المقدسة أيضا، وأن المرء ليسمع حقا ما لا حصر له من الأشياء، لكن فى غير استطاعته أن يجمع شيئا ثابتا.

فسيحة إلى هذا الحد كانت أراضينا، لدرجة أنه لم تكن ثمة حكاية واحدة فى مقدورها أن تثبت أمام اتساعها، الذى لم تكن سوى السماء تقريبا، هى من يسعها أن تقدر مساحتها، ولم تكن بكين فى وسطها سوى نقطة، وأما القصر الامبراطورى، فأقل من نقطة والامبراطور بالتالى، من ناحية أخرى يستمد عظمته من خلال كل السلطات الدنيوية!، لا جدال فى ذلك، ولكن الامبراطور الحالى، ليس سوى رجل مثلنا، يستلقى مثلما نفعل نحن على أريكة ربما تكون ذات نسب نبيلة، إلا أنها من الممكن جدا أن تكون ضيقة للغاية، وقصيرة. ومثلنا، أحيانا ما يمدد نفسه، وعندما يكون متعبا جدا، فإنه يتثاءب بفمه الرقيق الصغير. إلا أنه كيف يتسنى لنا أن نعلم أى شىء من هذا كله - من مكاننا، فى الجنوب؟ - على بعد آلاف الأميال، فوق أطراف مرتفعات التبت غالبا، وبالإضافة إلى هذا، فإن أية أخبار، حتى ولو قدر لها أن تصلنا، فإنها تصلنا متأخرة للغاية، وتكون قد استُهلكت وابتُذلت طويلاً قبل أن تصلنا. فالامبراطور محاط دائما بحشد متألق، مختلط من

النبلاء والندماء، ـ الحقد والعداء، فى زى الخدم والأصدقاء ـ، الذين يشكلون قوة مضادة للقوة الامبراطورية، ويعملون على الدوام من أجل خلع الحاكم من مكانه بالْحراب المسمومة! إن الامبراطورية خالدة، ولكن الامبراطور نفسه يترنح، ويسقط من على عرشه.. نعم، لقد هوت أسر امبراطورية بأسرها فى النهاية، ولفظت أنفاسها الأخيرة وسط قعقعة الموت!! عن هذه الصراعات والآلام، سوف لا يعلم الناس شيئا بالمرة، وكأنما هم قد وصلوا متأخرين، أو كأنهم غرباء فى مدينة، يقفون على حافة أحد الأطراف المكتظة المزدحمة لشارع جانبى، يمضغون الطعام الذى أحضروه معهم بينما يتلو ذلك ـ على البعد ـ أمامهم، فى ميدان السوق، فى قلب المدينة، ذبح حاكمهم!.

وثمة حكاية تصف هذا الموقف جيدا، فتقول إن الامبراطور قد أرسل رسالة إليك، أنت أيها الشيء المتواضع، أيها الظل الذى لا معنى له، القابع فى أقصى مكان خلف الشمس الامبراطورية، قد أرسل إليك الامبراطور من على فراش موته، رسالة لك وحدك.. لقد أمر رسوله أن يركع بجوار الفراش، وهمس بالرسالة إليه.. كم من الوقت قضاه الامبراطور مستلقيا يهمس برسالته تلك. وما أن انتهى منها، حتى أمر رسوله أن يهمس بها ثانية فى أذنه، ثم .. بهزة من رأسه، أكد أنها صحيحة! نعم، قبل أن يحتشد شهود وفاته، تهاوت كل الجدران المنيعة، وعلى الدرج الشاهق الفسيح، الموشى بالزخارف، كان يقف على هيئة حلقة، كل أمراء الامبراطورية العظماء، قبل أن يحدث هذا كله، كان قد سلم الرسالة، وبدأ الرسول رحلته على الفور!! رجل قوى، لا يكل، يتدافع الآن بيده اليسرى، ويشق لنفسه طريقا وسط الحشد،

فإذا لاقى مقاومة أشار إلى صدره، حيث يشع رمز «الشمس» فيصبح الطريق أمامه مفتوحا كما لا يمكن أن يفسح لأى شخص آخر سواه، ولكن الحشود تتجمع فى سرعة، لا نهاية لأعدادهم، فلو أنه تمكن أن يبلغ الحقول المفتوحة، فأية سرعة تلك التى سوف ينطلق بها طائرا، وستسمع على الفور.. بلا شك، بترحاب، دقات قبضاته على بابك، لكنه.. بدلا من ذلك، كم أهدر قواه عبثا، وما يزال يشق طريقه فقط عبر حجرات القصر الداخلى، وكأنه لن يبلغ نهايتها أبدا، وحتى لو أنه نجح فى ذلك، فلن يكون قد جنى شيئا، فلابد له أن يقاتل ليشق لنفسه طريقا ليهبط السلالم، ولو أنه نجح فى هذا، لما جنى شيئا، فسوف تبقى الردهات أمامه ليعبرها، وبعد الردهات، القصر الخارجى الثانى، ثم مزيدا من السلالم، والردهات وقصر آخر أيضا، وهكذا لآلاف من السنين، فإذا قدر له فى نهاية الأمر أن يبلغ البوابة الخارجية ـ ولن يحدث ذلك أبدا ـ فسوف تربض العاصمة الامبراطورية أمامه، مركز العالم، متحفزة فى نهم لتنقض عليه برفضها الخاص. لا أحد يمكنه أن يقاتل ليشق لنفسه طريقا عبر هذا المكان، حتى ولو كان مزودا برسالة من رجل ميت، لكن يمكنك أن تجلس إلى نافذتك عند هبوط المساء، وتحلم بما فى هذه الرسالة، بنفسك.

هكذا، على هذا النحو، بمثل هذا اليأس، وبمثل هذا الأمل، يتطلع شعبنا إلى الامبراطور!، إنهم لا يعرفون ما الذى يملكه امبراطور، وتوجد ثمة نظرات متشككة تتطلع حتى إلى.. اسم الأسرة الامبراطورية، وفى المدارس تلقن كثير من المعلومات عن الأسرات، مع تواريخ تعاقبها. إلا أن انعدام الثقة العالمية فى هذا الأمر، يعد من

الفداحة لدرجة أن أفضل الباحثين يختلط عليهم أمرها، والأباطرة الذين توفوا من أزمان بعيدة، ما يزالون في قريتنا يرتقون العرش، وامبراطور لا يعيش سوى في أغنية قد نودي به أخيرا في خطبة الكاهن أمام الهيكل. ومعارك التاريخ القديم، حديثة بالنسبة لنا. ويتدافع أحد الجيران داخلا، متهلل الوجه، ليحكي أنباءها، وزوجات الأباطرة المرفهات، الشهيات يغريهن جريا على عادة النبلاء، ذوو الدهاء من رجال البلاط، الذين يملؤهم الطموح وهم متوقدون في شراهتهم، مندفعون في شهوتهم، يمارسون أنانيتهم، دائما من جديد، وكلما أوغلوا بعيدا في أغوار الزمن، كلما شعشع ألق الألوان التي صورت بها أفعالهم، وأحيانا ما تسمع قريتنا، وهي تطلق صرخة تفجع مدوية، كيف شربت امبراطورة دم زوجها، في جرعات طويلة، منذ آلاف مضت من السنين!!.

على هذا النحو إذن، كانت علاقة قومنا بالأباطرة الراحلين، ولكنهم يحسبون الحاكم الحالي هو أيضا ضمن الموتى، فلو قدر ولو لمرة واحدة في عمر المرء كله، أن وصل بالصدفة إلى قريتنا أحد موظفي الامبراطورية، أثناء مروره على المقاطعات، وألقى بعض التصريحات باسم الحكومة، وتفحص قوائم الضرائب، وتفقد مدارس الأطفال، واستفسر الكاهن عن أعمالنا وشئوننا، ثم بعد ذلك، إذا قدر له قبل أن يرتقي محفته، أن يجمل انطباعاته في عدة تنبيهات يوجهها إلى حشود الشعب، فسوف ترف حينئذ ابتسامة فوق كل وجه، وسوف يسترق كل شخص نظرة إلى جاره، ومن ثم ينحني على أطفاله، كي لا يراه الموظف، لماذا؟ لأنهم يظنون بينهم وبين أنفسهم، أنه يتحدث باسم

رجل ميت، كما لو كان على قيد الحياة، فامبراطوره ذاك قد رحل منذ زمن بعيد، بل إن الأسرة كلها قد بادت تماما، والموظف الطيب، إنما يمزح فقط معهم، إلا أننا سوف نبدو وكأننا لم ندرك شيئا، فقط لكى لا نضايقه. إلا أننا لن نطيع مطلقا بإخلاص سوى حاكمنا الحاضر، لأننا نكون قد ارتكبنا جريمة إن لم نفعل!!.

ويتفق بعد رحيل محفة الموظف مباشرة أن ينتفض شخص ما فجأة، قائما فى وقار كحاكم للقرية، وكأنه قد انطلق لتوه خارجا من جوف قمقم ممتلىء بالرماد.

إن قومنا فيما يبدو لا يتأثرون بالثورات التى تنشب فى المقاطعة، ولا بالحروب المعاصرة، وإننى لأذكر حادثا قد وقع أثناء شبابى، فقد نشبت ثورة بجوارنا، إلا أنها وقعت فى مقاطعة بعيدة جدا، ولست أذكر بعد ماذا كان سبب نشوبها، كما أنه لا أهمية لأن أتذكر ذلك الآن، فالمناسبات التى تهيىء لنشوب ثورة، من الممكن أن توجد هناك كل يوم، ذلك أن نفوس الناس متهيجة للغاية فى تلك المقاطعة.

وذات يوم وصلت إلى منزلنا نسخة من منشور كان قد أصدره الثوار، وقد أحضر معه تلك النسخة متسول، كان قد عبر تلك المقاطعة، وتصادف أن كان اليوم، يوم عيد، وكانت حجرات منزلنا ممتلئة بالضيوف، وجلس الكاهن فى صدر المكان، وشرع فى قراءة ذلك المنشور، وفجأة انفجر كل شخص فى إطلاق الضحكات، وفرق المنشور وسط تلك الفوضى، أما المتسول الذى كان قد جمع رغم كل شىء كثيرا من الصدقات، فقد طرد إلى خارج الحجرة مشيعا بالصفعات، ومن ثم تفرق الضيوف ليستمتعوا بذلك اليوم السعيد،

لماذا؟ لقد كان منطق تلك المقاطعة المجاورة يختلف فى بعض النواحى، اختلافا جوهريا عن منطقنا، ولقد تحقق هذا الاختلاف كذلك فى بعض الفقرات المكتوبة فى المنشور، والتى كانت تتخذ بالنسبة لنا طابعا قديما، ولم يكن الكاهن قد تمكن بصعوبة سوى من قراءة سطرين فقط، حتى كنا قد اتخذنا قرارنا توا.

إن التاريخ القديم، قد تحدث منذ قديم، عن مآس قديمة، قد اندملت منذ ذلك الحين، ورغم ـ هكذا يبدو لى الأمر، على قدر ما تسعفنى ذاكرتى ـ أن بشاعة حياتنا الحاضرة، كانت قد صورت على نحو لا يدحض، بكلمات المتسول، فقد ضحكنا، وهززنا رؤوسنا، ورفضنا أن نستمع إلى أكثر مما استمعنا إليه، كم كان قومنا يتوقون إلى أن يطمسوا بشاعة الحاضر!!

فإذا تمكن شخص ما من أن يخرج من مثل هذه الظواهر، بأنه لم يكن لنا ثمة امبراطور، فى الواقع، فلن يكون قد ابتعد كثيرا عن الحقيقة، ويجب أن يقال المرة بعد المرة، أنه ربما لا يوجد شعب أشد إخلاصا للامبراطور من شعبنا فى الجنوب، إلا أن الامبراطور لا يجنى شيئا ذا أهمية من وفائنا هذا.

حتى إن (التنين أستدس) ينتصب فوق العمود الصغير الذى فى نهاية قريتنا، وأنه منذ بداية وعى البشرية، وهو يطلق من فمه أنفاسه المشتعلة فى اتجاه بكين كرمز للولاء، إلا أن بكين نفسها ـ تعد أكثر غرابة فى أذهان الناس فى قريتنا، من العالم الآخر. هل من الممكن حقيقة أن توجد قرية تصطف البيوت فيها بعضها بجوار البعض، لتغطى كل الحقول، لمسافة شاسعة، عما يمكن أن يراه المرء من فوق

تلالنا؟ وهل يوجد ثمة مثل تلك الحشود الكثيفة من الناس الذين يتكدسون داخل هذه البيوت ليلا ونهارا؟. إن فى مقدورنا أن نتصور وجود مثل هذه المدينة، أكثر مما فى مقدورنا أن نعتقد أن بكين وامبراطورها، هى إحدى هذه المدن!! ولعلنا أن نقول إنها تبدو لنا كما لو كانت سحابة، ترحل تحت الشمس فى سلام عبر الأزمان!!

إن النتيجة التى يسفر عنها اعتناق مثل هذه الآراء، هى حياة مطلقة الحرية، منطلقة من كل قيد، إنها حياة متحررة بطبيعتها، إلا أنه لم يتسن لى رغم ذلك أن أعثر سوى بصعوبة بالغة خلال أسفارى على أخلاقيات بمثل ذلك النقاء الذى عهدته فى قريتى، مع أنها حياة لا شأن لأى قانون معاصر بها، ولا تلتزم فقط سوى بالوصايا والتحذيرات التى انحدرت إلينا من الأزمان القديمة.

إننى أعارض التعميمات المطلقة، وليس فى استطاعتى أن أوكد أنه ليس ثمة مثل تلك التعميمات فى كل تلك القرى التى لا حصر لها فى مقاطعتنا على الأقل، إن لم نقل فى كل مقاطعات الصين الخمسمائة. إلا أننى قد أجدنى مضطرا إلى أن أجازف بتأكيد تلك الأسس التى تكمن خلف كل تلك الكتابات التى كتبت حول هذا الموضوع، والتى أتيح لى أن أقرأها، كما أضيف كذلك ـ بناء على ملاحظاتى الخاصة ـ أن بناء السور بصفة خاصة، بغزارة إمكانياته البشرية، يتيح الفرصة للشخص الحساس، لمعارضة سكان كل المقاطعات تقريبا ـ وبناء على هذا كله، ربما أمكننى بعد ذلك، أن أجازف مصرحا بأن السخط المتفشى ضد الامبراطور يظهر دائما، وبصفة عامة، شيئا ما متفقا فى أساسه مع ما تراه قريتنا. وليست لدى الآن أية رغبة رغم ذلك فى

أن أجعل ذلك السخط يبدو وكأنه فضيلة بدلا من ذلك. حقا، إن المسئولية الجوهرية في هذا الشأن، إنما تقع على عاتق الحكومة التي لم يسعها أبدا رغم كونها حكومة لأكثر الامبراطوريات عراقة، أن تتطور، أو لعلها أهملت الرغبة في تطوير مؤسسات الامبراطورية إلى ذلك الحد، حتى أن أعمالها قد امتدت مباشرة، وبلا توقف إلى أقصى حدود البلاد. ومن ناحية أخرى، مع ذلك، كان أيضا ثمة ضعف في الثقة على نحو ما، وقدرة على التوهم تضطرب في جانب الجماهير، وقد عاقهم ذلك عن إنهاض الامبراطورية من عثرتها في بكين وضمها في كل مظاهر حياتها الواقعية الملموسة إلى صدورهم. تلك الجماهير التي لا ترغب في شيء آخر أروع من أن تشعر مرة واحدة فقط بذلك الالتصاق، و.. من ثم تقضي!!.

ذلك السخط إذن، ليس فضيلة بالتأكيد، إلا أنه كلما تزايد وضوحه، كلما بدا وكأن ذلك الضعف واحدا من أعظم الروابط التي تعمل على توحيد شعبنا، الذي هو حقا - لو أن المرء جرؤ على أن يعبر عنه فيقول إنه هو الأرض الفعلية التي نقف عليها.

و.. أن نشرع في إقامة أساس مختل هنا، سيكون معناه أننا نزرع الألغام، ليس فقط تحت ضمائرنا، وإنما - أكثر من هذا سوءا - تحت أقدامنا!!. ولهذا السبب، سوف لا أتعمق أكثر من ذلك في هذا الشأن بتحرياتي عن هذه المسائل!!

أبحاث كلب

كم من التغيرات قد طرآت على حياتى، وكم بقيت حياتى تلك، كما هى، فى القاع دون أدنى تغيير. وعندما أعود بذاكرتى إلى الماضى، وأتذكر ذلك العهد، عندما كنت عضوا ما أزال فى مجتمع الكلاب، أشارك فى كل آماله، كلب ضمن باقى الكلاب؛ فإننى أكتشف من تجربتى المباشرة أننى كنت قد أحسست منذ البداية بنوع من التشتت، وبشىء من الفوضى، كان يبعث فى نوعا من الشعور بالقلق الذى لم تكن لتزيله حتى أكثر الاهتمامات العامة انسياقا مع العرف. وبالإضافة إلى ذلك فأحيانا، لا.. ليس أحيانا، بل غالبا ما كانت مجرد النظرة إلى رفيق من كلاب طبقتى، كلب كنت أحبه، إلا أن مجرد رؤيته، كما لو كنت أراه للمرة الأولى، كانت تكفى لكى تملأنى بالحيرة العاجزة، وبالخوف، بل لقد كانت تملؤنى باليأس، ولقد حاولت أن أتغلب على مخاوفى ما وسعنى ذلك. ولقد ساعدنى أصدقائى الذين بحت لهم بما فى نفسى، وجاءت عهود من السلام، عهود لم تكن بالفعل تفتقر إلى مثل تلك التحيرات المفاجئة. لكن مثل تلك التحيرات كانت تستقبل خلالها بمزيد من التفلسف، و.. بمزيد من التفلسف تفاعلت مع حياتى، وجنحت بى ربما نحو نوع من الخبل والفتور. إلا أنها قد أتاحت لى

رغم ذلك أن أمضى فى حياتى ككائن هادىء على نحو ما، ومتحفظ، وخجول، وحذر، لكن كلبا عاديا تماما، رغم كل ذلك. فكيف كان يتسنى لى حقا دون أن أمر بتلك الفترات من النقاهة، أن أبلغ العهد الذى أجنى متعته فى الوقت الحاضر. وكيف كان يتسنى لى أن أجاهد لكى أشق طريقا إلى الهدوء الذى يتيح لى أن أتأمل رعب شبابى، وأحتمل من خلاله رعب العصر. وكيف تسنى لى أن أبلغ الدرجة التى تمكنت فيها من أن أخط نتائج تعاستى المسلم بها، أو أن أقرر على نحو أكثر موضوعية، أنها لم تكن حالة سعيدة للغاية، وأن أحيا على الأغلب، تبعا لتلك النتائج؟ حياة الوحدةوالسلبية، بلا شىء يشغلنى سوى بعض الأبحاث القليلة اليائسة، التى لا غنى لى عنها. تلك هى الطريقة التى أعيش عليها، إلا أننى، فى عزلتى البعيدة، لم أفقد الرؤية للناس، فأخبارهم تتطرق إلى، وإننى لأسمح لأخبارى هى أيضا بأن تبلغهم من حين لآخر. إن الآخرين يعاملوننى باحترام، لكنهم لا يفهمون أسلوب حياتى، ومع ذلك فهم لا يحملون لى أى ضغينة، وحتى الجراء الصغيرة التى أراها تمر أحيانا على البعد، والتى لا أذكر طفولتها سوى ذكرى غامضة، لا تضن على هى أيضا بتحيات التوقير.

وليس لى أن أدعى لكل غرابة أطوارى التى ما تزال باقية إلى يومنا هذا. أننى حر على الإطلاق من قيود جنسى. وإننى فى الحقيقة عندما أتأمل ذلك ـ وإننى لأمتلك الوقت، والميل، والمقدرة على ذلك ـ، فإننى أرى أن مملكة الكلاب هى هيئة رائعة من كل الوجوه. وتوجد فيما عدانا نحن الكلاب، كل أنواع المخلوقات فى العالم، مخلوقات دنيئة وقاصرة، وخرساء، لا لغة لها، بل صيحات آلية : وقد قام كثير منا نحن الكلاب

بدراستها، وإطلاق الأسماء عليها، وحاولوا أن يمدوا لها يد المساعدة، وعلموها، ورفعوا مستواها، وهكذا. أما من ناحيتي فإنني لم أبال بها مطلقا إلا حين تحاول إزعاجي، وإنني لأخلط بين أى جنس منها وبين الجنس الآخر. إننى أجهلها، إلا أن شيئا واحدا كان من الوضوح، حتى لم يخطئني أن أتعرفه، هو على وجه التحديد، كيف تميل هذه المخلوقات بعض الميل، بخلافنا نحن الكلاب إلى أن تلتصق ببعضها البعض، وكيف يمر بعضها ببعض بمثل ذلك الصمت، ومثل ذلك النفور، وبمثل ذلك العداء الغريب. وكم هى وضيعة تلك الاهتمامات التى يمكنها أن تربط بينها لفترة قصيرة فى وحدة ظاهرية، وإلى أى حد تثير فهم تلك الاهتمامات نفسها الحقد، والتطاحن. لكن فى مقدور المرء أن يقول عنا نحن الكلاب من ناحية أخرى باطمئنان، أننا نعيش جميعا معا فى حشد فعلى، كلنا رغم اختلاف كل منا عن الآخر، بسبب التحولات العميقة التى لا حصر لها، والتى قامت بمرور الأزمان. جميعنا فى حشد واحد، مشدودون إلى بعضنا البعض، دون أن يفلح شىء فى أن يعوقنا عن إشباع ذلك الدافع النزاع إلى المشاركة. وإن كل قوانيننا، وكل مؤسساتنا، القليل الذى مازلت أذكره منها، والكثير الذى نسيته لتنتهى كلها إلى تلك الأمنية بالسعادة القصوى التى يسعنا تحقيقها، وبالرضا الدافىء لكوننا معا. ولنتأمل الآن الجانب الآخر من الصورة، فعلى قدر علمى لا توجد مخلوقات تعيش ذلك التشتت الشديد الذى نعيشه نحن الكلاب، ولا يوجد جنس له مثل تفاوتنا فى الطبقة، والفصيلة، والمهنة،.. فوارق عديدة جدا حتى ليسعك تمييزها بنظرة، وإننا لنجدنا نحن الذين لا رغبة لنا سوى أن نلتصق معا ـ ولقد حدث أن نجحنا فى تحقيق تلك

الرغبة مرة بعد مرة، في لحظات سامية، رغم كل شيء - نجدنا مجبرين دون جميع الآخرين إلى أن نحيا منفصلين أحدنا عن الآخر بدعاوى غريبة غالبا ما لا تكون مفهومة حتى لجيراننا من الكلاب، ونجدنا متمسكين غاية التمسك بقوانين تخالف قوانين الكلاب، بل تعارضها بالفعل معارضة صريحة. كم تبدو هذه المسائل باعثة على الحيرة، مسائل من الأفضل ألا يتناولها المرء - وإنني لأدرك أيضا هذا الموقف، بل إن إدراكي له، لأقوى من إدراكي لموقفي نفسه - إلا أنها مسائل لا يسعني سوى التسليم بها تسليما مطلقا، فلماذا لا أفعل كما يفعل الآخرون، فأعيش في انسجام مع عشيرتي، وأتقبل في صمت كل ما قد يكدر صفو هذا الانسجام، متخطيا إياه كزلة بسيطة في المدى الهائل، وأضعا نصب عيني دائما الأشياء التي تربطنا معا في هناء، لا تلك الأشياء التي تدفعنا المرة بعد المرة، ولو بالقوة، إلى خارج نطاق دائرتنا الاجتماعية.

ويمكنني أن أتذكر حادثة وقعت أثناء شبابي، وكنت إذ ذاك أعيش في حالة من حالات التدليل الغامضة الهانئة، التي لابد مارسها كل امرىء عندما كان طفلا، كنت مازلت جروا صغيرا جدا، وكان كل شيء يبعث السرور في نفسي، وكنت متعلقا بكل شيء، وكنت قد اعتقدت بأن أشياء رائعة مجيدة تجرى من حولي، وأنني كنت رائدها، وأنه كان يتوجب على أن أهبها صوتي، أشياء لابد كان سيلقى بها جانبا في إهمال لو لم أسع أنا لأجلها، وأهز لها ذيلي - خيالات طفولية، انتهت مع سنوات النضج، إلا أن قوتها كانت بالغة للغاية في ذلك الحين، وقد كنت واقعا تماما تحت تأثير سحرها، ثم حدث شيء ما بالفعل حينذاك،

شيء شاذ غاية الشذوذ حتى أنه قد بدا كما لو كان قد حقق توقعات البدائية. لم يكن في حد ذاته أمرا شاذا للغاية، ذلك أنني كنت قد رأيت الكثير من مثل تلك الأمور، والمزيد من جلائل الأمور كذلك، كنت قد رأيت ما يكفيني رؤيته منذ ذلك الحين. إلا أنه في ذلك الحين كان ذلك الأمر قد صدمني عندما شهدته بكل قوة الانطباع الأول، انطباعا من تلك الانطباعات التي لا يسع المرء أن يمحو أثرها، والتي تلقي ظلالها على سلوك المرء فيما بعد. فلقد كنت قد واجهت - باختصار - جمعا قليل العدد من الكلاب، أو أنني لم أكن بالأحرى قد واجهتهم، وإنما كانوا هم قد ظهروا أمامي. وكنت قبل أن يحدث ذلك، أعدو في الظلمة لبعض الوقت، وقد امتلأت بنذير ينذرني بوقوع بعض الأحداث الجسام، نذير قد يكون وهما خالصا، لأنني كثيرا ما توهمت مثل تلك النذر. كنت قد عدوت في الظلمة لوقت طويل ذهابا وجيئة، أعمى وأصم عن كل شيء، لا تقودني سوى رغبة غامضة، وأخيرا توقفت فجأة، وقد أحسست بأنني قد أصبحت في المكان المناسب. وعندما تطلعت إلى أعلى اكتشفت أن النهار كان قد أشرق، وأن شروقه كان مشوبا فقط بعتمة خفيفة. وفي كل مكان، كان هناك مزيج وأخلاط من الروائح شديدة التخدير، ولقد حييت الصباح بنباح متردد، عندما اندفع - كما لو كنت قد أطلقت لهم تعويذة سحرية ما - سبعة كلاب، خارجين من مكان ما من الظلام، مصحوبين بأصوات مزعجة لم يحدث لي أن سمعت لها مثيلا من قبل، نحو الضوء. فلو لم أكن قد لاحظت بيقين أنهم كانوا كلابا، وأنهم هم الذين كانوا قد أصدروا ذلك الصوت، رغم أنني لم أكن قد تبينت كيف كانوا قد أصدروه، لكنت قد انطلقت هارباً من فوري،

لكن لما كانوا كذلك، فلقد بقيت. وكنت فى ذلك الحين ما أزال أجهل كل شيء تقريبا عن الموهبة الخالقة للموسيقى التى كانت قد وهبت فقط لجنس الكلاب وحده، ولقد كانت تلك الموهبة تنقصنى بالطبع كلية، لكننى قمت شيئا فشيئا بتطوير قواى على الملاحظة، ذلك أن الموسيقى كانت تحوطنى كظاهرة طبيعية تماما، وكعنصر لا غنى عنه من عناصر الوجود، منذ أن كنت رضيعا، عنصر لم يكن ثمة دافع قد دفعنى إلى تمييزه من بين باقى مظاهر الوجود المحيطة بى، ولقد لفت الكبار من نوىّ، نحوه أنظارى، بمثل تلك التلميحات التى كانت تناسب الإدراك الطفولى، إلا أن أكثر ما بدا لى مدهشا، بعدئذ، ومخربا بالنسبة لى فى الحقيقة، كانوا هم هؤلاء الموسيقيون السبعة العظام. فهم لم يتحدثوا، ولم يطلقوا عقيرتهم بالغناء، بل ظلوا جميعهم صامتين، صامتين عن عمد، على الأغلب، لكنهم خلال الهواء الطلق كانوا قد عزفوا موسيقاهم. كل شيء كان موسيقى! رفع سيقانهم، ووضعها ثانية على الأرض، لفتات ما من الرأس، وعدوهم، وسكناتهم، والأوضاع التى كانوا يتخذونها بالاشتراك مع بعضهم البعض والأشكال المتماثلة التى كانوا يؤلفونها بواسطة أحدهم عندما كان يضع ساقية الأماميتين فوق ظهر آخر، ويحذو الباقون حذوه، حتى يضجر الأول من احتمال ثقل الكلاب الستة الآخرين، أو.. يستلقون منبطحين فوق الأرض، ثم يزحفون بواسطة حركات معقدة مقصودة، دون أن يأتى أحدهم بحركة خاطئة، ولا حتى الكلب الأخير، رغم أنه لم يكن واثقا من نفسه تمام الثقة، ولم يكن يجارى الآخرين فى براعتهم، فيتصل بهم فوراً، كان يتردد أحياناً، كما حدث بالفعل فى إحكام

إيقاعه، إلا أن تردده كان ملحوظاً فقط بنسبته إلى الثقة الزائدة التى كان يتمتع بها الآخرون، وحتى لو أنه كان متردداً إلى حد أبعد كثيرا من ذلك الحد، فلم يكن تردده البالغ ذاك، بقادر حقاً على أن يتسبب فى ضررٍ ما، فلقد كان الأساتذة العظام الآخرون جميعهم، يضبطون الإيقاع بغاية الرسوخ. إلا أنه من المبالغة البالغة أن أقول إننى قد رأيتهم بوضوح، أو حتى قد رأيتهم بالفعل بصورة ما. فلقد خرجوا من مكان ما، ولقد حييتهم قلبيا باعتبارهم كلابا، ورغم أننى كنت مضطربا أشد الاضطراب بسبب الأصوات التى واكبتهم، إلا أنهم كانوا كلابا على كل حال، كلابا مثلى ومثلك. ولقد تبينتهم بقوة العادة، ككلاب ببساطة اتفق لى أن التقيت بهم فى طريقى، وأحسست برغبة فى أن أقترب منهم، وأن أبادلهم التحيات، فلقد كانوا قريبين من مكانى أيضا، غاية القرب، كانوا كلابا أكبر كثيرا منى دون شك، لكنهم لم يكونوا من فصيلتى المغطاة بالشعر الصوفى الكثيف، ولم يكونوا مختلفين كذلك غاية الاختلاف فى الحجم أو الشكل، وكانوا فى الحقيقة مألوفين لى تماما، لأننى كنت قد رأيت كثيرا من أمثال أو أشباه تلك الكلاب، لكننى فيما كنت مستغرقا فى تلك التأملات، كانت الموسيقى قد سيطرت تماما على الموقف دون أن أشعر بذلك، حتى لقد تقطعت لها أنفاسى بالفعل، وطوحت بى بعيدا جدا عن تلك الكلاب الصغيرة، على غير إرادتى، بينما كنت قد انطلقت فى النباح كما لو كنت قد أصبت بألم ما، ولم يكن عقلى يتعقب شيئا سوى تلك العاصفة من الموسيقى. التى بدت وكأنها قد هبت من كل الجهات، من الأعالى، ومن الأعماق، ومن كل مكان ممسكة بتلابيب السامع، محدقة به، تسحقه، و.. فوق

جسده فاقد الوعي، تهب بلا توقف نفخات أبواق قريبة جدا، حتى أنها لتبدو من فرط قربها بعيدة جدا؛ وغير مسموعة على الأغلب، ثم جاءت فترة من الراحة، فقد كان المرء قد استنفد قواه جميعا، كان قد همد تماما، وأصبح من الوهن بحيث لا يمكنه أن يحتمل الاستماع إلى المزيد. جاءت فترة راحة، ثم شاهدت الكلاب السبعة الصغيرة مرة أخرى، تواصل تحركاتها، وتتابع قفزاتها، ووددت أن أصيح مناديا إياهم على الرغم من تباعدهم، وأن أستعطفهم لكي يعلموني، وأن أسألهم عن معنى ما كانوا يأتونه من حركات - فقد كنت طفلا، وكنت قد اعتقدت أن في وسعي أن أسأل أي كائن عن أي شيء، لكنني ما كدت أبدأ، وما كدت أمارس الشعور بقدرتي على التخاطب الكلبي السليم المألوف مع الكلاب السبعة، حتى بدأت الموسيقى تعزف ثانية، فسلبتني وعيي، ودارت بي في دواماتها، كما لو أنني كنت أنا نفسي واحدا من ضمن العازفين، لا مجرد ضحية لهم فحسب، فقد ألقوا بي هنا وهناك، ولم يجدني كم توسلت إليهم طالبا الرحمة، حتى أنقذوني في النهاية من قسوتهم، بأن زجوا بي في داخل متاهة من القضبان الخشبية كانت قد قامت حول المكان، على الرغم من أنني لم أكن قد لاحظت وجودها من قبل، لكنها كانت قد اقتنصتني أخيرا في عنف، ضاغطة رأسي إلى الأرض، ورغم أن الموسيقى كانت ما تزال مسموعة خلفي، في المساحة المفتوحة، فإنهم لم يسمحوا لي بفسحة من الوقت لالتقاط أنفاسي. ولابد لي من أن أعترف بأنني لم أكن معجبا بمهارة الكلاب السبعة في العزف - فلم أكن أفهمه، ولقد كان عزفهم علاوة على ذلك، أعلى من مستوى كل طاقاتي بصورة تامة -، مثل إعجابي

بشجاعتهم فى مواجهة الموسيقى التى كانوا يعزفونها بأنفسهم، هذه المواجهة الصريحة، وإعجابى بطاقتهم على احتمالها فى هدوء، دونما انهيار. لكننى لاحظت أخيرا من مخبئى، عندما تطلعت من مكان أكثر اقترابا، أن ذلك البرود كله لم يكن أقصى ما كان يتميز به استعراضهم من انفعال، فقد كانت أطرافهم التى كانت تبدو واثقة إلى ذلك الحد فى حركاتها، كانت تلك الأطراف ترتعد مع كل خطوة بانتفاضات متواصلة خائفة، وكان الكلاب قد ثبتوا نظراتهم، أحدهم على الآخر، كما لو كانت عيونهم قد تحجرت من اليأس، وكانت ألسنتهم تتدلى عندما كان التوتر يضعف للحظة، فى إرهاق، أسفل ذقونهم! ولا يمكن أن يكون الخوف من الفشل هو ما كان قد بعث فيهم الاضطراب إلى ذلك الحد. فالكلاب التى يسعها أن تجرؤ على الإتيان بمثل تلك الأمور، لم تكن بحاجة إلى أن تخشى الفشل. فلماذا إذن كان الخوف قد تملك تلك الكلاب؟ ومن أجبرهم على أن يفعلوا ما كانوا يفعلونه؟ لم أتمكن من أن أضبط نفسى طويلا بعد ذلك، خاصة عندما تبين لى أخيرا، على نحو غير مفهوم، أنهم كانوا فى أشد الحاجة إلى العون، ولهذا، وفوق كل ضوضاء الموسيقى، هتفت بتساؤلاتى فى صخب وتحد. إلا أنهم - لا يمكن تصديق ذلك، لا يمكن تصديقه! - لم يجيبونى، وتابعوا ما كانوا يفعلونه كما لو لم أكن هناك. إن الكلاب التى لا تجيب على مبادرات الكلاب الأخرى، هى كلاب مذنبة بإساءتها إلى الأخلاق السامية، ولا يمكن أبدا أن يصفح عن ذنب كهذا أكثر الكلاب تواضعا إلا إذا أمكن أن يتجاوز عنه أرقى الكلاب، فلعلهم إذن ألا يكونوا كلابا على الإطلاق! لكن، كيف يمكن لهم ألا يكونوا كلابا؟ ألست أسمع بالفعل، بوجودى

على مسافة جد قريبة، صيحاتهم المتسلطة التى يشجعون بها أحدهم الآخر؟، ويلفت بها أحدهم أنظار الآخر إلى المصاعب، ويحذره من الأخطاء، ألا يمكننى أن أرى الكلب الأخير، والأصغر، الذى وجهت له أغلب صيحاتي، وهو يختلس النظرات نحوى، كما لو كان يود من أعماقه لو يجيبنى، لكن يمنعه عن ذلك فقط، أن الرد لم يكن مسموحا به؟ فلماذا لم يكن مسموحا به؟ لماذا يصبح الشىء الذى تأمر به قوانيننا وتحض عليه بلا قيد ولا شرط، أمرا غير مسموح به، فى تلك الحالة الغريبة؟ لقد امتلأت سخطا على تلك الفكرة، حتى لقد نسيت الموسيقى تقريبا! لقد كان هؤلاء الكلاب ينتهكون القانون، ربما كانوا سحرة عظاما، إلا أن القانون يسرى عليهم هم أيضا، وإننى لأعلم هذا تمام العلم، رغم أننى مازلت طفلا! و.. تحققت الآن من أننى كنت قد أدركت شيئا آخر، هو أن ثمة أسباب قوية كانت تدفعهم إلى أن يبقوا صامتين، فلقد كانوا يحسبون أنهم إنما يصمتون لإحساسهم بالخجل. فكم كانوا يبتذلون أنفسهم؟ إننى بسبب كل تلك الموسيقى، لم أكن قد لاحظت ابتذالهم ذاك من قبل، إلا أنهم كانوا قد أطاحوا بعيدا بكل أثر للخجل. لقد كانت تلك المخلوقات الوضيعة تفعل الشىء نفسه الذى يبدو مؤسفا غاية الأسف، وشائنا فى نظرنا!، لقد كانوا يسيرون على سيقانهم الخلفية!، سحقا لهم! لقد كانوا يكشفون عن عريهم، بل لقد كانوا يستعرضون عريهم بصورة فاضحة، ولقد كانوا يفعلون ذلك كما لو كانوا بالفعل يفعلون أمرا يستحق التقدير، وعندما اتفق لهم أن يتبعوا أفضل ما فى فطرتهم للحظة من اللحظات، فقد حدث أن تركوا مخالبهم الأمامية تسقط إلى الأرض، أصيبوا لتوهم بالرعب، كما لو

كانوا قد وقعوا فى خطيئة ما، كما لو أن الطبيعة كانت خطيئة فى نظرهم. وبسرعة رفعوا سيقانهم ثانية، وبدت عيونهم وكأنها تستجدى الصفح، لكونهم قد اضطروا إلى أن يضعوا حدا لشناعاتهم فى التو واللحظة. فهل كانت الدنيا تقف فوق رأسها؟ وأين عسانى أن أكون؟ وماذا عساه أن يحدث؟ فلو أننى جرؤت فقط على أن أضع الآن حدا لترددى! خلصت نفسى من تشابك تلك القضبان، وقفزت قفزة واحدة نحو الفضاء، واتجهت صوت الكلاب!، إن علىّ أنا التلميذ الأصغر أن أقوم الآن بدور الأستاذ، ولابد لى من أن أجعلهم يفهمون ما الذى كانوا يأتونه، ولابد لى من أن أمنعهم من ارتكاب أية خطيئة أخرى. ظللت أقول فى نفسى: «وكلاب كبيرة أيضا؟!، وكلاب كبيرة أيضا؟!»، إلا أننى ما كدت أتحرر، ولم يكد يفصلنى عن الكلاب سوى قفزة أو قفزتين، حتى تملكتنى الموسيقى ثانية بكل قوتها، و.. لعلنى أن أتمكن من احتمالها، فى غمرة حماستى، لأننى قد خبرتها الآن بصورة أفضل، لو لم ترن نغمة واضحة متواصلة، حادة، منبثقة فى عنف من أقصى الأماكن النائية، وسط انتشار النغم المهيب، الذى كان يبدو مخيفا، لكنه ما يزال غير مستعص على أن يقهر، لعلها كانت هى اللحن الأساسى فى المعزوفة كلها، و.. لعلنى ما كنت أضطر إلى أن أجثو على ركبتى، لو لم تنبثق تلك النغمة أخيرا!، إن الموسيقى التى يعزفها هؤلاء الكلاب تنتزع منى تقريبا حواسى كلها!.

لم أتمكن من أن أخطو خطوة واحدة أبعد من ذلك، ولم تعد لدى الرغبة بعد فى أن أرشدهم، وفى وسعهم أن يواصلوا رفع سيقانهم الأمامية، و.. أن يرتكبوا الخطيئة، وأن يغووا الآخرين إلى ارتكابها،

من مجرد النظر إليهم فى صمت؛ لقد كنت كليا صغيرا إلى ذلك الحد، فمن ذا الذى كان يمكنه أن يطلب إلى القيام بمثل ذلك الواجب الصعب؟ لقد أثبت لنفسى بنفسى أننى مازلت شيئا لا يعتد به الآن أكثر من أى وقت مضى. وانخرطت فى البكاء. ولو سألنى الكلاب فى هذه اللحظة عن رأيى فى استعراضهم، فلعلنى لا أجد كلمة واحدة لأقولها ضده!، وعلاوة على ذلك فلم يكن قد مر وقت طويل قبل أن تختفى الكلاب بموسيقاها عن الأنظار، وقبل أن يبتلعهم الظلام الذى كانوا قد خرجوا منه.

إن تلك الحادثة لا تتضمن شيئا بالغ الأهمية، كما قد قلت لتوى، ففى مجرى الحياة الطويل، يلقى المرء كل أنواع الأمور التى إذا انتزعت من سياقها، ونظر إليها بعينى طفل، قد تبدو مدهشة غاية الدهشة. وبالإضافة إلى ذلك، فلعل المرء أن يكون بالفعل ـ كما يقول المثل الشعبى اللاذع ـ «قد فهم كل شىء بصورة خاطئة»، تماما كما قد يفهم كل شىء يتصل بذلك. ثم إنه من الممكن إثبات أن تلك الحادثة ببساطة كانت حالة اجتمع فيها سبعة من الموسيقيين ليمارسوا فنهم فى سكون الصباح، وأن كلبا صغيرا جدا قد ضل طريقه إلى مكانهم. دخيل ثقيل، كانوا قد حاولوا طرده بوسيلة تخويف خاصة، أو بموسيقى مرتفعة عن طاقته، دون أن يتسنى لهم أن ينجحوا فى ذلك لسوء الحظ، وأنه قد أزعجهم بتساؤلاته، فهل كانوا، وقد أزعجوا غاية الإزعاج بمجرد وجود ذلك الغريب، ليتوقعوا بالإضافة إلى ذلك أن يستمعوا إلى مقاطعاته المعوقة؟ و.. أن يساهموا فى زيادة حالهم سوءا على سوء بالرد عليها؟، وحتى لو كان القانون قد أمرنا بأن نرد على

كل فرد، فهل كان مثل ذلك الكلب الضال، ضئيل الحجم، في الحقيقة، فردا يستحق الاعتبار؟، و.. ربما لم يكونوا حتى قد فهموه، ذلك أنه كان ينبح متسائلا على نحو غاية فى الغموض، أو أنهم كانوا قد فهموا تساؤلاته تلك، وبغاية ضبط النفس أجابوه عليها، لكنه لم يتمكن، لكونه جروا غير معتاد على سماع الموسيقى، من تمييز الإجابة وسط موسيقاهم. أما بخصوص سيرهم فوق سيقانهم الخلفية، فلعلهم، بخلاف باقى الكلاب الأخرى، كانوا قد اعتادوا على اتباع هذه الطريقة وحدها للسير، فلو كانت تعد خطيئة، حسنا.. فلنقل إنها كانت خطيئة، إلا أنهم كانوا وحدهم!، سبعة من الأصدقاء معا، أو لنقل إنهم كانوا جمعا متآلفا بين جدرانهم الأربعة، أو كانوا فى وضع خاص غاية الخصوصية، ذلك أن أصدقاء المرء شيء، والجمهور شيء آخر، وما دام لم يوجد الجمهور بالفعل، فليس من شأن مجرد كلب صغير لحوح من كلاب الشارع، دون شك، أن ينظم الكون! لكن لو أننا سلمنا بذلك، فهل لا يبدو الأمر مختلفا عما لو أن شيئا لم يكن قد حدث على الإطلاق؟ لا يبدو الأمر بالمرة، وكأن شيئا لم يحدث، ومع ذلك فإنه ليبدو بالفعل قريبا منه فى حالة عدم وقوع أى شيء، و.. يجب على الآباء ألا يتركوا أبناءهم يهرولون بحرية، ويحسن بهم أن يعلموهم أن يضبطوا ألسنتهم، ويحترموا من يكبرونهم!.

فلو أننا وافقنا على كل ذلك، لأمكن حينئذ التخلص من القضية كلها. إلا أن كثيرا من الأشياء التى أمكن طردها من عقول الكبار، لم تكن بعد قد استقرت فى عقول الصغار. اندفعت متجولا، ورويت قصتى، وتساءلت، ووجهت الاتهامات، وقمت بالأبحاث، وحاولت أن أجذب

الآخرين إلى حيث كان يجرى ذلك كله، وكادت تقتلنى الرغبة فى ان ادل كل فرد على المكان الذى كنت أقف فيه، والمكان الذى كان يحتله الكلاب السبعة، وأين وكيف كانوا قد رقصوا، وعزفوا موسيقاهم، ولو كان أى فرد قد صحبنى، بدلا من أن يركلنى، ويسخر منى، فلعلنى كنت قد ضحيت ببراءتى، وحاولت أن أقف بنفسى على ساقىّ الخلفيتين، حتى يمكننى أن أعيد تمثيل المشهد بوضوح. إن الأطفال ليوبخون الآن على كل ما يأتونه من أفعال، لكن يصفح عنهم فى النهاية بسبب فعالهم هذه نفسها. ولقد احتفظت بخصائص طفولتى، ونموت على الرغم من ذلك، لأغدو كلبا كبيرا. حسنا، إننى مازلت مستمرا، كما كنت فى ذلك الحين، فى مناقشة تلك الحادثة السابقة، نقاشا لا يقف عند حد، - تلك الحادثة، التى يتعين على الآن أن أعترف بأننى لا أعلق عليها كبير أهمية - محللا إياها إلى عناصرها الأصلية، متباحثا فيها مع من يستمعون إلى، دون اعتبار للمجموعة التى قد أجد نفسى بينها، ناذرا وقتى كله لتلك القضية، التى أعتبرها، كما يعتبرها كل فرد آخر، قضية مخيفة، لكننى لهذا السبب نفسه - وهذا هو الفارق - كنت قد عزمت على أن أتعقبها بلا كلل حتى أقف على حلها. وعلى هذا فلعلنى أن أبقى حرا حتى أسترد هدوء وسعادة الحياة اليومية المألوفة، وها أنا قد عملت بجد على الرغم من وسائلى الطفولية القاصرة، - ومع ذلك فليس الفارق بالغا - منذ تلك السنوات، ومازلت أعمل حتى الآن.

إلا أن الأمر قد بدأ بتلك المعزوفة الموسيقية، ولست ألقى اللوم على تلك المعزوفة، ذلك أن طبيعتى الفطرية هى ما دفعتنى إلى ذلك، ولابد أنها كانت ستجد فرصة أخرى لتدفعنى، لو لم تكن تلك المقطوعة قد

عزفت، لكن حقيقة أنها كانت قد حدثت على هذا النحو المبكر، جلعتنى أشعر عادة بالأسف على نفسى، فقد كانت قد استلبت جانبا كبيرا من طفولتى، من تلك الحياة الهانئة لكلب صغير، تلك الحياة التى يتمكن الكثيرون من أن يمدوا أجلها لسنوات طويلة، لكنها فى حالتى لم تستمر سوى بضعة شهور قليلة فقط. هذا ما كان. ذلك أنه كانت هناك أمور أكثر أهمية من الطفولة. ولعل الطموح كان قد جنح بى إلى أبعد من مجرد مباهج الطفولة، إلى أشياء تكتسب عن طريق حياة من العمل الشاق قد تتحمله سنوات شيخوختى بصورة أفضل مما يمكن لطاقات صباى أن تقوى عليه بالفعل، تلك الطاقات التى ستتوفر عندئذ رغم ذلك.

وبدأت تساؤلاتى بأبسط الأمور، لم يكن هنالك ثمة نقص فى اللوازم، بل لقد كانت الوفرة الفعلية لسوء الحظ، هى ما أصابنى باليأس فى أشد ساعاتى حلكة. وبدأت التساؤل حول هذه المسألة: ما الذى كان يعتمد عليه جنس الكلاب فى غذائه؟ وها هى الإجابة لو شئت، فلقد تصادف أن كان السؤال بسيطا بالطبع، ولقد كان ذلك التساؤل قد شغلنا منذ فجر التاريخ!، وإنه هو الموضوع الرئيسى الذى تدور حوله كل أفكارنا، ولقد تم نشر ما لا حصر له من الملاحظات والمقالات، ووجهات النظر حول ذلك الموضوع، حتى لقد أسفر ذلك عن عالم من المعرفة، كان فى ضخامته المهولة، ليس فقط فوق متناول إدراك أى دارس فرد، لكن فوق متناول إدراك كل باحثينا مجتمعين!، عبء لا يمكن أن يضطلع به سوى مجتمع الكلاب بأسره، وحتى حينئذ فلن يكون الأمر سهلا، ولن يتحقق إنجازه سوى بصورة جزئية، لأنه

يتبدد دائما وأبدا كميراث قديم مهمل، ولابد من أن يرد إليه اعتباره دائما بهمة من جديد، ولا مجال مطلقا للحديث عن الصعوبات، أو عن النقاط التى لم تستوف غالبا من أبحاثى. ولا حاجة بأحد لأن يلفت نظرى إلى كل تلك الأشياء، فإننى أعرفها جميعا بنفس الدرجة التى يمكن أن يعرفها عليها أى كلب آخر دنيوى عادى، وليس لى أى مطمح يمكننى أن أتوسل إليه عن طريق المسائل العلمية الحقيقية، فإن لدى كل الاحترام للمعرفة. كل الاحترام الذى تستحقه! لكن لكى أزداد معرفة فإن الإمكانيات تنقصنى، وتنقصنى المثابرة، والوقت، و ـ لا يقل عن ذلك، خاصة خلال السنوات القليلة الماضية ـ الرغبة أيضا. لقد التهمت طعامى، إلا أن أقل ملاحظة نظرية بدائية لذلك من زاوية الاقتصاد السياسى لم تكن تبدو لى جديرة بالتوقف لحظة واحدة. وفى هذا الصدد فإن جوهر المعرفة جميعها يكفينى منه تلك القاعدة البسيطة التى تبعا لها ترضع الأم صغارها من ثدييها، وتدفع بهم إلى العالم قائلة لهم: «هيا.. قوموا برى الأرض، بقدر ما يسعكم أن تفعلوا ذلك!»، أليس كل شىء قد تضمنته على الأغلب تلك القاعدة؟ فما الذى بدأ البحث العلمى منذ آبائنا الأوائل من الأمور ذات الأهمية البالغة حتى يضاف إلى ذلك؟!، مجرد تفاصيل! مجرد تفاصيل!، وحتى هذه التفاصيل مشكوك فى أمرها الآن، لكن ستظل تلك القاعدة باقية طالما بقينا كلابا. إنها تتعلق بغذائنا الأساسى: حقا، إن لنا أيضا مصادر أخرى، لكن فقط عندما تمس الحاجة، فلو لم يكن العام سيئا غاية السوء، ففى وسعنا أن نحيا على هذا الغذاء الأساسى، وإننا لنجده فى الأرض، لكن الأرض تحتاج إلى مياهنا لترتوى بها، وفى مقابل هذا

الثمن فقط تمدنا بطعامنا، الذى يمكنه أن يظهر - رغم ذلك، ولا يجب علينا أن ننسى هذا - على وجه السرعة بتعاويذ خاصة، وأغان وطقوس دينية. وهذا فى رأيى هو كل شىء، وليس ثمة شىء آخر يمكن اعتباره أساسيا، يسعنا أن نذكره فى هذا الصدد. وإننى فى رأيى هذا - علاوة على ذلك - لمتفق مع الأغلبية الساحقة لمجتمع الكلاب. ويتعين على بشدة أن أفصل نفسى عن كل وجهات النظر الخاطئة حول هذه النقطة، وأعلن بأمانة تامة أنه ليس لى ثمة مطمح حتى أبدو غريبا فيما أسوقه من أقوال، أو أن أبدو فى موقف صاحب الحق ضد الأغلبية. وإننى أكون سعيدا فقط إذا أمكننى أن أتفق مع رفاقى، كما أفعل فى هذه الحالة، وإن تساؤلاتى مع ذلك تتجه اتجاها آخر. وتدلنى ملاحظاتى الخاصة على أن الأرض حينما تروى، وتحرث تبعا للقواعد العلمية، فإنها تنبت الطعام، وإنها لتنبته فوق ذلك، بمثل تلك الجودة، وبتلك الوفرة، وتبعا لتلك الأساليب، وفى مثل تلك الأماكن، وفى تلك الأوقات التى ترجع كلها أو بعضها للقوانين التى أرسيت طبقا لمقتضيات العلم. إننى أوافق على ذلك كله، وإن تساؤلى، على الرغم من ذلك، هو ما يلى :

«من أين تأتى الأرض بذلك الطعام؟»، سؤال يدعى الناس عموما أنهم لا يفهمونه، وتعد أفضل الإجابات التى يمكن أن يجيبوا بها عليه هى ما يلى: «إن لم يكن لديك كفايتك من الطعام، فلسوف نعطيك بعضا مما لدينا»!، فلنتأمل الآن هذه الإجابة. إننى أعرف أنه ليس من بين خصال مملكة الكلاب أن يشارك الآخرون امرأ فى طعامه الذى اتفق له أن حصل عليه!، إن الحياة قاسية، والأرض عنيدة، والعلم غنى

بالافتراضات، لكنه فقير فى النتائج العملية. وكل من يمتلك طعاما يحتفظ به لنفسه، وليست هذه أنانية، بل إنها على العكس، قانون الكلاب!، القرار الذى أجمعت عليه الجماهير، والنتيجة التى نتجت عن انتصارهم على حب الذات، ذلك أن الملاك قلائل دائما، ولهذا السبب فإن الإجابة بـ «إذا لم تجد ما تأكله، فسوف نعطيك بعضا مما لدينا»، ما هى إلا صورة من صور التهكم! إننى لم أنس ذلك. بل إن شدة أهميتها كانت تبدو لى، عندما كنت أندفع فى كل مكان بتساؤلاتى خلال تلك الأيام، حين كانوا يتجاهلون تلك المزحة بنفس الإصرار الذى كنت أنا أتعلق به بتلك المزحة نفسها. حقا، إنهم لم يقدموا لى بالفعل شيئا لآكله - فأين كانوا قد حصلوا عليه حينئذ؟ -، وحتى لو كان قد تصادف أن امتلك أحدهم شيئا من الطعام، فإنه بالطبع كان سينسى فى سورة جوعه كل شىء آخر. إلا أنهم كانوا جميعا قد قصدوا بغاية الجدية ما كانوا قد قالوه، عندما كانوا قد تقدموا بالدعوة! وكان لى هنا وهناك بالفعل للحقيقة، أن أختطف حينذاك بعض الطعام القليل، لو أننى فقط كنت متمكنا بما يكفينى لكى أنجح فى اختطافه بغاية السرعة. فكيف حدث أن عاملنى الناس على ذلك النحو الغريب؟ ولماذا دللونى، ولماذا قدموا لى يد المساعدة؟ هل كان ذلك لأننى كنت كلبا بائسا، سىء التغذية، ومحروماً من كل الاحتياجات الضرورية؟، لكن يوجد ما لا حصر له من الكلاب سيّئ التغذية الذين يتجولون فى كل مكان، وإن هذه الكلاب الأخرى لتختطف حتى أقذر الفتات من تحت أنوفها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، لا بسبب الشراهة، بل بدافع الاضطرار والحاجة عموما!، لا، إنهم يعاملوننى برقة خاصة، وليس فى استطاعتى

أن أدلل على ذلك ببراهين مفصلة، إلا أن لدى اعتقادا ثابتا على أن الأمر كذلك. فهل كانت أسئلتي هي السبب إذن، وهل بعثت فيهم السرور؟ أو اعتبروها دليلا على ذكاء خارق؟. لا، إن أسئلتي لم تجلب لهم السرور، بل لقد كانت تبدو دائما على درجة من الغباء. لكن أسئلتي تلك، قد تكون تسببت رغم ذلك في لفت أنظارهم إلى. لقد بدا الأمر كما لو أنهم كانوا يفضلون أن يفعلوا المستحيل، ليسدوا فمي بالطعام - إنهم لم يفعلوا ذلك، إلا أنهم يتمنون لو يفعلوه - عن أن يحتملوا تساؤلاتي. لكن لعله كان من الأفضل لهم في تلك الحالة أن يطردوني بعيدا ويرفضوا الاستماع إلى تساؤلاتي. لكنهم لم يتمكنوا من أن يطردوني بعيداً لأنني كنت بالذات أثير التساؤلات. ولقد كانت تلك الفترة - التي قوبلت فيها بكثير من السخرية، وعوملت في أثنائها على أنني جرو سخيف، ودفعت هنا، ودفعت هناك - هي الفترة التي تمتعت فيها مع ذلك بالفعل بأكبر قدر من التقدير العام، ولن يتسنى لي أن أتمتع ثانية بشيء كهذا، فلقد كانت لي حرية دخول أي مكان، ولم تكن توضع في سبيلي أية عقبات، وكان يكال لي المديح بالفعل، رغم أن ذلك المديح كان يتخفى في ثوب من الوقاحة. وقد كان هذا كله في الحقيقة، بسبب تساؤلاتي، وبسبب تضجري، وبسبب تعطشي إلى المعرفة. فهل قصدوا أن يهدهدوني حتى أستنيم؟، أن يصرفوني بالتودد، ودونما عنف، عن طريق زائف، لكنه ليس بالغ الزيف إلى أقصى حد، ذلك لأن العنف كان ممكنا؟ ولعل تقديرا ما، وخوفاً أيضا قد حالا بينهم وبين استخدام العنف معي. ولقد كنت قد تكهنت في تلك الأيام بشيء من ذلك، لكنني الآن أدركه تماما، وأعرفه معرفة تفوق كثيرا

معرفة هؤلاء الذين استخدموا تلك الأساليب بالفعل فى ذلك الحين: فما كانوا يقصدونه كان فى الحقيقة، أن يصرفونى عن طريقى، لكنهم لم يفلحوا، بل لقد انتهوا إلى عكس ما تمنوا. فقد ازدادت حدة انتباهى. وأصبح واضحا لى، بالإضافة إلى ذلك، أننى كنت من يحاول إغواء الآخرين. وأننى كنت قد نجحت بالفعل إلى حد ما. ولقد أصبحت قادرا على فهم تساؤلاتى الشخصية فقط بمعونة عالم الكلاب كله. فمثلا، عندما تساءلت: «من أين جاءت الأرض بهذا الطعام؟» هل كنت مهموما بأمر الأرض؟، أو كنت منزعجا بشأن من يعملون فى الأرض؟ لا، مطلقا، فلقد كان ذلك كما أدركت من فورى، بعيدا كل البعيد عما يدور فى رأسى، وكان كل ما كنت مشغولا بأمره هو جنس الكلاب فقط، جنس الكلاب ولا شىء سواه. لأنه ماذا هناك بالفعل سوى جنسنا نحن؟ و.. لأى جنس آخر يلجأ المرء فى هذه الدنيا الواسعة الخاوية؟ إن المعرفة كلها، حصيلة كل التساؤلات والأجوبة عليها، إنما يتضمنها وجود الكلب! فلو أمكن للمرء أن يدرك هذه المعرفة، و.. لو أمكن للمرء أن يتفحصها فى ضوء النهار، ولو أننا نحن الكلاب نقر بأننا نعرف إلى حد أبعد مما نسمح به لأنفسنا. فحتى أكثر الكلاب ثرثرة هو أكثر الكلاب تكتما بشأن معرفته بالأماكن التى يمكن أن يوجد بها الطعام الجيد، وإنك لتقترب فى حذر من رفيقك الكلب، وأنت ترتعش بالرغبة، وتسوط نفسك بذيلك، وتسأل، وترجو، وتنبح، وتعقر، و.. تحقق - تحقق ما كان فى وسعك تماما أن تحققه دون أى مجهود: اهتمام وود، وصلة صداقة، وتوافق مخلص وتعانق حار، يجمع هذا الخليط فى كل واحد. إن كل شىء قد وجه فى اتجاه تحقيق متعة ما، مفقودة و.. مكتشفة مرة أخرى، إلا أن الشىء

الوحيد الذى تتوق إلى أن تناله قبل كل شىء آخر، هو التسليم بالمعرفة، ذلك التسليم الذى يظل أبدا ممتنعا عليك. على مثل تلك الصلوات سواء كانت مهموسة أو معلنة جهرا، يكون الرد الوحيد الذى تتلقاه، حتى بعد أن تكون قد استخدمت كل قواك على الإغراء إلى أقصى حدودها، حملقات فارغة، ونظرات زائغة، وعيون مضطربة مطرقة. إن هذا هو نفس ما خبرته، عندما هتفت، وأنا بعد مجرد جرو، إلى الكلاب الموسيقية و.. لزمت الصمت.

والآن قد يقول قائل : «إنك تزعج نفسك بسبب رفاقك الكلاب!، بسبب صمتهم أمام الأسئلة الحرجة!، و.. إنك لتزعم بأنهم يعرفون أكثر مما يسلمون به! يعرفون أكثر مما يتسنى لهم أن يعترفوا بصحته، و.. أن صمتهم ذاك، ذلك السبب السحرى الذى يرجع إليه أيضا، بالطبع، وجود السموم، فى سرية وتكتم، حتى أنك لا يمكنك أن تحتملها، و.. يتعين عليك لهذا إما أن تغيرها أو .. أن تقضى بسببها. ربما كان الأمر كذلك، إلا أنك كلب أنت نفسك، وإنك لتمتلك أيضا معرفة الكلاب، فلتعلنها، لا فى صيغة سؤال فحسب، بل فى صيغة رد! فلو نطقت به، فمن ذا الذى سيفكر فى معارضتك؟ إن جوقة الكلاب سوف تنضم إليك، كما لو أنها كانت تنتظرك، ثم إنك لتحوز الوضوح حينئذ، والصدق، والمجاهرة، كما يتمناها الكثيرون منهم مثلما تتمناها. ولسوف ينفتح سقف هذه الحياة الحقيرة، التى قلت عنها أمثال أقوالك القاسية تلك كلها! و.. سوف نرتقى جميعنا، قمة شعاع الحرية. ولو لم يقدر لنا بلوغ تلك الغاية النهائية، ولو بقيت الأشياء أسوأ مما كانت عليه من قبل، ولو أن الحقيقة الكاملة أصبحت أشد وطأة علينا من بعضها، و.. لو قدر

للصمت أن يثبت أنه كان إلى اليمين كباقى حراس الوجود، ولو أن الأمل الضعيف فى أننا مازلنا نمتلكه قد يمهد السبيل إلى اليأس التام، فإن التجربة مازالت تستحق المحاولة، طالما أنك لا ترغب فى أن تعيش على النحو الذى تجد نفسك مضطرا إلى أن تعيش عليه! حسنا، فلماذا إذن تلوم الآخرين لأنهم صامتون، بينما تظل صامتا أنت نفسك؟ تسهل الإجابة على ذلك: «لأننى كلب، محكوم على فى جوهرى بالصمت كالآخرين، أقاوم تساؤلاتى الشخصية فى عناد بسبب الخوف! وباختصار، هل كنت قد سألت رفاقى الكلاب، منذ سنوات نضجى على الأقل، على أمل أنهم قد يجيبون على تساؤلاتى؟ هل كان لدى مثل ذلك الأمل الأحمق؟ و.. هل يمكننى أن أتأمل أسس وجودنا، وأن أكتشف غموضها، وأن أرقب جهود بناء كل تلك الأسس، تلك الجهود الشاقة، ثم أتوقع أن تهمل تلك الجهود كلها، ولا تنتهى إلى تحقيق غايتها، لأننى ببساطة قد وجهت سؤالا؟ لا، ذلك ما لم أعد أنتظره فى الحقيقة! إننى أفهم رفاقى الكلاب، وإن لحمى من لحمهم، من لحمهم البائس، المتجدد دائما، الراغب دائما. إلا أنه ليس فقط اللحم والدم ما يوحدنا، لكن توحدنا المعرفة أيضا، وليست المعرفة فقط، بل المفتاح الموصل إليها كذلك. إننى لا أملك ذلك المفتاح، إلا بالاشتراك مع جميع الآخرين. ولا يمكننى أن أمتلكه دون مساعدتهم، وإن أصلب العظام التى تنطوى على أشهى النخاع، لا يمكن لها أن تتفتت سوى بقرض كل أنياب الكلاب متضامنة بأجمعها. هذا بالطبع، ليس سوى صورة من صور التعبير، وهى صورة مبالغ فيها، فلو كانت الأنياب جميعا فقط على أهبة الاستعداد، لما كان عليها حتى أن تعقر عقرة واحدة، ذلك أن العظام

ستتشقق عندئذ من نفسها، وسوف يصبح النخاع فى متناول أضعف كلب. ولو أننى بقيت مخلصا لذلك التشبيه، فإن غاية أهدافى حينئذ، وتساؤلاتى، وتحرياتى، تبدو شاذة!، ذلك حق، لأننى أريد أن أجبر كل الكلاب على ذلك، على أن يحتشدوا معا، وأننى أريد للعظام أن تتشقق، وتتسحق تحت ضغط ذلك الإعداد الجماعى، وحينئذ فإننى أريد أن أصرفهم إلى الحياة العادية التى يرتاحون إليها، وألعق فى تلك الأثناء كل النخاع وحدى فحسب، دون كل الآخرين! إن هذا ليبدو شاذا، كما لو كنت أريد أن أتغذى على النخاع، ليس نخاع عظمة ما فقط، بل نخاع كل جنس الكلاب نفسه، لكنه ليس سوى مجرى تشبيه. ذلك أن النخاع الذى أتحدث عنه هنا، ليس طعاما، بل على العكس، إنه سم.

إن تساؤلاتى قد قامت فقط بدور الحافز لى أنا نفسى. لقد أردت أن أتيح للصمت الذى يحيطنى بأن يستفزنى، باعتباره الرد النهائى. «إلى متى ستبقى قادرا على أن تحتمل حقيقة أن عالم الكلاب، كما أوضحت ذلك فى بحوثك المرة بعد الأخرى، مرهون بالصمت، وسيبقى مرهونا به؟ إلى متى ستبقى قادرا على أن تحتمل تلك الحقيقة؟». هذا هو سؤال حياتى الحقيقى الخطير، الذى تتضاءل أمامه كل الأسئلة الصغيرة، وإنه سؤال قد قام لى وحدى، ولا يهم أحدا غيرى. ويمكننى لسوء الحظ أن أجيب عليه فى سهولة لا تتوفر لى عندما تواجهنى الأسئلة الصغيرة، الواضحة، ولعلنى سأقاوم حتى نهاية حياتى، كما أن هدوء الشيخوخة سوف يقيم مقاومة أشد فأشد أمام كل الأسئلة المزعجة. ويبدو أننى سأموت بالفعل فى صمت، وسأحاط فى الواقع بالصمت، فى سلام على الأغلب، وإننى لأترقب ذلك فى هدوء. لقد رزقنا

نحن الكلاب قلبا قويا عجيبا، ورئات من المستحيل أن تهلك قبل أوانها، كما لو كانت كلها مجرد خدعة، فنحن نستبقى كل الأسئلة، حتى أسئلتنا الشخصية، ولسنا سوى حصون للصمت.

ولقد أخذت أخيرا على عاتقى أكثر فاكثر أن أتفحص حياتى، منقبا عن الغلطة الحاسمة الأساسية، التى لابد أننى دون ريب قد ارتكبتها، لأننى لو لم أكن قد ارتكبتها، وبقيت رغم ذلك غير قادر بالعمل الدوب، طوال حياة مديدة على أن أحقق رغبتى، فإن ذلك سيثبت أن رغبتى رغبة مستحيلة التحقيق. ولابد أن يتبع ذلك يأس مطبق. ولننظر بعد ذلك إلى جهود حياة بطولها. قبل كل شىء تقوم تحرياتى عن السؤال: «من أين تأتى الأرض بالغذاء الذى تمدنا به»، كجرو صغير، مفهوم فى أعماقه إلى الحياة، كنت قد نبذت كل المسرات، وتجنبت فى توجس كل المباهج، ودفنت رأسى بين مخلبى الأماميين، عندما كنت أواجه بالمغريات، وكنت أوجه جهدى كله نحو واجبى. لم أكن باحثا، ولا كانت لدى النية فى أن أكونه. وربما كان هذا خطأ، إلا أنه لا يمكنه أن يكون خطأ خطيرا. وكنت قد تلقيت تعليما بسيطا لأننى كنت قد تركت رعاية أمى فى سن مبكرة، وسرعان ما اعتدت على الاستقلال، وعشت حياة حرة، و.. إن الاستقلال السابق لأوانه ليضر بالتعليم النظامى، إلا أننى قد رأيت الكثير، واستمعت إلى الكثير، وتحدثت مع كلاب من كل الأنواع والأوضاع، وتفهمت كل شىء، وإننى لأدرك الأمور بذكاء لا بأس به، وأربط ملاحظاتى الغريبة بذكاء لا بأس به، ولقد عوضنى هذا عن نقص تعليمى، بصرف النظر عن ذلك الاستقلال الذى إذا كان نقيصة فى دراسة الأمور، فإنه ميزة فعلية إذا ما كان المرء لا يقوم

سوى بتحرياته الخاصة. ولقد كان ضروريا للغاية فى حالتى، بما أننى كنت عاجزا عن استخدام الأسلوب العلمى الحقيقى، لكى أستفيد من جهود أسلافى، وأن أنشىء علاقة بالبحوث المعاصرة. لقد كنت رافضا كلية لكل مصادرى، وبدأت من بداية البداية، وبالوعى الملهم للشباب، والمتعارض كلية مع العمر، الوعى بأن تلك النقطة العارضة التى من أجلها قمت بجهودى كلها، كان لابد لها أيضا أن تكون النقطة الأخيرة! فهل كنت حقا وحيدا إلى ذلك الحد فى تحرياتى، فى البداية، ومنذ ذلك الحين حتى الآن؟ نعم، ولا، فلا يمكن تصور أنه لا يجب دائما أن يكون هناك، وأنه ليس هناك اليوم كلاب فردية فى نفس حالتى، ولا يمكن أن تكون اللعنة قد لحقتنى إلى ذلك الحد. ذلك أننى لم أحد عن طبيعة الكلاب قيد شعرة، فلدى كل كلب ما يبعثه مثلى على التساؤل، وإلا فكيف أمكن لأسئلتى أن تضايق مستمعى أدنى مضايقة - ويجب على أن أعترف بأنهم كانوا غالبا يضيقون بها لسرورى المذهل، الزائد عن الحد -، وإلا فكيف أمكن تعطيلى عن تحقيق أكثر مما أمكننى تحقيقه بالفعل؟ كما أن كونى قد اضطررت إلى أن أبقى صامتا، أمر لا يحتاج لسوء الحظ إلى برهان خاص. إننى فى أعماقى إذن، لست مختلفا عن أى كلب آخر، عن كل كلب آخر، بصرف النظر عن احتمال اختلافه معى فى الرأى، أو حتى عن رفضه التام لوجهة نظرى، فلسوف يوافقنى على ذلك فى سرور. وسوف أوافق بدورى كأى كلب آخر. لكن ما يختلف هو فقط أسلوب تركيب العناصر، وإنه ليختلف فى حالة الفردى، اختلافا مهماً، ومتميزا بقياسه إلى الجنس. وكيف يمكن للمرء أن يثق بأن المركب المكون من تلك العناصر المتاحة لم يحدث أن

تصادف وجوده خلال الماضى كله، والحاضر، حتى ينتج عنه مركب شبيه بمركبى، والمرء، بالإضافة إلى ذلك، فيما لو نظر إلى مركبى على أنه سوء حظ، يعد سيء الحظ ما يزال؟ ولو اعتقدت فى ذلك، فسوف يكون اعتقادى نقيضا لخبرتى كلها. وإننا لمتعلقون نحن الكلاب بأغرب المهن، مهن، يرفض المرء أن يؤمن بها، لو لم تكن لدى المرء معظم التعليمات التى يركن إليها بخصوصها. وإن أفضل مثال يمكننى أن أقتبسه هو ذلك المثال عن الكلب المحلق. فعندما سمعت عن أحد هذه الكلاب، للمرة الأولى، ضحكت، ورفضت ببساطة أن أصدق! ماذا؟ لقد كان مطلوبا من المرء أن يصدق فى وجود أنواع ضئيلة من الكلاب، لم يكن الواحد منها ليزيد عن حجم رأسى، حتى ولو كان الكلب من ذلك النوع قد بلغ من النمو غايته!، و.. أن هذا الكلب الذى لابد سيكون مخلوقا ضعيفا، مرفها، هشا، مزينا، ممشطا، معقوص الشعر بمختلف الأشكال، عاجز عن أن يثب وثبة حقيقية، وأن الكلب من هذا النوع كان هو الكلب الوحيد المقدر له تبعا لحكايات الناس أن يبقى فى غالب الأحيان مرتفعا فى الهواء، لا يفعل فيما يبدو شيئا مطلقا، سوى مجرد الراحة هناك؟ قلت لنفسى لا، إن محاولتك أن تجعلنى أبتلع مثل هذه الأشياء إنما هو استغلال غاية فى الشناعة لبراعة كلب صغير. إلا أننى سمعت من مصدر آخر بعد ذلك بفترة قصيرة عن كلب محلق آخر. فهل يمكن أن يكون هناك مؤامرة لخداعى؟ لكن أتيح لى بعد ذلك أن أرى الكلاب الموسيقية بعينى رأسى، ومن يومها اقتنعت بإمكان وجود كل شيء، و.. لم تكن لدى حينذاك أية آراء متعصبة يمكنها أن تعوق قدراتى على التفكير، فلقد كنت قد تفحصت أكثر الإشاعات ضلالا،

متعقبا إياها إلى أقصى ما يمكنها أن تستدرجنى إليه، ولقد بدا لى وجود أكثر هذه الشائعات ضلالا فى هذا العالم غير المعقول، أكثر احتمالا من الأمور المعقولة، وقد بدت لى علاوة على ذلك جديرة بالبحث بصفة خاصة. وكذلك كان الأمر فيما يختص بالكلاب المحلقة هى أيضا. ولقد اكتشفت أشياء كثيرة جدا بشأنها، حقا إننى لم أفلح إلى اليوم فى رؤية واحد من تلك الكلاب، إلا أننى كنت مقتنعا لفترة طويلة، غاية الاقتناع بوجودها، ولقد كانت تحتل مكانا مهماً من تصورى للعالم. ولم يكن أسلوبهم فى الحياة بالطبع هو ما دفعنى إلى التفكير، كما جرت العادة. وإنه لأمر بالغ الروعة ـ منذا الذى يمكنه أن يخالف ذلك؟ ـ أن تلك الكلاب كانت قادرة على أن تحلق فى الفضاء، وإننى لمتفق فى إعجابى الحائر بذلك الأمر مع رفاقى الكلاب. إلا أن اللامعقولية، لا معقولية وجودهم ذاك، هى ما كانت أشد الأمور غرابة فى تقديرى. فلم تكن تربطهم أية صلة مطلقا بحياة المجتمع العامة، فقط كانوا يحلقون فى الفضاء، وكان هذا هو كل ما فى الأمر، بينما كانت الحياة تسير فى طريقها المعتاد، وأحيانا ما كان يلمّح امرؤ بين الحين والآخر إلى الفن والفنانين، إلا أن كل شىء كان ينتهى عند هذا الحد. لكن لماذا أيها الكلاب الطيبون؟ لماذا بحق الجحيم تحلق تلك الكلاب عاليا فى السماء؟ وما هو الهدف الذى يكمن خلف سلوكهم ذاك؟ ولماذا لا يتمكن المرء من العثور على كلمة واحدة لتفسير وضعهم؟ لماذا يحلقون هنالك فى أعلى، مطوحين بسيقانهم التى هى فخر عالم الكلاب، إلى زوايا الإهمال، محتفظين من الأرض المعطاءة بسبب، حاصدين دون أن يبذروا؟ متمتعين على وجه الخصوص بكفايتهم، على

حسب ما بلغني، وعلى حساب مجتمع الكلاب أيضا. يمكنني أن أزهو بنفسي زعماً بأن تحركاتي عن كل تلك الأشياء قد أسفرت عن شيء من النشاط. وانشغل الناس بالبحث انسياقا مع الموضة، عن الحقيقة، ولقد كانوا على الأقل قد بدأوا على الرغم من أنهم لم يكونوا فيما يبدو ليذهبوا إلى أبعد من تلك البداية. إلا أن ذلك كان في نهاية الأمر شيء خيراً من لا شيء. ورغم أن الحقيقة لم تكن لتكتشف بمثل تلك الوسائل - ولا كان ممكنا حتى بلوغ تلك المرحلة - إلا أن تلك الوسائل قد ألقت بعضا من الضوء على عدد من جذور الزيف الأبعد غورا. ذلك أن أشد ظواهر وجودنا لا معقولية، والظاهرة التي تفوق لامعقوليتها كل ما عداها، إنما هي حساسية البحث. لا حساسيته التامة بالطبع - وتلك هي الخدعة الجهنمية -، لكن حساسيته الكافية لكي تجنب المرء مشقة التساؤلات المؤلمة. ولتأخذ الكلاب المحلقة مرة أخرى كمثال، فهم غير مترفعين كما يمكن للمرء أن يتصور ذلك للوهلة الأولى، بل يعتمدون على نحو ما على رفاقهم الكلاب بصفة خاصة. ولسوف يدرك المرء ذلك، لو أنه حاول أن يضع نفسه في مكانهم، ذلك أنهم مضطرون إلى أن يبذلوا كل ما في وسعهم لكي يلتمسوا لأنفسهم الأعذار، بطريقة غير مباشرة - وسوف يعد ذلك انتهاكا لطلب التزام الصمت - فلابد لهم أن يبذلوا كل ما في وسعهم لالتماس العذر لأسلوبهم في الحياة، أو لصرف الأنظار بعيدا عنه، حتى يمكن نسيانه - هذا هو ما يفعلونه، كما بلغني، بأساليب متحذلقة لا يمكن احتمالها في أغلب الأحيان. إنهم يتحدثون على الدوام، حينا، عن تأملاتهم الفلسفية، التي يمكنهم، وقد رفضوا كلية الإجهاد الجسماني، أن

يشغلوا بها أنفسهم على الدوام، وحينا عن الملاحظات التى أمكنهم أن يقوموا بها من مراكزهم الرفيعة، مع أنهم غير معدودين باعتبارهم قوة ثقافية، كما يتضح جيدا من النظر إلى وجودهم الكسول، ومع أن فلسفتهم لا قيمة لها كملاحظاتهم، و.. أن العالم لا يمكنه غالبا أن يفيد من ثرثرتهم، وأنه بالإضافية إلى ذلك غير ملزم بأن يستعين بمثل تلك المصادر الوضيعة، بصرف النظر عما قد يتلقاه المرء دائما كإجابة، لو أنه تساءل عما تقوم بعمله تلك الكلاب بالفعل، من أنهم يسهمون مساهمة كبيرة فى المعرفة. وقد يلاحظ امرؤ قائلا : «هذا حق، إلا أن مساهمتهم لا طائل من ورائها، كما أنها مرهقة!»، وستكون الإجابة على ذلك، هزة من الكتفين، أو تغيير الموضوع، أو تبرما، أو ضحكة، وبعد فترة قصيرة، لو أنك تساءلت ثانية فستعرف مرة أخرى أنهم يسهمون فى المعرفة، وعندما يوجه إليك السؤال نفسه فى النهاية، فسوف تجيب أنت نفسك، إن لم تكن حريصا، نفس الإجابة!.

وربما يكون من المستحسن حقا، ألا تكون عنيدا إلى ذلك الحد، وأن تنزل على رأى الأغلبية، وأن تتقبل وجود الكلاب المحلقة، دون أن تتبين حقهم فى الوجود، الذى لن يسعك أن تتبينه، إلا أنك ستتساهل معهم. لكن لا يجب أن يطلب منك أكثر من ذلك، ذلك أنه سيكون شططا كبيرا، ومع ذلك فقد أعلن الطلب! ولقد طلب منا دائما أن نحتمل الكلاب الجديدة المحلقة التى كانت تظهر دائما. ولم يكن المرء ليدرى حتى من أين كانوا يأتون. فهل تتضاعف هذه الكلاب بالتكاثر؟ وهل لديهم حقا المقدرة على ذلك؟ ذلك أنهم لم يكونوا أبدا سوى فروة من الشعر، و.. ماذا هناك فى تلك الفروة حتى يمكنها أن تتكاثر؟ لكن حتى لو كانت

تلك الملامسة غير المعقولة، ممكنة الحدوث، فمتى حدثت؟ ذلك أنهم كانوا يشاهدون دائما متوحدين، يحلقون عاليا فى الهواء فى همة ذاتية، ولو قدر لهم أن هبطوا ذات مرة، فى وقت من الأوقات، ليسيروا قليلا، فإن ذلك لم يكن ليستمر سوى دقيقة أو دقيقتين، خطرات قليلة مزهوة، ثم بعدها يعودون ثانية إلى الوحدة التامة، مستغرقين فيما يقال إنه أفكار عميقة، لا يمكنهم أن يخلصوا أنفسهم منها حتى ولو أجهدوا أنفسهم إلى أقصى حد فى محاولة الخلاص من أفكارهم تلك، أو.. أن هذا هو على الأقل ما يقولونه هم. لكن لو أنهم لم يكونوا ليتكاثروا، فهل من المعقول وجود كلاب يمكنها أن تهجر الحياة طوعا فوق الأرض الصلبة، وتصبح كلابا محلقة عن طيب خاطر، وليس سوى من أجل الرضا عن النفس، وتحقيق نوع من الإنجاز الذى يتصف بالمهارة، تختار تلك الحياة الفارغة فوق الوسائد هنالك فى أعلى؟ إنها لحماقة، فليس التكاثر معقولا، لا هو ولا التحول الاختيارى، ومع ذلك فإن الحقائق توضح أن هناك دائما كلابا جديدة محلقة مشهودة، وعلى المرء لذلك أن يستنتج أنه على الرغم من العقبات التى تبدو وكأنها لا يمكن أن تذلل بالنسبة لإدراكنا، فإن جنسا من أجناس الكلاب لا يمكنه أن ينقرض مهما كان متطفلا، ما دام قد وجد ذات مرة، أو أنه لا يمكنه على الأقل أن ينقرض دون صراع رهيب، ودون أن يتمكن من أن يحقق لنفسه دفاعا فعالا ينجح فى أن يثبت طويلا.

فلو كان ذلك صحيحا بالنسبة لمثل تلك الأجناس الطارئة، شديدة الغرابة، العاجزة، كجنس الكلاب المحلقة، فهل ترانى غير مجبر على قبوله باعتباره صحيحا فيما يتعلق بحالتى؟ وبالإضافة إلى ذلك، فلست

أبدو غريب الأطوار مطلقا، بل كلبا عاديا من الطبقة المتوسطة، مثلى مثل معظم الكلاب التى تنتشر هنا على الأقل، ولست مستثنى بصفة خاصة، بأى حال من الأحوال، كما أننى لست منفرا كذلك مطلقا، ففى شبابى، وفى مرحلة بلوغى أيضا إلى حد ما، كنت على قدر ما أتيح لى أن أتجول، وأن أحصل على قدر من التجارب، معدودا باعتبارى كلباً غاية فى الوسامة. فلقد كان منظرى من الأمام بديعا على نحو خاص، وكانت سيقانى الرشيقة، وتكوين رأسى الرائع، وفروتى الفضية البيضاء، والصفراء، التى كانت تتلوى فقط عند أطراف الشعر، كلها كانت تبعث كذلك على السرور، .. فى ذلك كله لم يكن هنالك ثمة ما هو غريب، كان الشىء الغريب الوحيد هو طبيعتى، لكن حتى ذلك، وهو ما أحرص دائما على أن أذكره، كان له أساسه فى طبيعة عالم الكلاب. والآن فلو لم تكن حتى الكلاب المحلقة فى وحدة، بل أمكنها أن تواجه دوما رفقاءها فى مكان أو آخر من عالم الكلاب، وأن تلتمس من العدم أجيالا من جلدتها، فإننى أيضا يمكننى إذن أن أعيش مقتنعا بأننى لست منبوذا تماما. ولا شك أن مصير أمثالى من الكلاب لابد أن يكون مصيرا غريبا، وأن وجود زملائى لا يمكنه أن يكون ذا عون ملحوظ لى لغير سبب آخر سوى أننى سوف لا أتمكن من أن أميزهم عن سواهم. إننا نحن الكلاب الذين سحقهم الصمت، والذين يتوقون إلى أن يتخطوه، فقط من أجل أن نحصل على شىء من الهواء النقى، ويبدو الآخرون وكأنهم قد نجحوا فى أن يتغلبوا على الصمت، حقا، إنهم يبدون كذلك فقط فى ظاهرهم، كما فى حالة الكلاب الموسيقية، الذين كانوا هادئين تماما فى ظاهرهم عندما قاموا بعرض لعبتهم، لكنهم كانوا فى

الحقيقة فى حالة من التأثر الشديد، وبصرف النظر عن أن التوهم كان غاية فى القوة، فلقد حاول المرء أن يتخطى ذلك التوهم، لكنه سخر من كل محاولة. فأية معونة إذن تلك الذى وجدها زملائى؟ وما هو نوع تلك المحاولات التى قاموا بها حتى يمكنهم أن يستمروا فى مواصلة الحياة على الرغم من كل شىء؟ من الممكن أن تكون لتلك المحاولات أنواع عدة. ولقد كانت دوامة تساؤلاتى الخاصة عندما كنت صغيرا واحدة من تلك الأنواع. وعلى هذا فقد فكرت فى أننى ربما لو كنت قد اشتركت مع هؤلاء الذين تساءلوا كثيرا من التساؤلات، فلعلنى أن أكون قد عثرت فيهم على رفاقى. حسنا، لقد فعلت ذلك لبعض الوقت، بغاية ضبط النفس، ضبط النفس الذى قام بالضرورة تبعا للضيق الذى أحسسته عندما أزعجت بالأسئلة المتواصلة التى لم أكن أتمكن على الأغلب من أن أجيب عليها فيما بينى وبين نفسى: ذلك أن الشىء الوحيد الذى كان يهمنى هو أن أجد الإجابات. وعلاوة على ذلك، فمن ذا الذى لا يشوقه أن يوجه الأسئلة عندما يكون صغيرا، وكيف يمكنك عندما تثار مثل تلك الأسئلة كلها أن تستخلص من بينها الأسئلة الصحيحة، ويبدو كل سؤال شبيها بالآخر، والمهم هو القصد، إلا أن ذلك القصد غالبا ما يكون مستغلقا حتى على من يوجه السؤال نفسه. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الغريب فى أمر الكلاب أن يكونوا متوجهين دائما بالأسئلة، وإنهم ليوجهونها جميعا لبعضهم البعض فى انفعال، وإنهم ليبدون وهم يفعلون ذلك، كما لو كانوا يحاولون أن يطمسوا كل أثر للأسئلة الحقيقية! لا، إن زملائى الحقيقيين لم يكونوا ليتواجدوا ضمن المتسائلين الشبان، كما أنهم قليلا ما يتواجدون بين المسنين

والصامتين، فإلى من أنتمى الآن؟، لكن يالها من أسئلة قيمة جميعها، لأنها كانت قد غابت عني تماما، ويبدو أن زملائى كانوا كلابا أكثر منى مهارة، ولديهم ما يلتجئون إليه من وسائل أخرى رائعة تعينهم على احتمال هذه الحياة، وسائل، مع أنهم كانوا كما يمكننى أن أقول استنادا إلى خبرتى الخاصة، يصبرون على آلامها، وهى لهذا قد تهدؤهم، وقد تساعدهم على الراحة، وقد تصيبهم بالذهول، إلا أنها رغم ذلك عاجزة على كل حال كوسائلى، لأننى أينما وجهت أنظارى فإننى لا أرى أى دليل على نجاحها. وإننى لأخشى أن يكون الشىء الأخير الذى آمل فى أن أميز زملائى الحقيقيين عن طريقه هو نجاح وسائلهم. لكن، أين إذن هم زملائى الحقيقيون؟ نعم، هذا هو سبب شكواى، وهذا هو لبه. أين هم؟ فى كل مكان؟ وليس فى أى مكان. ربما كان جارى الملاصق الذى لا يبعد عنى سوى ثلاث قفزات فقط، واحدا منهم، فقد تبادلنا النباح معا فى أغلب الأحيان، وقد دعانى أحيانا أيضا، مع أننى لم أدعه، فهل هو زميلى الحقيقى؟ لست أدرى، وإننى لم ألحظ أى دليل على ذلك فيه بالتأكيد، إلا أن ذلك ممكن! إن ذلك ممكن، لكنه فى الوقت نفسه احتمال أبعد من أى شىء آخر سواه. ويمكننى أن أسلى نفسى فى غيابه مستغرقا فى خيالاتى باكتشاف أشياء عديدة فيه، يتفق تشابهها بمثيلاتها عندى على نحو مريب، لكنه ما إن يقف أمامى فى كل مرة حتى تتضح سخافة خيالاتى كلها، وثمة كلب عجوز، أصغر قليلا حتى منى أنا نفسى - وأنا، تجاوزا، متوسط الحجم - بنى اللون، قصير الشعر، رقبته مدلاة فى إرهاق، ذو مشية مضطربة، ويجرجر فوق هذا كله ساقه الخلفية اليسرى خلفه قليلا بتأثير مرض ما. ولقد أصبحت

الآن، منذ فترة طويلة، متآلفا معه غاية الألفة، تآلفت معه أكثر مما تآلفت مع أى كائن آخر. إننى لسعيد وأنا أقول إن فى إمكانى أن أبقى - بمشقة - على علاقة طيبة به، وعندما يبتعد، فإننى أرفع صوتى خلفه بتحيات الصداقة الزائدة، لا بدافع الود، لكن على الرغم منى، لأننى لو تبعته فسأجده مقرفا كما كان. متسحبا إلى الأمام هنالك بساقه المجرجرة، وبمؤخرته شديدة التباطؤ. وأحيانا ما يبدو لى وكأننى أحاول أن أحقر نفسى عندما أعتبره بينى وبين نفسى زميلى. كما أنه لم يكن ينم فى حديثه عن أى أثر للتشابه فى التفكير، حقا، إنه ماهر، ومثقف بدرجة كافية، بالنسبة إلى الحال هنا، ويمكننى أن أتعلم منه الكثير، لكن هل المهارة والثقافة هى ما أتطلع إليه؟ كنا نتناقش عادة حول التساؤلات المحلية، وإنه ليدهشنى - ولقد جعلتنى وحدتى أكثر وضوحا فى رؤية مثل هذه الأمور - مدى الذكاء الذى قد يحتاجه حتى الكلب العادى، وفى الظروف العادية، وليس فى الظروف المعاكسة، إذا تعين عليه أن يعيش حياته، وأن يدافع عن نفسه ضد أخطار الحياة المألوفة. حقا، إن المعرفة تقدم القواعد التى يجب على المرء أن يتبعها، إلا أن مجرد إدراك تلك القواعد بصورة غير تامة، وفى إطارها الخارجى لا يعد أمرا ميسورا بحال من الأحوال، وحتى لم تمكن المرء بالفعل من إدراكها فإن الصعوبة الحقيقية تظل ماثلة، وهى بالتحديد تطبيق تلك القواعد على الحالات المحلية، هنا لا يتسنى لأحد على الأغلب أن يتقدم بالمعونة، وغالبا ما تأتى كل ساعة من الزمن بالجديد من الأعباء، وتأتى كل بقعة من الأرض بمشاكلها الخاصة، ولا يتسنى لأحد أن يزعم بأنه قد أقر كل شىء على أحسن وجه، وأن حياته

ستطرد من الآن فصاعدا فى طريقها، ولنقل، من تلقاء نفسها، حتى ولا أنا نفسى، مع أن احتياجاتى تتقلص بالفعل من يوم إلى يوم. وكل ذلك العمل الذى لا يتوقف - إلى أى غاية؟ لمجرد أن يدفن المرء نفسه أعمق فأعمق، فى الصمت، ذلك الصمت الذى يبدو عميقا إلى حد يستحيل معه على المرء أن يخرج منه ثانية مهما كانت المعونة التى قد يتلقاها من الغير.

إن الناس يهللون غالبا للتقدم العام الذى حققه مجتمع الكلاب عبر الأجيال، وربما قصدوا بذلك على الأغلب التقدم فى المعرفة خاصة. لا شك أن المعرفة، وأن تقدمها لا يقاوم، وإنها لتتقدم بالفعل بسرعة متزايدة، دائما أسرع، لكن ماذا هنالك فى تقدمها ذاك حتى نمجده؟ إنه يبدو كما لو أن المرء يمجد شخصا ما لأنه مع مرور الأعوام يتقدم فى العمر، ونتيجة لذلك يقترب أكثر فأكثر من الموت بسرعة متزايدة. ليست هذه المسألة سوى عملية طبيعية، وقبيحة علاوة على ذلك، ولا أجد فيها شيئا لأمجده. يمكننى فقط أن أجد انهيارا فى كل مكان، وفى قولى هذا مع ذلك، لا أعنى أن الأجيال التى سبقتنا كانت فى جوهرها أفضل من أجيالنا، لكن كانت فقط أصغر، ولقد كانت تلك الصفة هى ميزتها العظمى. لم تكن ذاكرتهم مرهقة بأحمالها إلى هذا الحد الذى أرهقت به ذاكرتنا اليوم، ولقد كان حملهم على الكلام أمرا أكثر سهولة، وعلى الرغم من أن أحدا لم ينجح بالفعل فى أن يفعل ذلك، فإن احتمال إمكان حدوثه كان أكبر. وإن هذا الإحساس بعظم الاحتمال هو حقا ما يدفعنا بهذا العمق عندما نستمع إلى تلك الحكايات القديمة، الغريبة فى بساطتها. وإننا لنلتقط هنا وهناك جملة رائعة إلى حد يثير

الفضول، ونود غالبا لو قفزنا عند سماعنا لها على أقدامنا، لولا شعورنا بثقل القرون فوق كواهلنا. لا، مهما كانت الاعتراضات التى قد تواجهنى نظرا إلى سنى، فإن الأجيال السابقة لم تكن أفضل. بل لقد كانوا فى الحقيقة بمعنى ما أشد سوءا، وأبعد ضعفا. وحتى فى تلك الأيام لم يكن المستنكرون يسيرون صراحة فى الشوارع لكى يقبضوا على أى كائن، إلا أن الكلاب مع ذلك ـ وليس فى إمكانى أن أعلن ذلك بأى طريقة أخرى ـ لم يكونوا بعد قد أصبحوا كلبيين إلى هذا الحد الذى أصبحوا عليه اليوم، كان صرح الكلبية لم يزل مفككا بعضه من بعض. وكانت الكلمة الحقة ما تزال من الممكن أن تخترع، مخططة أو معيدة تخطيط البناء. مغيرة إياه عن إرادة، محولة إياه إلى عكسه، ولقد كانت (الكلمة) هناك، أو .. أنها كانت قريبة غاية القرب على الأقل، أو على طرف لسان كل امرىء، وكان فى وسع أى امرىء أن يتفوه بها. فماذا أصبح مصيرها اليوم؟ اليوم ربما أمكن للمرء أن ينتزع قلب أى شخص فلا يجدها. إن جيلنا ضائع، فلعله أن يكون كذلك، إلا أن اللوم لا يقع عليه أكثر مما قد يقع على تلك الأجيال السابقة. ويمكننى أن أدرك التردد الذى يطبع جيلى، حقا إنه لم يعد بعد مجرد تردد، إنه النسيان الألف، للحلم الذى تراءى ألف مرة، وتم نسيانه ألف مرة!، و.. من ذا الذى يسعه أن يلعننا، فقط لمجرد نسياننا للمرة الألف؟ إلا أننى أظن أننى أفهم التردد الذى طبع أجدادنا هم أيضا، فلعلنا أن نكون قد سلكنا تماما كما سلكوا، ويمكننى حقا أن أقول: طوبى لنا أننا لم نكن لنلام وحدنا بذنبنا، وأنه يمكننا بدلا من ذلك أن نسرع على الأغلب فى صمت غير مذنب نحو الموت، فى عالم سوّده

الآخرون!، ولا شك أن آباءنا الأولين عندما أخطأوا، لم يكونوا قد توهموا على الأغلب أدنى وهم بأن خطأهم ذاك كان خطأ لا نهاية له. فلقد كان ما يزال في وسعهم أن يروا بالفعل مفترق الطرق. ولقد كان يبدو سهلا أن يتراجعوا متى شاءوا ذلك، فإذا كانوا قد ترددوا فى التراجع، فلقد كان ذلك فقط لأنهم رغبوا فى أن يتمتعوا بحياة الكلاب لفترة قصيرة أخرى. إن حياتهم لم تكن بعد قد أصبحت حياة الكلب الحقيقية، إلا أنها بدت وقتها فى أعينهم حياة جميلة ساحرة الصورة، فماذا يمكنها أن تكون غير ذلك، لفترة قصيرة، فترة قصيرة جدا، وعلى هذا فقد انساقوا فى خطئهم إلى أبعد. إنهم لم يدركوا ما الذى كان يسعنا أن نظنه الآن متأملين مجرى التاريخ؛ بأن ذلك التغير قد بدأ فى الروح قبل أن يتبدى فى وجوده الملموس، وأنهم عندما بدأوا يستمتعون بحياة الكلاب، فلابد أنهم كانوا قد تملكوا وقتها أرواح كلاب قديمة حقيقية، وكانوا بالمناسبة قريبين مازالوا غاية القرب من نقطة بدايتهم كما حسبوا، أو أن أعينهم وهى تتمتع بكل مسرات الحياة الكلبية حاولت أن تغويهم. لكن من ذا الذى يسعه أن يتحدث عن الشباب فى ذلك الوقت من التاريخ؟ لقد كان هؤلاء هم الكلاب الشبان الحقيقيون، إلا أن طموحهم الوحيد كان لسوء الحظ أن يصبحوا كلابا مسنة، شىء لم يكن يمكنهم حقا أن يفشلوا فى بلوغه، كما توضح لنا ذلك كل الأجيال الناجحة، وأجيالنا الأخيرة أكثر وضوحا فى إثبات ذلك من كل ما عداها.

إننى لم أتحدث بالطبع مع جارى فى مثل هذه الأمور، إلا أننى لا أستطيع التفكير فيها غالبا إلا إذا كنت جالسا فى مواجهته ـ ذلك

الكلب العجوز شائع النوع، أو حينما كنت أدفن أنفى فى فروته، التى كان لها حينذاك رائحة الأشياء المخزونة المهملة. وأن أتحدث إليه، أو حتى إلى أى من الآخرين عن مثل هذه الأمور، سوف يكون جهدا عقيما. كما أننى أعرف أى اتجاه سيتخذه النقاش. فلسوف يثير عديدا من الاعتراضات السخيفة من حين لآخر، لكنه أخيرا سوف يوافق - إن الموافقة هى أفضل أسلحة الدفاع -، و.. سوف يدفن الأمر فى النهاية: فلماذا حقا نشق على أنفسنا بنبش أمثال تلك الأمور مطلقا؟.

وعلى الرغم من هذا، فثمة تفاهم عميق بينى وبين جارى. وإنه ليزداد عمقا عن مجرد الكلمات، وسوف لا أتوانى عن التمسك بذلك، رغم أننى لا أملك أى دليل على وجوده. وربما لا يكون ثمة تفاهم مطلقا قد قام بينى وبينه، وإنما كانت هناك فقط معاناتى من وهم شائع، ينبع من حقيقة أن ذلك الكلب كان لمدة طويلة هو الكلب الوحيد الذى قامت بينى وبينه صلة ما، وعلى هذا فإننى مضطر إلى التعلق به: «هل أنت بعد كل شىء زميلى على طريقتك الخاصة؟ وأنك خجلان لأنك قد فشلت فى تحقيق كل شىء؟ انظر، إن مصيرك نفسه هو مصيرى، وإننى عندما أكون وحيدا، فإننى أبكى على ذلك، فتعال، فلعله أن يكون من الأفضل لنا أن نبكى جماعة!». إن أفكارا كهذه غالبا ما تنتابنى، ومن ثم فإننى أنظر إليه نظرة متصلة، إلا أنه لا يطرق بنظراته إلى أسفل، ومع ذلك فلا يسع أحدا أن يقرأ فيها أى شىء، إنه يحملق فى بغباء، متعجبا.. لماذا أنا صامت، ولماذا قطعت المناقشة؟ لكن لعل تلك النظرة نفسها أن تكون هى طريقته فى مساءلتى، و.. أننى قد خيبت أمله، تماما كما خيب أملى. ولو لم أكن فى أثناء شبابى مهموما بمشكلات

أخرى أكثر أهمية بالنسبة لى حينذاك، ولو لم أكن راضيا تماما بصحبتي الخاصة، فلعلني كنت قد سألته حينذاك صراحة من فورى، وتلقيت جوابا يريحنى تماما، ولو حدث هذا لكانت النتيجة أشد سوءا حتى من صمت اليوم. لكن أليس كل امرىء صامتاً تماما على نفس النحو؟ فماذا هناك ليمنعني من أن أعتقد أن كل كائن هو زميل لى بدلا من أن أفكر فى أن لى فقط واحدا أو اثنين من الزملاء المتسائلين- ضائعين تماما، ومنسيين بإنجازاتهم الضئيلة، حتى أنه لن يتسنى لى أبدا أن أعثر عليهما عن أى طريق خلال ظلام العصور، أو تشوش أضواء الحاضر: ولماذا لا أقتنع بأن كل الكلاب منذ بدء التاريخ كانوا زملائي، وأنهم كانوا جميعا ماضين فى طرقهم الخاصة، وكانوا فاشلين جميعا في طرقهم الخاصة، و.. أنهم كانوا جميعا صامتين، أو مثرثرين فى زيف على طرائقهم الخاصة، كما يجدر بالبحث اليائس إلى أن ينتهي إلى مثل تلك النهاية؟ لكننى فى تلك الحالة، فى غير حاجة إلى أن أفصل نفسى مطلقا عن رفقائي، ويمكننى أن أبقى فى هدوء وسط الآخرين، وفى غير حاجة إلى أن أجاهد لأشق طريقا لنفسى كطفل عنيد خلال مراتب الكبار المغلقة عليهم، هؤلاء الكبار الذين يريدون حقا مثلما أريد أن يجدوا لأنفسهم مخرجا، والذين يبدو وجودهم مستغلقا على، فقط بسبب معرفتهم، التى تنبئهم بأن أحدا لا يمكنه أن يفلت، وأنه من الغباء اللجوء إلى القوة.

مثل تلك الأفكار راجعة بالتحديد، مع ذلك، إلى تأثير جارى، فهو يثيرنى، ويملؤنى بالكآبة، لكنه فى قرارة نفسه سعيد إلى حد كاف، فغالبا ما أسمعه على الأقل عندما يتواجد فى نفس الأماكن التى نشأ

فيها، يتصايح ويغنى، وذلك ما لا يمكننى احتمالِه فى الحقيقة. وإنه من الخير لى أن أنبذ ذلك القيد الأخير أيضا، وأن أتوقف عن السماح للأحلام المبهمة التى تتعلق جميعا بالكلاب التى تسخطنى على نحو لا يمكن تجنبه، ولا يهم مدى التشدد الذى قد يتصف به المرء، وأن أنفق الوقت القصير الذى ما يزال يتبقى أمامى كلية فى متابعة أبحاثى. ولسوف أنفلت مبتعدا عندما يجىء فى المرة القادمة، أو أتظاهر بأننى مستغرق فى النوم، وأبقى متصنعا ذلك التظاهر حتى ينهى زيارته لى.

ولقد أصبحت أبحاثى متقطعة هى أيضا، لقد استرخيت، وأصابنى الإنهاك، وإننى لأخب بطريقة تلقائية إلى حيث ركضت جريا ذات مرة فى حماس، متفكرا فى الفترة التى بدأت فيها التحرى عن إجابة السؤال: «من أين تأتى التربة بذلك الطعام؟» ثم عشت بالفعل، فى الحقيقة وسط الناس، وشققت طريقى حيث تكاثفت الحشود، راغبا أن ترى الجموع عملى، وأن يكونوا شهودى، ولقد كان شهود عملى هؤلاء أكثر أهمية فى نظرى حتى من عملى نفسه، ومازلت أتوقع أن أحدث أثرا أو آخر، ولقد زودنى هذا بالطبع بالدافع الهائل، الذى تبدد الآن لكونى وحيدا، إلا أننى كنت مفعما بالقوة فى تلك الأيام إلى أقصى حد، حتى أننى حققت شيئا لم يسبق له مثيل، شيئا مخالفا لكل قوانيننا، وإن كل شاهد عيان معاصر ليتذكره الآن باعتباره مهارة غير كلبية. وإن معرفتنا العلمية التى تهدف عموما إلى أقصى درجات التخصص، هى بدرجة ملحوظة، بدائية فى أحد وجوهها. وأقصد حيث تعلمنا أن الأرض تتمخض عن طعامنا. وأن معرفتنا العلمية حينئذ، بعد

أن طرحت هذه النظرية، وفرت السبل التى يمكننا بواسطتها أن نحصل على أغذيتنا الأخرى المختلفة فى أفضل صورها، وأكثرها وفرة.

والآن فإن الأرض بالطبع تخرج حقيقة كل الأغذية، عن هذا لا يمكن أن يقوم أدنى شك : إلا أن الأمر ليس بمثل ما يتصوره الناس عموما، وإن اعتقادهم بأنها مسألة بسيطة، يعوق التحرى عما هو أبعد من ذلك الحد. ولتأخذ مثلا، الحدث العادى الذى يقع كل يوم، فلو قدر لنا أن نكون متكاسلين غاية التكاسل، كما هى حالتى الآن تماما، وبعد حرث الأرض وريها بلا اكتراث، نستلقى أرضا وننتظر ما عساه قد يحدث، فلابد لنا حينئذ من أن نجد الطعام فوق سطح الأرض، على زعم أن ذلك الأمر هو نتيجة لا مفر منها. بصرف النظر عن أن ذلك ليس هو ما يحدث دائما. وإن من يتمتعون ولو بقدر ضئيل من نزاهة الحكم على الظواهر العلمية ـ وإن أعدادهم محدودة فى الحقيقة، لأن العلم يجتذب حوله دوائر أوسع فأوسع ـ سوف يرون فى وضوح، دون أن يتعين عليهم أن يقوموا بأى تجربة خاصة، أن الجزء الأساسى من الطعام الذى وجد فوق سطح التربة فى مثل تلك الحالات، إنما يأتى من أعلى، وإننا لنختطف حقا معظم طعامنا فى العادة تبعا لحيلتنا ومهارتنا، قبل أن يتاح له مطلقا أن يبلغ الأرض. ولست أقول شيئا مع ذلك ضد العلم، عندما أقول هذا القول، ذلك أن الأرض بالطبع تخرج ذلك النوع من الطعام أيضا. وسواء أخرجت الأرض من جوفها نوعا من الطعام، أو استنزلت طعاما آخر من السموات، فربما لا يحدث ذلك تغييرا جوهريا فى الأمر، ولعل العلم، الذى قرر، فى كلتا الحالتين، ضرورة إعداد التربة ألا يكون بحاجة إلى الالتفات إلى مثل تلك

الاختلافات، ذلك أنه لم يقل بـ : «إنك لو كنت قد امتلكت طعاما بين مخلبيك، فإنك تكون قد وجدت حلا لكل التساؤلات، طالما دام ذلك!»، إلا أنه يبدو لى أن العلم رغم ذلك يعير اهتماما متسترا، إلى حد ما على الأقل، لمثل هذه الأمور، بما أنه يبرز طريقتين أساسيتين لتدبير الغذاء، أولاهما الإعداد الفعلى للتربة، وثانيا الوسائل المساعدة المتممة عن طريق السحر والرقص والأغانى. وأجد هنا خلافا بالنسبة للرأى الذى سقته أنا نفسى؛ ولعله ألا يكون اختلافا صريحا، إلا أنه واضح إلى حد كاف. وإن حرث التربة وريها، فى رأيى، يفيد فى إنتاج كلا النوعين من الطعام، وتبقى ضرورة الرقى، والرقص، والأغانى مع ذلك، أقل ارتباطا بالغذاء الأرضى فى أضيق معانيه، لكن تفيد أساسا فى اجتذاب الغذاء من أعلى. وإن التراث ليسندنى فى ذلك التفسير. وإن الكلاب العادية نفسها قد استخدمت العلم فى هذا الغرض نفسه، دون أن تدرى بأنها قد فعلت ذلك، وبدون أن يتمكن العلم من أن يقدم كلمة واحدة كإجابة. فلو كانت هذه الطقوس، كما يعلن العلم، تفيد التربة فقط، وتهبها القوة، ولنقل، على أن تجتذب الطعام من الهواء، فإنهم حينئذ سوف يتجهون منطقيا نحو التربة كلية، فالتربة هى التى يجب أن يهمس إليها بالتعاويذ، وهى التى تقدم إليها الرقصات، وعلى قدر ما تسعفنى معلوماتى، فإن العلم لا يتطلب شيئا آخر سوى ذلك. ويجىء الآن دور ما هو أهم؛ فالناس فى جميع طقوسهم يتطلعون إلى أعلى. ولا يعد ذلك إهانة للعلم، طالما أن العلم لم يحرمه، وإنما يترك للفلاح مطلق الحرية فى هذا المقام، ويهتم فى تعاليمه بالتربة فقط، ولو نفذ الفلاح تعليماته التى تتعلق بإعداد التربة، فإنه يقنع بذلك، وإن كان

لابد له فى رأيى من أن يتطلب شيئا آخر أكثر من ذلك لو أنه كان منطقيا. وعلى الرغم من أننى لست متمرسا غاية التمرس بالعلم، فلا يسعنى ببساطة أن أدرك كيف يمكن للمتعلم أن يدع قومنا، على تمردهم، وعاطفيتهم، ينشدون تعاويذهم بوجوههم متطلعة إلى أعلى، ويولولون بأغانينا الشعبية القديمة فى الهواء، ويقفزون عاليا فى رقصاتهم، كما لو كانوا يتجاوزون عن الأرض، ويودون لو يطيروا من فوقها إلى الأبد. ولقد أخذت تلك المخالفة نقطة لبدايتى، كلما اقترب، طبقا لتعاليم العلم، وقت الحصاد، كنت أقصر اهتمامى على الأرض. فلقد كانت هى الأرض التى كنت قد حرثتها أثناء رقصاتى، وكنت غالبا ما أصلب عنقى محتفظا برأسى ما أمكننى قريبا منها، وحفرت فيما بعد حفرة لأنفى، وغنيت، وألقيت فيها الخطب المؤثرة، حتى يتسنى فقط للأرض أن تسمعنى وحدها، دون أى كائن آخر سواها إلى جوارى أو فوقى.

وقد كانت نتائج تجاربى عقيمة، فلم يكن الطعام يخرج فى بعض الأحيان، وكنت أتهيأ من فورى لأن أهلل لذلك الدليل، إلا أن الطعام كان يخرج بعد ذلك، ولقد بدا الأمر على وجه التحديد، كما لو كان أدائى الغريب قد تسبب فى بعض الاضطراب فى البداية، إلا أنه اتضح لى فيما بعد أن أدائى ذاك، كانت له بعض المميزات، لدرجة أن النباح العادى، والقفز كان من الممكن أن تتضمنها مراسيمه فى حالتى. وكان الطعام فى الحقيقة يظهر غالبا فى وفرة زائدة عن ذى قبل، لكنه كان يرغب عن الظهور بعدئذ ثانية. وقد سجلت تقريرات دقيقة عن كل تجاربى، بنشاط لم يكن قبلئذ معهودا من كلب صغير، وتوهمت أننى

كنت أشم هنا وهناك رائحة قد تقودنى إلى أبعد، إلا أنها كانت تتبدد ثانية فى إبهام.

وتقيدنى هنا أيضا بلا شك أساساتى العلمية غير الوافية، فأى دليل لدى مثلا على أن غياب الطعام لم يكن يرجع إلى أساليب الإعداد غير العلمى للأرض، أكثر مما يرجع إلى تجاربى، فلو أن الأمر كان كذلك، لكانت كل استنتاجاتى إذن خاطئة، ولعلنى فى ظروف معينة أن أتمكن من تحقيق تجربة دقيقة، حذرة غاية الحذر : أعنى لو أننى فقط نجحت مرة فى استنزال الطعام بواسطة تعاويذ مرفوعة إلى السماء، دون إعداد الأرض بالمرة، ثم فشلت فى استخراج الطعام بالتعاويذ الموجهة كلية نحو الأرض.. ولقد حاولت فى الحقيقة شيئا من هذا القبيل، لكن بدون أدنى اقتناع حقيقى بها، ودون توفر الشروط بالغة الدقة، ذلك أن عقيدتى الثابتة ترى أن قدرا معينا من إعداد الأرض هو أمر ضرورى دائما. وحتى لو كان الزنادقة الذين ينكرون ذلك على حق، فإنه لم يكن فى الإمكان إثبات نظريتهم فى أى حالة من الحالات، نظرا إلى أن رى الأرض يتم تحت نوع من الضغط، وفى نطاق حدود معينة لا يمكننا ببساطة أن نتجنبها. ولقد حققت تجربة أخرى مماثلة إلى حد ما، نجاحا أكبر، وأثارت بعض الاهتمام العام. وبمناقشة الطريقة المعتادة فى اختطاف الطعام، وهو لا يزال فى الهواء، قررت أن أترك الطعام يسقط فوق الأرض، ولا أبذل جهدا فى التقاطه. وتبعا لذلك قفزت فى أغلب الأحيان قفزات صغيرة فى الهواء عندما لاح الطعام، لكننى كنت أسمح له بالفرصة، فلعله أن يسقط دائما من نفسه، وكان الطعام يسقط فى أغلب الأحيان بغباء وتلقائية على الأرض، على الرغم من ذلك،

فكنت أندفع نحوه فى شراسة، فى سورة الجوع وخيبة الأمل فى وقت معا. لكن حدث فى بضع حالات نادرة شىء آخر، شىء غريب حقا، فلم يسقط الطعام، بل تبعنى عبر الهواء. كان الطعام يتعقب الجائع. ولم يكن ذلك يستمر طويلا، ولكنه كان دائما يتبعنى لمسافات قصيرة فقط، ثم كان الطعام يسقط فى النهاية، أو يختفى تماما عن الأنظار، أو - فى أغلب الأحيان - كان شرهى يضع حدا متعجلا للتجربة، وكنت ألتهم الصيدة المغرية فورا.

ولقد كنت سعيدا على كل حال فى تلك الفترة، ولقد تملكت جارى حالة من الفضول، وتمكنت من إثارة انتباه غير عادى، فلقد وجدت لدى معارفى استعدادا أكبر لتقبل أسئلتى، وكان يسعنى أن أرى فى عيونهم وميضا كان يبدو أشبه بدعوة للنجدة، وحتى لو لم يكن ذلك الوميض أكثر من مجرد انعكاس لنظرتى، فلم أطلب شيئا أكثر من ذلك. لقد كنت راضيا. حتى اكتشفت أخيرا - ولقد اكتشف الآخرون ذلك فى نفس الوقت - أن تجربتى تلك لم تكن سوى بديهية من بديهيات العلم، وأنها كانت للتو قد حققت مع الآخرين نجاحا فاق فى تألقه نجاحها معى، وعلى الرغم من أن محاولة القيام بتلك التجربة لم يكن قد حدث من قبل لمدة طويلة، نظرا لحالة ضبط النفس القصوى التى تتطلبها، فلم تكن هناك أيضا ثمة حاجة إلى تكرارها، لأنها لم تكن تتضمن أية قيمة علمية على الإطلاق. إنها تثبت فقط ما هو معروف بالفعل، وهو أن الأرض لم تكن فقط تستنزل الطعام عموديا من أعلى لكن بزاوية مائلة أيضا، وفى صورة أشكال حلزونية فى الواقع أحيانا. وهكذا كنت قد بقيت وحيدا هنالك مع تجربتى، إلا أننى لم أكن قد أحسست بما يثبط عزمى، فلقد

كنت صغيرا جدا حتى أشعر بشيء من هذا القبيل، بل لقد دفعني الإحباط على العكس من ذلك، إلى أن أحاول تحقيق ربما أعظم الإنجازات في حياتي كلها. ولم أكن مؤمنا باستخفاف العلماء بتجربتي، إلا أن الإيمان لم يكن ذا نفع في هذا المجال، كان ما ينفعني فقط هو البرهان، ولقد عملت على أن أصل إلى ذلك، وعلى هذا فقد رفعت تجربتي من مجالها الذي لا يتناسب معها، ووضعتها في مركز حقل البحث تماما. لقد أردت أن أثبت أنني عندما تراجعت أمام الطعام، فلم تكن الأرض هي التي اجتذبته بميل، لكنني كنت أنا الذي سحبته خلفي. هذه التجربة الأولى، لم يمكنني في الحقيقة أن أمضي بها إلى أبعد من ذلك، إلى أن يتمكن المرء من رؤية الطعام أمامه، والتجربة وقد تحققت في روحها العلمية في وقت معا - وليس في وسع المرء أن يحقق ذلك بصورة مطلقة. إلا أنني قررت أن أفعل شيئا آخر، قررت أن أصوم تماما، لأطول مدة يمكنني أن أحتمل صيامها، وأن أتجنب في الوقت نفسه رؤية الطعام بالمرة، وأتجنب إغراءه. فلو قدر لي أن أضبط نفسي على هذا الحال، وأن أبقى مستلقيا طوال النهار والليل مغلقا عيني، دون أن يشغلني هم اختطاف الطعام من الهواء، ولا هم رفعه من الأرض، ولو أن الطعام كان - كما لم أجرؤ حتى على التوقع، وإن كنت قد أملت فقط أملا ضعيفا، دون اعتبار لأي من المقاييس المعتادة، وكمجرد حل لمشكلة ري الأرض السخيفة التي لا يمكن تجاهلها، والتلاوة الهادئة للتعاويذ والأغاني (ولقد رغبت في حذف الرقص، حتى لا أبدد قواي)، ليسقط من تلقاء نفسه، من أعلى، ويدق على أسناني، دون أن يبلغ الأرض، راجيا مني التكرم بالتهامه - لو كان حدوث ذلك

ممكنا، وحتى لو لم يكن العلم يناقض ذلك، بم أن له المرونة الكافية لتقبل الاستثناءات، والحالات النادرة ـ لسألت نفسي إذن عما يمكن أن تقوله الكلاب الأخرى التي لم تكن تملك لحسن الحظ مثل تلك المرونة المتناهية؟ ولما لم تكن قد حدثت من قبل مطلقا حالة استثنائية من هذا القبيل يذكرها لنا التاريخ، ولنقل كحادثة الكلب الذي رفض تحت وطأة مرض جسماني أو اضطراب عقلي، أن يمهد الأرض، أو ينحني إلى أسفل لكي يلتقط الطعام، تلك الحادثة التي لأجلها يتلو كل مجتمع الكلاب وصفات سحرية نجح عن طريقها في تحويل الطعام عن خط سيره المعتاد، ليتجه مباشرة نحو مخالب المريض. ولقد كنت على عكس ذلك سليما تماما، وفي كامل قواي، وكانت شهيتي متفتحة غاية التفتح، حتى لقد صرفتني طوال النهار عن التفكير في أي شيء آخر سواها، ولقد أذعنت طوعا علاوة على هذا، سواء أمكن تصديق ذلك أم لم يمكن، لفترة صيامي، وكنت قادرا تمام المقدرة على أن أحصل على رزقي من الطعام، ورغبت مع هذا في أن أصوم، وعلى هذا فلم أطلب عونا من مجتمع الكلاب، بل لقد رفضته في الحقيقة بأقصى حالات إرادتي.

ولقد اخترت لنفسي مكانا مناسبا في أجمة منعزلة من الأعشاب، حيث لا يتاح لي أن أستمع إلى أي حديث عن الطعام، ولا أستمع إلى أصوات الأنياب وهي تمضغ الطعام، ولا إلى العظام التي يقرضها الآخرون؛ ولقد أكلت كفايتي للمرة الأخيرة، واستلقيت أرضا. وقد أردت أن أنفق معظم وقتي مغمضا عيني ما أمكنني ذلك، حتى تصبح الدنيا ليلا متصلا بالنسبة لي إلى أن يأتي الطعام، حتى لو اتفق أن اتصلت يقظتي لأيام وأسابيع. ومع ذلك فلم أجرؤ على النوم طويلا خلال ذلك

الوقت، ولقد كان من الأفضل في الحقيقة ألا أنام بالمرة - ولقد جعل ذلك الأمر كله أشد صعوبة - ذلك أنه لم يكن يتوجب على فقط ألا أجتذب الطعام من الهواء، بل أن أكون أيضا فى نوبة حراسة متواصلة، حتى لا يتفق أن أكون نائما عندما يصل الطعام، لكننى من ناحية أخرى سأرحب بالنوم لو أنه طوانى لأننى سأتمكن من الصيام عندما أكون نائما مدة أطول بكثير من المدة التى قد أصومها متيقظا. وقررت لهذه الأسباب أن أنظم وقتى بحكمة، وأن أنفق الجانب الأكبر من ذلك الوقت فى النوم، لكن لفترات قصيرة متقطعة دائما. ولقد نجحت فى ذلك عن طريق إسناد رأسى دائما عندما يحلو لى أن أنام على غصن هش، لا يلبث حتى ينقطع وهكذا يوقظنى، وعلى هذا النحو استلقيت هناك نائما، أو قائما بالمراقبة، حالما، أو مدندنا لنفسى فى هدوء بالأغنيات. ولقد مرت صحواتى الأولى بمشقة، ولعل أحدا - فى الطريق الذى يجىء منه الطعام - لم يكن بعد قد فطن إلى أننى كنت مستلقيا هناك فى حالة مقاومة للسياق المعتاد للأمور، وهكذا لم يكن هنالك ثمة ما يشير إلى أى شىء. وكنت أثناء تركيزى على المراقبة قد اضطربت قليلا بسبب الخوف من أن تفتقدنى الكلاب الأخرى، واحتمال أن تعثر على فى الحال، وأن تحاول تدبير شىء ضدى. وركبنى الخوف مرة أخرى لمجرد بل التربة، ومع أنها لم تكن تربة خصيبة، استنادا إلى مكتشفات العلم، فلعلها أن تتمخض عن بعض الأغذية الشيطانية التى قد تغرينى برائحتها. إلا أن شيئًا من هذا لم يحدث لفترة طويلة، وأمكننى لهذا أن أواصل صيامى. وفى غياب مثل تلك المخاوف كنت هادئا خلال تلك المرحلة الأولى، هدوءاً لا يسعنى أن أذكر أننى قد نعمت

بمثله من قبل أبدا. ومع أنني في الواقع كنت أعمل جاهدا لكي ألغى اكتشافات العلم، فقد شعرت في أعماقي بثقة زائدة، شعرت حقا بكل الصفو النادر الذي يتمتع به الباحث العلمي. ولقد رجوت بيني وبين نفسي عفو العلم، فلقد كان عليه أن يفسح صدره لأبحاثي أيضا، وكعزاء رن في أذني بالتأكيد بأنه لا على مما قد تحدثه تحرياتي من أثر، بالغا ما بلغ، وكلما كان أثرها بالغا حقيقة كلما كان ذلك أفضل، وسوف لا أهوى إلي ضياع حياة الكلب العادية؛ إن العلم يرمق محاولاتي باستحسان، وسوف يتكفل العلم نفسه بتفسير اكتشافاتي؛ وإن هذا الوعد يعني في الحال بلوغ الهدف؛، وعلى حين كنت لا أشعر إلي الآن في أعماقي سوى بخروجي على القانون، وبأني قد طرقت رأسي ككائن بدائي على حوائط تراث جنسي، فإن المجتمع سوف يقبلني الآن محاطا بهالة الشرف، ولسوف تضمني من كل الجهات الأجساد الكلبية المتلاصقة التواقة إلى الدفء، وسأرتفع عاليا فوق أكتاف رفقائي! آثار ملحوظة لبدايات جوعي! و.. بدت إنجازاتي بالغة العظمة في عيني حتى أنني انخرطت في البكاء في انفعال، وإشفاق على نفسي، هنالك وسط الأعشاب الساكنة، إن ما يجب الاعتراف به لم يكن غاية في الغموض، فبينما كنت أتطلع أمامي مترقبا مكافأتي التي استحققتها عن جدارة، لماذا كنت أبكي؟ ربما بسبب السعادة الخالصة. ذلك أنني دائما عندما أكون سعيدا، وهو أمر نادر تماما، فإنني أبكي. ومع ذلك فسرعان ما انتهت هذه المشاعر عند ذلك الحد. وانسابت أعذب تخيلاتي واحدة إثر أخرى، قبل أن يلح على جوعي المتزايد، ولم تكن تنقضي فترة قصيرة، حتى كنت بعد وداع مقتضب

لكل خيالاتي، ومشاعري النقية جميعا، وحدي تماما، مع الجوع، يحترق في أحشائي. وقلت لنفسي مرارا لا حصر لها خلال تلك الفترة «هذا هو جوعي!»، كما لو كنت أحاول إقناع نفسي، بأنني كنت أنا وجوعي ما نزال شيئين منفصلين، وأنه كان في وسعي أن أنفضه عني بعيدا كعاشق ثقيل. لكننا كنا في الحقيقة كلا واحدا على نحو مؤلم. وعندما أوضحت لنفسي : «أن ذلك هو جوعي»، كان بالفعل هو جوعي الذي كان يتكلم، ويسخر بي. فترة قاسية! قاسية! مازلت أرتعد عندما أذكرها؛ لا لمجرد الآلام - وأرجوك أن تدرك ذلك - التي عانيتها حينئذ. لكن لأنني كنت أعلم أنني لم أكن مهيأ تماما حينئذ، ويتعين علي تبعا لهذا أن أكابد تلك الآلات ثانية، لو قدر لي أن أنجز شيئا، ذلك أنني الآن مازلت متمسكا بالصوم باعتباره السلاح النهائي الفعال للبحث. إن الطريق يمتد عبر الصوم، وإن نهايته لو أمكن بلوغها، فلن يتسنى بلوغها إلا بأقصى جهد، وأقصى جهد يسعنا أن نبذله هو الصوم طوعا. ولهذا فإنني عندما أفكر في تلك الأوقات - ولسوف أقصى حياتي بسرور، في تأملها -، فإنني لا أحتمل التفكير أيضا في الوقت الذي ما يزال يتهددني، ويبدو لي غالبا أنه يتعين على المرء أن ينفق حياته بطولها لكي يشفى من مثل تلك المحاولة. إن حياتي كلها كشخص راشد تكمن بيني وبين ذلك الصوم، وحتى الآن لم أسترد عافيتي بعد. وعندما أبدأ صيامي القادم، فعسى أن يكون لدي عزم أشد مما كان لدي في المرة الأولى، بتأثير خبرتي الأعظم، ورؤيتي الأعمق لمتطلبات مثل تلك المحاولة، إلا أن قواي واهنة ما تزال بتأثير تلك التجربة الأولى وعلى هذا فقد أفشل من فوري عند مجرد الاقتراب من تلك الأهوال

المألوفة. وسوف لا تعنيني شهيتي الأشد تخاذلا، فلسوف تقلل من قيمة المحاولة، فقط في مقابل أقل القليل، وسوف تجبرني بالفعل على أن أصوم وقتا أطول مما كان لازما في المرة الأولى. وأحسبني صريحا في هذه المسألة، وفي الكثير من المسائل الأخرى، ولم تكن المحاولات التدريبية لتحتاج إلى فترات صوم طويلة، فلقد جربت الجوع بالفعل كثيرا من قبل إلى الحد الذي يكفيني منه، إلا أنني كنت أشد ضعفا ما أزال من أن أثبت أمام الجهد الزائد، كما أن همة الشباب التي لا تفتر قد ذهبت الآن بالطبع إلى الأبد. لقد ذابت في الحرمان الرهيب لذلك الصيام الأول. ولقد عذبتني كل أنواع الأفكار. وظهر آباؤنا الأولون أمامي مهددين. حقا، لقد تشددت في اعتبارهم مسئولين عن كل شيء، وإن لم أكن قد جرؤت على إعلان ذلك صراحة، إلا أنهم كانوا هم من ورط حياتنا الكلبية في الذنوب، وهكذا كان في مقدوري بسهولة أن أرد على تهديداتهم بالتهديدات المضادة، إلا أنني أنحني أمام معرفتهم، فلقد نبعت من مصادر لم نعد بعد نعرفها، ولهذا السبب، فسأحذر بنفس القوة التي قد أشعر بها تنازعني إلى معارضتهم، من أن أتخطى قوانينهم بالفعل أبدا، لكنني سأقنع نفسي بالتلوي خارجا من خلال الفجوات التي أملك حاسة قوية لتشممها. وعلى سؤال الصوم، فلقد دعوت للحوار الشهير الذي أعرب في أثنائه ذات مرة أحد حكمائنا عن نيته في منع الصيام، لكنه عدل عن نيته عندما تصدى له حكيم آخر قائلا : «ومن هو ذا الذي سيفكر في الصيام؟»، عند ذلك تراجع الحكيم الأول، وسحب الحظر. لكن يثور الآن هذا السؤال «أليس الصيام ممنوعاً بالفعل في نهاية الأمر؟»، إن الأغلبية الساحقة من المعقبين

ينكرون ذلك ويرون أن حرية الصيام مكفولة، ويهيبون، في رأيهم، بالحكيم الثاني ألا يخشى مطلقا جانب العواقب الخطيرة التي قد تنتج عن التفسيرات الخاطئة. ولقد تثبتُّ بنفسي بالطبع من هذه النقطة قبل أن أبدأ صيامي. لكن بينما أتلوى الآن بقرصات الجوع، وجدت في اضطرابي العقلي، عزاء في ساقي الخلفيتين، لاعقا، أو قاضما إياهما في يأس إلى أعلى حتى العجز، وبدا لي التفسير العام لذلك الحوار مزيفا تماما وكلية. ولعنت علم المفسرين، ولعنت نفسي لأنني قد ضللت بتفسيراتهم تلك، ذلك أن الحوار كان يتضمن، كما كان في وسع أي طفل أن يرى، أكثر من تحريم واحد للصيام، ولقد أراد الحكيم الأول أن يحرم الصيام، وما أراده ذلك الحكيم قد تم تنفيذه فورا بالفعل، أما بخصوص الحكيم الثاني، فهو لم يتفق فقط مع الأول، بل اعتبر الصيام بالفعل مستحيلا، مضيفا بذلك تحريما ثانيا إضافة إلى التحريم الأول، هو طبيعة الكلب نفسها، وقد أدرك الحكيم الأول ذلك، وعلى هذا فقد سحب التحريم الصريح، وكان هذا معناه أنه ألقى المسئولية عل عاتق الكلاب جميعا، وما استتب أمره في النهاية، كان هو إلزامهم بأن يعرفوا أنفسهم، وأن يصدروا بأنفسهم تحريماتهم الخاصة فيما يتعلق بالصيام. وهكذا أصبح لدينا هنا تحريم ذو ثلاث طيات بدلا من مجرد تحريم واحد، و.. لقد كنت قد انتهكتها جميعا. ولعلني أن أكون الآن على الأقل قد أطعت عند هذا الحد، مع أن طاعتي قد جاءت متأخرة، إلا أنني شعرت وسط آلامي برغبة في مواصلة الصيام، ولقد تعقبت تلك الرغبة بشراهة كما لو كانت كلبا غريبا. لم يسعني أن أتوقف؟ فلعلني كنت ضعيفا أيضا غاية الضعف لكي أنهض وأنشد الأمان

لنفسى فى صوره المألوفة. وتطوحت فوق أوراق الغابة المتساقطة، ولم أتمكن من مواصلة النوم، وسمعت صخبا من كل جانب. وبدا العالم الذى كان نائما طوال حياتى قبلئذ، وكأنه قد استيقظ الآن لصيامى، وكان قد عذبنى تصورى بأننى لن أقدر بتاتا على تناول الطعام ثانية، وأننى يجب أن أتناول طعاما، لكى أعيد هذا العالم الذى يصخب من حولى بكل تلك الضجة مرة أخرى إلى الصمت، وأنه لن يمكننى أن أفعل ذلك. إلا أن أعلى ضجة وسط كل الضوضاء التى تحيطنى إنما كانت تصدر عن بطنى نفسها، وغالبا ما كنت ألصق أذنى بها، بعينين مفزعتين، ذلك أننى لم أكن أكاد أصدق سوى بصعوبة بالغة ما كنت أسمعه، وعندما غدت كل الأشياء أخيرا غير محتملة، بدا وجودى نفسه كما لو كان قد أصبح فى قبضة الجنون المطبق، وراح يتخبط فى محاولات مخبولة لإنقاذ نفسه، وأخذت تهاجمنى روائح الطعام، روائح الطعام اللذيذة التى كنت قد نسيتها منذ أمد بعيد، ومباهج طفولتى، نعم، كان فى استطاعتى أن أشم عطر أثداء أمى نفسها، ونسيت عزمى على مقاومة كل الروائح، أو أننى لم أنسه، بل جرجرت نفسى هنا وهناك لمسافة لا تزيد عن بضع ياردات قليلة، وشمشمت كما لو كان ذلك هو ما كنت قد اعتزمته، كما لو كنت أبحث فقط عن الطعام لكى أقاومه. ولم تيئسنى حقيقة أننى لم أجد شيئاً، فلابد أن يوجد الطعام هناك، لكنه فقط على بعد خطوات، ولقد فشلت سيقانى فى حملى قبل أن أتمكن من بلوغه، لكننى فى الوقت نفسه أدركت أن شيئا لم يكن هناك، وأننى قد قمت بتلك التحريات الواهنة فقط خوفا من أن أتداعى فى مكانى ولا أعود قادرا على مبارحته. وكانت آخر

آمالي، وأحلامي الأخيرة قد تلاشت، ولسوف أهلك هنا في تعاسة، فماذا كانت جدوى أبحاثي؟ محاولاتي الصبيانية التي تمت في أيام الطفولة السعيدة الموغلة في البعد. هنا والآن كانت ساعة الجد المميتة، هنا يجب على تحرياتي أن تثبت قيمتها، لكن أين اختفت؟.

لا شيء سوى كلب مستلق هنا في عجز، مادا فمه نحو الهواء الفارغ، كلب على الرغم من مواصلة ريه للتربة بسرعة متشنجة في فترات قصيرة، ودون أن يكون واعيا بها، لا يسعه أن يذكر حتى أقصر التعاويذ المختزنة في ذاكرته، ولا حتى المقطوعة القصيرة التي يرددها الجرو الصغير حديث الولادة، وهو قابع ما يزال تحت أمه. وبدا لي أنني كنت منفصلا عن كل زملائي، لا بمجرد مسافة قصيرة غاية القصر، لكن بأبعاد لا نهائية، وكما لو كنت سأقضي نحبي فريسة للإهمال أكثر من قضاء نحبي بالتضور جوعا، فلقد كان واضحا أن أحدا لم يكن يشغله أمري، لا أحد تحت الأرض ولا فوق سطحها، ولا في سمائها. لقد كنت أقضي نحبي بسبب لامبالاتهم، فلقد قالوا بلا اكتراث: «إنه يموت!»، ولقد كانت النهاية توشك بالفعل أن تقع. فهل ما كنت قد ارتضيت ذلك؟ ألم أكن أقول الشيء نفسه؟ ألم أكن قد رغبت في أن أترك وحيدا على هذا النحو؟ نعم يا إخوتي، لكن لا لأهلك في هذا المكان، بل لكي أبلغ الصدق، وأبارح هذه الدنيا الزائفة، حيث لا يوجد ثمة من يمكنكم أن تتعلموا الصدق منه، ولا حتى مني أنا وليد عالم الزيف. ولعل الصدق لم يكن لهذا الحد، بعيدا غاية البعد، ولعلني لم أكن مهجورا على هذا النحو كما ظننت، أو لعلني كنت مجهورا من نفسي أكثر مما كنت مهجورا من زملائي في استسلامي وقبولي

للموت.

إلا أن المرء لم يكن ليموت بهذه السهولة، كما يمكن أن يتصور ذلك كلب متوتر!، فقط كانت قواى قد خارت، وعندما عدت إلى وعيى، ورفعت عينىّ، كان ثمة كلب غريب واقف أمامى. لم أشعر بالجوع، بل لقد امتلأت بالقوة، وبدت لى أطرافى خفيفة، ونشيطة، رغم أننى لم أحاول أن أتثبت من ذلك بالوقوف على سيقانى، ولم تكن قواى على الإبصار فى حد ذاتها أكثر حدة من ذى قبل، ولقد كان كلباً جميلاً، وإن لم يكن خارجا بالمرة عن المألوف، قد وقف أمامى، كان فى وسعى أن أرى ذلك، وكان هذا هو كل شىء، لكن بدا لى أننى قد رأيت فيه شيئا أكثر من ذلك. كانت ثمة دماء على الأرض أسفلى، وقد حسبتها طعاما لأول وهلة، إلا أننى تبينتها على الفور كدماء كنت قد تقيأتها، وحولت أنظارى عنها نحو الكلب الغريب، كان هزيلا، طويل السيقان، بنى اللون، ذا لطشة بيضاء هنا وهناك، وكانت له نظرة نافذة، قوية، ثابتة.

سألنى : «ماذا تفعل هنا؟، لابد أن تغادر هذا المكان!».

قلت : «لا يمكننى أن أغادره الآن!»، دون أن أحاول تفسير ذلك، فكيف كان يمكننى أن أفسر له كل شىء؟، ولقد كان يبدو عليه فوق ذلك، كما لو أنه كان متعجلا.

«أرجوك!، اذهب من هنا!»، قال ذلك فى نفاد صبر، رافعا ساقه، ثم أعادها ثانية إلى الأرض.

قلت : «دعنى هنا، دعنى لنفسى، ولا تشغل بالك بأمرى، فإن الآخرين لا يشغلون بالهم بأمرى!».

قال : «إنى أسألك أن تذهب لصالحك!».

فأجبته : «بإمكانك أن تسألني لأى سبب تشاء، إلا أننى لا أقوى على الذهاب، حتى لو أردت!».

قال مبتسما : «لا حاجة بك إلى الخوف من ذلك، يمكنك الذهاب بالفعل، لقد سألتك أن تذهب الآن لضعفك، ويمكنك أن تذهب متباطئا لو شئت، ولو توانيت الآن، فسوف تضطر إلى أن تسابق الريح بعد ذلك!».

أجبته قائلا : «هذا شأنى وحدى».

قال : «وهو شأنى أنا أيضا!»، محزونا لعنادى، لكن عازما فى وضوح على أن يدعنى مستلقيا للتو واللحظة، وأن ينتهز الفرصة فى نفس الوقت ليمد لى يد المساعدة.

كان يمكننى بكل سرور أن أقبل المجاملة فى أى وقت آخر من مثل ذلك المخلوق الجميل، لكننى فى تلك اللحظة، لست أدرى لماذا ملأتنى الفكرة بالفزع. صحت : «انصرف!»، وبأعلى صوتى، لما كنت لا أملك وسيلة أخرى للدفاع عن نفسى.

قال متراجعا فى بطء : «وهو كذلك، سوف أتركك إذن، إنك كائن عجيب، ألا ترتاح لى؟».

قلت : «سوف أرتاح لك، إذا انصرفت وتركتنى فى سلام».

لكننى لم أكن واثقا من نفسى على نحو كاف، عندما حاولت أن أدفعه إلى التفكير. ولقد بدت حواسى التى أرهفها الصيام، وكأنها ترى فجأة، أو تسمع شيئاً يتعلق به، كانت قد بدأت لتوها، وكانت تتزايد، ثم.. اتضحت، وعرفت أن ذلك الكلب كان يملك القوة ليدفعنى بعيدا، حتى ولو لم يكن فى استطاعتى فى تلك اللحظة أن أتصور بينى وبين نفسى، كيف يمكننى أن أنهض فحسب، واقفا على أقدامى، وحدقت فيه ـ وكان

فقط قد هز رأسه، محزونا لإجابتى الجافة - بفضول متزايد.

سألته : «من أنت؟».

فأجاب قائلا : «صياد!».

قلت : «ولماذا لا تتركنى مستلقيا هنا؟».

قال : «لأنك تزعجنى، فلا أستطيع الصيد وأنت هنا!».

قلت : «حاول، فربما أمكنك الصيد فى النهاية!».

قال : «لا، وإننى ليؤسفنى أنه لابد لك أن تنصرف!».

فاقترحت قائلا : «لا تصد اليوم فقط على الأقل!».

قال : «لا أستطيع، لابد لى من الصيد!».

قلت : «لابد أن أذهب، لابد لك من الصيد، لا شىء سوى لابد؟، هل يمكنك أن توضح لى لماذا لابد؟».

أجابنى قائلا : «لا.. فليس ثمة ما يحتاج إلى التفسير، إن هذه أمور طبيعية، واضحة فى ذاتها».

قلت : «ليست فى ذاتها واضحة إلى ذلك الحد، فأنت آسف لأن عليك أن تطردنى بعيدا، إلا أنك تقوم بطردى مع ذلك!».

أجاب قائلا : «إن الأمر كذلك».

فرددت عليه مقاطعا : «إن الأمر كذلك؟، ليست هذه إجابة!، ما هى التضحية التى يمكنك أن تقدمها، هل تتنازل عن صيدك، أو تتنازل عن طردى؟».

قال بلا تردد : «أتنازل عن صيدى».

قلت : «هكذا!، ألا ترى إذن أنك تناقض نفسك؟».

أجابنى قائلا : «وكيف أناقض نفسى؟، هل يمكن حقا ألا تكون

قادرا على إدراك حقيقة أنه لابد لى من الصيد يا جروى العزيز؟، ألا يمكنك أن تفهم الحقيقة الواضحة بذاتها؟».

لم أحر جوابا، ذلك أننى قد استشعرت ـ حياة جديدة تدب فى داخلى، حياة مثل تلك التى تبعثها الأهوال ـ، وقد أدركت من شواهد غير محسوسة، لعل أحدا سواى لا يسعه أن يلحظها، أن الكلب كان يتأهب فى أعماقه لتقديم أغنية.

قلت : «هل ستغنى؟».

قال بوقار : نعم، سوف أغنى فورا، إلا أننى لم أبدأ بعد!».

قلت : «هل ستبدأ الآن؟».

قال : لا.. ليس بعد، إلا أننى أتأهب!».

قلت مرتعشا : «إننى أسمعها الآن بالفعل على الرغم من إنكارك لها».

كان صامتا، ثم تهيأ لى أننى قد رأيت شيئا لم يتح قبلى لكلب أن رآه مطلقا، فلا توجد فى تراثنا أدنى إشارة إليه على الأقل، وبسرعة أحنيت رأسى فى خوف لا حد له، وفى خجل، فى بركة الدماء التى كانت قد تكونت تحتى. فقد تهيأ لى أننى قد رأيت الكلب وهو يغنى بالفعل دون أن يدرى ذلك، بل لقد تهيأ لى أكثر من هذا، أن النغم، الذى كان يبدو منفصلا عنه، كان يطفو فى الهواء تبعا لقوانينه الخاصة، متحركا نحوى، نحوى فقط، كما لو لم يكن للكلب فى ذلك أدنى حيلة. وإننى بالطبع، أنكر الآن صحة كل تلك التخيلات كلها، وأعزوها جميعا إلى تهيجى الزائد حينذاك، لكن لو أنها حتى كانت خاطئة بالفعل، فقد كان لها على الرغم من ذلك نوع من الجلال، وحتى لو كانت حقيقة وهمية، فقد كانت هى الحقيقة الوحيدة التى حملتها إلى هذا العالم نتيجة

لفترة صيامي، وهي ترينا على الأقل المدى الذي يسعنا أن نبلغه عندما نتجاوز عن نواتنا. ولقد كنت متجاوزا ذاتي بالفعل. وكنت في تلك الظروف، عاجزا عن الحركة، لكن النغم، الذي سرعان ما سلم الكلب بأنه نغمه، كان نغما لا يقاوم. وقد ارتفع، وارتفع، وبدت قوته المتزايدة، وكأنها لم تكن لتقف عند حد، وما لبثت حتى فجرت طبلتي أذني. لكن أسوأ ما في الأمر هو ما بدا وكأن ذلك النغم كان قد انبثق فقط من أجلي، هذا الصوت الذي غرقت الغابات في الصمت أمام جلاله، يوجد من أجلي فقط، فمن عساي أن أكون حتى أجرؤ على أن أبقى هنا، مستلقيا أمامه في صفاقة، غارقا في بركة دمي وقذارتي. وترنحت ناهضا على أقدامي، ونظرت تحتي. لن يقوى هذا الجسد الحقير على الجري، إلا أن الوقت ما يزال متسعا أمامي للتفكير، لكنني اندفعت فورا بوخز النغم، ولقد انطلقت من مكاني ذاك مندفعا بغاية السرعة. لم أقل شيئا لأصدقائي، وربما كان في إمكاني أن أقول لهم كل شيء فور وصولي، إلا أنني كنت خائر القوى، و.. بدا لي فيما بعد أن مثل تلك الأشياء لا يمكن أن تقال. وكانت قد ضاعت مني نهائيا في الحوار العام، بعض اللمحات التي لم أتمكن من إدراكها خلال النزيف العارض. ولقد شفيت جسديا بعد مضي بضع ساعات قليلة، لكنني مازلت أعاني روحيا حتى الآن من آثار تلك التجربة.

ومع ذلك، فلقد حولت بحوثي فيما بعد إلى الموسيقى. ولم يكن العلم عاجزا في الحقيقة في ذلك المجال أيضا. ولعل علم الموسيقى أن يكون مفهوما لو أنني كنت قد درسته على النحو الصحيح، أكثر من علم التغذية، وقائما بشكل ما على أسس أقوى. وربما أمكن تفسير ذلك

بحقيقة أن ذلك الميدان يحتمل تحريات أكثر موضوعية من الآخر، وأن معلوماته دون غيرها، هي نتيجة للملاحظة المحضة، وللتنظيم، في حين أن الموضوع الأساسي في مجال التغذية هو تحقيق نتائج عملية. هذا هو السبب في أن علم الموسيقى يلاقي تقديرا أعظم مما يلقاه علم التغذية، وهو السبب أيضا في أن العلم الأول، لم يتغلغل تغلغلا عميقا في حياة الناس. ولقد أحسست أنا نفسي بعدم الاهتمام بعلم الموسيقى بخلاف العلوم الأخرى، حتى سمعت ذلك الصوت في الغابة.

وكانت تجربتي مع الكلاب الموسيقية قد لفتت انتباهي في الحقيقة إلى الموسيقى، لكنني كنت صغيرا جدا حينذاك. كما لم يكن سهلا بحال من الأحوال إدراك لمحات من ذلك العلم، فلقد كان ينظر إليه على أنه علم سري للغاية، ومتباعد في رقة عن الجموع. وبالإضافة إلى ذلك، فرغم أن ما صدمني في تلك الكلاب بغاية العنف كان أولا هو موسيقاهم، فما يزال يبدو لي صمتهم أكثر أهمية، أما بخصوص موسيقاهم المزعجة، فربما كانت بالفعل موسيقى فذة، حتى ليمكنني أن أتركها خارج الحساب، لكن صمتهم أخيرا هو ما واجهني في كل مكان، وفي كل الكلاب التي لقيتها. وعلى هذا فلكي تسبر غور طبيعة الكلب الحقيقية فإن البحث في الطعام يبدو لي أنجع السبل، التي يتسنى لها أن تقودني إلى هدفي في خط مستقيم. وقد أكون مخطئا. ومع ذلك فإن فاصلا ما بين هذين العلمين كان قد جذب انتباهي في الحال، وأعني به نظرية التعويذ، التي بواسطتها يستنزل الطعام إلى الأرض. وهذا هو مرة أخرى ما عاقني عن ممارسة علم الموسيقى بصورة جدية، ففي هذا المجال لا يسعني حتى أن أحسب نفسي من

بين أنصاف المتعلمين، تلك الطبقة التى يتطلع إليها العلم أكثر مما يتطلع إلى غيرها. لا يمكننى أن أتجاهل هذه الحقيقة، ولا يمكننى - ولدى لسوء الحظ ما يؤكد ذلك - أن أجتاز الاختبارات التى تتناول أبسط المبادىء العلمية الأولية، التى تطرحها السلطة فى هذا الموضوع. ويرجع السبب فى ذلك بالطبع، إذا تجاوزنا كلية عن الظروف التى سبق ذكرها للتو، إلى عجزى عن البحث العلمى، وإلى قدراتى المحدودة على التفكير، وذاكرتى الضعيفة، وإلى عجزى قبل كل شىء على أن أحتفظ بهدفى دائما نصب عينى. إننى أقر بهذا كله صراحة، وبدرجة ما من السرور، ذلك أن أعمق أسباب عجزى العلمى تبدو لى على أنها فطرة، و.. فطرة سيئة فى الحقيقة بلا شك. ولو أردت أن أزهو فلعلنى أن أقول أن تلك الفطرة نفسها هى التى أضعفت قدراتى العلمية، ذلك أنه سيكون بلا شك أمرا غريبا غاية الغرابة، لو أن المرء الذى يتمتع بدرجة فائقة من الذكاء فى ممارسة شئون الحياة اليومية العادية، التى لا يمكن وصفها بالبساطة دون شك؛ والذى قام العلماء الأفذاذ بتمحيص اكتشافاته ومراجعتها، إن لم يكن قد تفحصها العلم نفسه، قد يعجز عن تثبيت قدمه حتى على أول درجة من درجات سلم العلم.

لقد كانت فطرتى تلك هى التى جعلتنى - ربما فى سبيل العلم نفسه، ولعله أن يكون علما آخر مختلفا عن علم اليوم، علم شامل - أقدر الحرية تقديرا أرفع من تقديرى لكل ما عداها.

الحرية!... لاشك أن مثل تلك الحرية، بالصورة التى توجد بها اليوم، هى أمر بالغ الحقارة.

ومع ذلك فهى الحرية؛ وهى كل ما نمتلكه مع ذلك!.

الجحـر

أتممت حفر جحرى، ويبدو أن حفره كان قد تم بنجاح، فقد كان كل ما يمكن رؤيته من الخارج عبارة عن فجوة كبيرة لم يكن يبدو عليها حقا أنها تفضى إلى أى مكان، لكن لو أنك تقدمت بضع خطوات قليلة أخرى، فسوف تصطدم بصخرة طبيعية صلبة!، لست أزهو بأننى قد دبرت هذه الحيلة عامدا، لأنها ببساطة بعض آثار إحدى محاولاتى العديدة الفاشلة للبناء. لكن بدا لى فى النهاية أنه من الصواب ترك هذه الفجوة الفريدة دون ردم. إن بعض الخدع حاذقة حقا، حتى أنها لتتمكن من أن تحمى نفسها بنفسها، وإننى لأدرك هذا إدراكا أبعد مما يمكن أن يتوفر للآخرين. وأن تترك هذه الفتحة لجذب الانتباه إلى احتمال أن يكون ثمة ما يستحق التفحص إلى جوارها، أمر يعد مجازفة دون أدنى شك' إلا أنك لن تكون قد عرفتنى حقا، لو ظننت أننى كنت خائفاً، أو أننى - باختصار - كنت قد بنيت جحرى بدافع من الخوف. فعلى بعد بضعة آلاف من الخطوات من هذه الفتحة، كان يكمن المدخل الحقيقى للجحر، مختفيا تحت طبقة هشة، مقلقلة من الأعشاب، إنه مدخل مأمون، وآمن كأى شىء يمكنه أن يظل آمنا فى هذه الدنيا؛ إلا أن فى وسع أى كائن أن يخطو فوق تلك الأعشاب، أو أن يخترقها، و.. حينئذ سوف ينفتح جحرى. ولسوف يتمكن أى كائن

لو شاء - وأرجوك أن تلاحظ مع ذلك، أن هذا يتطلب أيضا مهارات غير عادية بالمرة - أن يتخذ طريقه إلى الداخل، ومن ثم يدمر تماما كل شيء. إنني أدرك هذا جيدا، و.. حتى الآن، عندما أصبحت في حال أفضل مما كنت عليه في أي وقت مضى، لا يمكنني سوى بصعوبة بالغة أن أقضي ساعة واحدة في اطمئنان. ودائما ينتابني الإحساس بأنني عرضة للهجوم من تلك البقعة المعتمة التي تغطيها الأعشاب، وغالبا ما أرى في أحلامي فما شرها يتشممها في إصرار. ولهذا اتضح لي أنه كان في وسعي أيضا أن أسد المدخل من أعلى بطبقة رقيقة من الحصى، والتراب الناعم بعد ذلك أسفله، حتى لا أتكبد كثير جهد عندما يحلو لي أن أشق طريقي ثانية إلى الخارج. إلا أن هذه الفكرة بدت مستحيلة، فالحذر نفسه يتطلب غالبا للأسف عنصر المجازفة بالحياة، وينتهي هذا كله إلى نتيجة مرهقة، كما أن متعة العقل الخالصة بانطلاقها الخاص، هي السبب الوحيد غالبا في تمسك المرء بذلك الحذر. فلابد لي من مهرب في لحظة التوقع، ذلك أنه على الرغم من كل يقظتي، ألا يحتمل أن يدهمني الهجوم من إحدى الجهات التي لم أكن أتوقعها منه مطلقا؟ إنني أحيا في سلام في داخل أقصى حجرات منزلي الداخلية، وربما كان العدو يحفر طريقه نحوي في تلك الأثناء، في بطء وتلصص. لست أدعي أن له حاسة شم أقوى من حاستي، فمن المحتمل ألا يعرف عني أكثر مما أعرف عنه. إلا أن ثمة لصوص يحفرون في الأرض عشوائيا، وإن اتساع مساحة مسكني ليضع أمام هؤلاء، احتمال أن يعثروا بالصدفة على أحد ممراته القصية. ولا شك أنني أتمتع بميزة وجودي في منزلي الخاص، وبمعرفتي بممراته كلها،

وباتجاهاتها، وربما وقع اللص فريسة لى، وصيدا سهلا أيضا. إلا أننى أتقدم فى السن، ولست فى قوة الكثيرين من الآخرين، كما أن أعدائى لا حصر لهم. وأيضا قد يحدث لى لو أننى انطلقت هاربا أمام أحد أعدائى أن أقع بين مخالب الآخر. من الممكن أن يحدث أى شىء. وعلى أى حال، فلابد أن يكون لدى اليقين الراسخ من وجود ثمة مخرج آمن تماما، فى مكان ما، ويمكنني بلوغه دون أن أتكبد من أجل الخروج كثير عناء، ولا يكون ثمة احتمال هنالك - ولتحفظنا السماء - لأن أشعر بأسنان من يطاردنى وهى تطبق فجأة على مؤخرتى، بينما أحفر لنفسى فى يأس طريقا للهرب، حتى ولو كان طريقى فى بقعة رملية سهلة مفككة. لست أحيا مهددا فقط من الأعداء الخارجيين، فثمة أعداء أيضا فى باطن الأرض. إننى لم أرهم، إلا أن الأسطورة تتحدث عنهم، كما أننى أعتقد فى وجودهم عن يقين. إنهم مخلوقات جوف الأرض، لم تصفهم أسطورة واحدة، كما أن ضحاياهم أنفسهم لم يقدر لهم تقريبا أن يروهم. لكنهم يأتون، وإنك لتستمع إلى خدش مخالبهم - وهى كل ما يملكونه - فى جوف الأرض تماما أسفلك، وإذ ذاك تكون قد ضعت. ولا جدوى حينئذ فى أن تحاول التشبث بفكرة وجودك فى منزلك الخا ص، إلا كما قد تجديك محاولة استنادك إلى وجودك فى منزلهم. وحتى مخرجى هذا لن ينقذنى منهم؛ إنه لن ينقذنى حقا بأى حال من الأحوال، وعلى كافة الاحتمالات، بل ربما ضللنى، لكنه أمل على كل حال، ولا يمكننى أن أحيا بدونه. وفيما عدا هذا المخرج الرئيسى فإننى أتصل بالعالم الخارجى أيضا عن طريق بعض الممرات الضيقة للغاية، الآمنة إلى حد ما، والتى تمدنى بالهواء النقى

للتنفس. هذه الممرات هى ثمرة جهد فئران الحقول، ولقد أفدت منها فائدة حكيمة، عندما حولتها إلى جزء رئيسى من جحرى، كما أنها تتيح لى أيضا إمكانية تشمم الأشياء من على البعد، وهى لهذا تقوم بدور مهم فى حمايتى. كما أن فتات مختلف أنواع الطعام، يأتينى متدحرجاً خلاله، فألتهمه، وعلى هذا ففى مقدورى أن أحصل تحت سطح الأرض، على قدر ما من الصيد، يكفى لحياة متواضعة دون أن أضطر إلى مغادرة جحرى على الإطلاق، وهذه ميزة كبرى بالطبع. إلا أن أكثر ما فى الجحر جمالا هو الهدوء، وهو شىء خادع طبعا، فمن المحتمل أن ينتهك فى أية لحظة، ومن ثم ينقلب كل شىء رأسا على عقب، إلا أن الصمت ظل يلازمنى مع ذلك بمضى الوقت، حتى أنه كان يمكننى أن أتجول لعدة ساعات عبر ممراتى، دون أن أسمع شيئا، فيما عدا حفيف بعض الكائنات الصغيرة، التى سرعان ما أرغمها على أن تصمت بين مخالبى، وفيما عدا دمدمة التربة، التى تلفت أنظارى إلى حاجة الجحر إلى الترميم، أما بعد ذلك فقد كان الصمت يسود كل شىء، وكانت أنسام الغابات تبلغنى فكان المكان يتناوبه الحر والبرد، وأحيانا ما كنت أستلقى أرضا، ومن ثم أتدحرج عبر الممر فى سعادة غامرة. وعند حلول الخريف يصبح امتلاك جحر مثل جحرى، وسقف فوق رأسك، ثروة عريضة رائعة بالنسبة لكل من أخذ يتقدم فى العمر. وكنت قد وسعت الممرات على بعد كل مائة ياردة، وحولتها إلى قبوات صغيرة مستديرة؛ كان يمكننى أن أتكور بداخلها فى راحة، وأستشعر الدفء. وهنالك كنت أستغرق فى النوم، نوم السكينة العذب؛ نوم الرغبة التى أشبعت، والطموح الذى تحقق، لأننى قد امتلكت منزلا. ولست أدرى

ما إذا كانت مجرد عادة قد بقيت مسيطرة على من الأيام الماضية، أو أن تعرض حتى هذا المنزل الذى أمتلكه للخطر كان شديدا لدرجة كانت تكفى لإيقاظى، إلا أننى كنت أتفزع دائما بين حين وآخر مستيقظا من النوم العميق، و.. أتسمع، أتسمع من خلال السكون الذى ساد المكان دون تغير نهارا وليلا، فأبتسم فى رضى، ومن ثم أستغرق ممددا أطرافى فى نوم هادىء أشد عمقا، ويزحف المشردون البؤساء الذين لا مأوى لهم فى الشوارع والغابات طلبا للدفء، فيندسون تحت كومة من الأوراق الجافة، أو ينضمون إلى قطيع من رفاقهم، فى قبضة كل أخطار السماء والأرض!، بينما أستلقى هنا فى حجرة آمنة من كل الجوانب ـ ويضم جحرى أكثر من خمسين حجرة أخرى مثلها ـ وأقضى أى وقت أشاء، سواء فى إغفاءة، أو مستغرقا فى النوم العميق.

ولم تكن الصومعة تقع فى منتصف الجحر تماما، فقد اخترت موقعها بعناية حتى تصلح ملاذا فى حالة الخطر الشديد من الحصار إن لم يكن من المطاردة، وبينما كان باقى الجحر كله عبارة عن نتيجة لإجهاد الذهن، أكثر من كونه نتيجة للعمل الجسمانى، فإن تلك الصومعة قد نفذت بأشق مجهود قامت به أعضاء جسدى كلها. وكنت قد أوشكت عديدا من المرات تحت ضغط اليأس الذى سببه لى إجهادى الجسمانى، أن أترك العمل كله، وأن ألقى بنفسى على الأرض، لاهثا، لاعنا الجحر، مجرجرا جسمى إلى الخارج، تاركا المكان مفتوحا للعالم كله. كان فى إمكانى دائما أن أفعل ذلك، حين لا تكون قد تبقت لدى أية رغبة فى العودة إليه، حتى أعود إليه أخيرا فى ندم

بعد ساعات أو بعد أيام!، وعندما كنت أرى أن الجحر لم يصبه أدنى سوء، كنت غالبا ما أرفع صوتى بابتهالات العرفان، وأعود إلى العمل مرة أخرى فى سعادة خالصة من القلب. وقد واجهتنى أيضا فى إعداد الصومعة مصاعب شاقة لا مبرر لها. لم تكن ثمة ضرورة لمواجهة تلك المصاعب التى لم يكن الجحر ليجنى منها أية فائدة - وذلك لحقيقة أن التربة، فى نفس المكان الذى كان على الصومعة أن تقوم فيه تبعا لخطتى، كانت هشة للغاية، ورملية، وكان لابد لها أن تطرق، وأن تبطط حتى يصير قوامها صلبا، ويمكن أن يُبنى منها حائط رائع للحجرة المقبّبة. إلا أن الأداة الوحيدة التى كنت أملكها لتنفيذ هذا العمل لم تكن سوى جبهتى. وعلى هذا فقد كان على أن أندفع مصطدما بجبهتى فى التربة آلاف وآلاف المرات، طوال الأيام والليالى، ولقد كنت سعيدا عندما انبثقت منها الدماء، فقد كان ذلك برهانا على أن الجدران كانت قد بدأت تصبح أشد صلابة، وعلى هذا النحو، كما لابد أن الجميع سيؤيدوننى، كنت قد دفعت لصومعتى ثمنا غاليا.

ولقد حشدت محتويات مخازنى كلها فى الصومعة، كل ما يزيد وما يخرج عن حاجتى اليومية، مما كنت قد احتفظت به فى جحرى، وكل ما كنت قد عدت به من حملاتى الخارجية للصيد، كومته بداخلها، ولقد كانت الصومعة فسيحة للغاية حتى أن مئونة تكفى لأكثر من نصف العام لم تكن قد ملأتها وكان يمكننى بناء على ذلك أن أصنف مخازنى وأن أتجول بينها، وأداعبها، وأسعد بوفرتها، وبروائحها المتعددة، وأن أقدر كميتها على وجه الدقة، وعندما تحقق ذلك، أصبح فى إمكانى دائما أن أرتب أمورى تبعا له، وأن أقيم حساباتى، وأرسم خطط

الصيد المستقبلية، آخذا فى الاعتبار طبيعة كل فصل من فصول السنة.

ولقد مرت بى فترات، بينما كان زادى وفيرا إلى ذلك الحد، لم ألمس فيها لعدم رغبتى فى الطعام ذرة واحدة من المئونة التى كانت تغرق أنحاء الجحر، وربما كان ذلك نوعا من الحمق من جانبى!، ذلك أن انشغالى المتواصل بالمقاييس الدفاعية، كانت تتطلب تغييرا أو تعديلا ولو فى أضيق الحدود لآرائى عن أفضل الوسائل لتنظيم المبنى حتى يتناسب مع تلك الغاية. وكان يبدو لى فى أحيان أخرى أنه من قبيل المجازفة جعل الصومعة قاعدة للدفاع، ولقد كان تشعب الجحر يتيح لى إمكانيات مزدوجة؛ وبدا لى أنه مما يتفق مع الحذر أن أوزع مخزوناتى على نحو ما، وأن أضع بعضا منها فى حجرات معينة من الحجرات الصغرى، وعلى هذا فقد قمت بوضع علامة على كل ثالث حجرة - لِنَقُل - كمخزن احتياطى، أو كل رابع حجرة - كمخزن رئيسى، وعلى كل ثانى حجرة، كمخزن إضافى، وهكذا ... أو تجاهل ممرات معينة بأكملها، وعدم تخزين أى مئونة بها، وذلك حتى أبعد رائحتها عن مجال شم أى عدو، أو بأن أختار جزافا عدة غرف قليلة استنادا إلى بعدها عن المدخل الرئيسى. ولقد كانت كلا من هذه الخطط تتطلب بالطبع جهدا كبيرا، وكان على أن أفرغ من تدابيرى، ومن ثم أحمل مختزناتى إلى أماكنها الجديدة! كان فى وسعى حقا أن أقوم بذلك فى وقت فراغى، وبلا تعجل، فليس مما يثقل عليك مطلقا أن تحمل بين مخالبك مثل ذلك الطعام الفاخر، وأن تستلقى لكى تستريح حينما يحلو لك ذلك. أما ما يعد استمتاعا فعليا، فهو أن يقضم المرء من الطعام قضمة

عارضة بين الحين والآخر، لكن، ما لم يكن يسر حقا هو ما كان يتصادف حدوثه أحيانا، عندما ينتابك الوهم فجأة، فتتفزع ناهضا من نومك، وتتصور أن ذلك الترتيب القائم لمخازنك، ترتيب خاطيء تماما، وكلية، وأنه قد يؤدى إلى أخطار رهيبة، ولابد من أن يعدل فى وضعه الصحيح فورا، ولا يهم مدى إرهاقك، أو استغراقك فى النوم، وعلى هذا فقد كنت أندفع، كنت أطير، لم يكن وقتى يسمح لى بالتدبر، بينما تكاد تحرقنى الرغبة فى تنفيذ خطتى الجديدة المحكمة، المقنعة تماما، فأقبض على ما يتفق أن يكون فى متناول أسنانى، وأسحبه، أو أحمله بعيدا، متنهدا، متأوها، متعثرا، إلا أن شيئا لا يمكنه أن يرضينى، سوى تغيير تام للوضع الحالى للأشياء، ذلك الوضع الذى يبدو منذرا بالخطر المحقق. وهكذا حتى تعيدنى اليقظة الكاملة إلى صوابى شيئا فشيئا، ويمكننى بصعوبة أن أدرك حدة هلعى المفاجيء، فأستنشق فى عمق سكون مسكنى، الذى قمت أنا نفسى بتشويشه، راجعا إلى حيث كنت أستريح، مستغرقا فى النوم على الفور، مجهدا من جديد، و.. عند استيقاظى قد أجد فأرا معلقا بين مخالبى، كدليل راسخ على جهود الليل التى تبدو حينئذ فى الأغلب، وكأنها خيالية. ثم تأتى أحيان أخرى يبدو فيها أن تخزين مئونتى كلها فى مكان واحد هو أفضل الخطط على الإطلاق. فأية فائدة تلك التى يمكننى أن أجنيها من تناثر زادى فى الحجرات الصغيرة، وما هى الكمية التى يمكننى أن أختزنها فى تلك الحجرات على أى حال؟ كما أن كل ما يسعنى أن أكدسه هناك سوف يسد الممر، وسوف يصبح عائقا حينئذ بدلا من أن يكون عونا لى، فيما لو طوردت، وكان على أن ألجأ إلى الهرب. وإنها

لحماقة بالإضافة إلى هذا، لكنها أيضا حقيقة، فغرور المرء لا يشبعه سوى أن يرى مختزناته كلها مجتمعة معا فى مكان واحد، وهكذا يمكن للمرء بنظرة واحدة أن يقدر قيمة ما يمتلكه. كما أنه أليس من المحتمل أن يضيع جزء كبير عند تقسيم مئونتى على تلك الأقسام العديدة؟ كما أنه لن يكون بإمكانى أن أتجول للتفتيش خلال ممراتى كلها، والممرات الفرعية أيضا للتأكد من أن كل شىء على ما يرام. إن فكرة تقسيم مخزونى هى بالطبع فكرة طيبة، لكن لو أن المرء فقط كان يمتلك عدة حجرات شبيهة بصومعتى، عديد من مثل تلك الحجرة! حقا!، ومن ذا الذى يسعه أن يبنيها؟ لم يكن يمكن على كل حال بناؤها تبعا للتصميم الأساسى لجحرى فى صورته الأخيرة تلك. إلا أننى أقر بأن ذلك كان خطأ فى جحرى، وإنه لمن الخطأ دائما أن يكون لديك نموذج واحد فقط من أى شىء، وأعترف أيضا بأنه طوال ذلك الوقت الذى كنت أقوم فيه ببناء الجحر، كان تنبؤ غامض قد قام فى رأسى بأن على أن أبنى أكثر من صومعة واحدة، كان ذلك التنبؤ قد قام فى غموض، لكنه كان واضحا بما يكفى، لو أننى كنت فقط قد رحبت بالفكرة! إننى لم أستسلم لتلك الفكرة، فلقد أحسست بالضعف الشديد على مواجهة العمل الشاق الهائل الذى تتطلبه فكرة كهذه، وأكثر من هذا أحسست بالضعف الشديد حتى على الموافقة فيما بينى وبين نفسى على ضرورة مثل ذلك الجهد، وحاولت قدر استطاعتى أن أقنع نفسى بذلك الأمل الغامض فى أن البناء الذى قد يبدو ناقصا بوضوح فى حالة أخرى، سوف يبدو وافيا بالحاجة فى حالتى تلك الفريدة، الاستثنائية، الموفقة، ربما لأن ذلك التدبر كان الغرض منه هو وقاية (جبهتى) تلك

الأداة الفريدة فى نوعها، وعلى هذا فلم يكن لى سوى صومعة واحدة؛ إلا أن تنبؤاتى السابقة بأن صومعة واحدة لم تكن لتكفى، قد اختفت. وربما كان على أن أقنع نفسى بتلك الحجرة الواسعة، ذلك أن الحجرات الصغيرة لم تكن ببساطة لتغنى عنها، وعلى هذا، عندما نمى بداخلى هذا الاقتناع، بدأت مرة أخرى فى سحب كل محتويات مخازنى من تلك الحجرات الصغيرة إلى الصومعة. وأحسست بعد ذلك، لفترة من الوقت، بنوع من الراحة لإخلاء كل الحجرات والممرات، ولرؤية مخزوناتى، وهى تتزايد فى الصومعة، وتنبعث ألوانها وروائحها المختلطة، التى كانت كل رائحة منها تنعشنى على نحو خاص، وكل نوع من تلك الأنواع التى كان يمكننى أن أميزها حتى من على البعد، من أقصى الممرات النائية. ثم استمتعت عادة بفترات من الهدوء الخاص، غيرت خلالها مكان نومى تدريجيا، متجها دائما نحو مركز الجحر، وكنت دائما أستغرق أشد الاستغراق، وسط الروائح المختلطة، حتى لم أستطع أخيرا أن أكبح جماح نفسى، فاندفعت ذات ليلة إلى الصومعة، وطوحت بنفسى فى عنف وسط مخزوناتى، والتهمت أفضل ما وجدته فى متناولى، حتى امتلأت تماما. ساعات من السعادة لكنها خطرة، فلو وجد من يمكنه أن يستغلها لأمكنه أن يدمرنى فى سهولة، ودون أى مخاطرة. ولقد خسرت بهذا أيضا مخزنا كبيرا ثانيا أو ثالثا، ذلك أن الركام الوحيد الكبير من أكداس الأطعمة هو ما أغرانى، ولقد حاولت أن أضبط نفسى بشتى الطرق ضد هذا الخطر؛ وإن توزيع مخازنى فى الحجرات الصغيرة، كان فى الواقع هو أحد هذه الوسائل ، لكنه مثله لسوء الحظ، مثل باقى الوسائل، أفضى بى عن طريق

الأفكار إلى أن أظل أشد شراهة، تلك الشراهة التى تغلبت على ذكائى، واضطرتنى إلى تغيير خططى الدفاعية، حتى تتناسب مع نتائجها.

ولكى أستعيد هدوئى بعد مثل تلك الهفوات، قمت بمعاينة الجحر، وبعد أن أتممت إنجاز الإصلاحات الضرورية، كنت أتركها غالبا رغم ذلك لفترة قصيرة. وفى مثل تلك اللحظات كان تركها لفترات طويلة يبدو كما لو كان مؤلما للغاية، حتى لى أنا نفسى، إلا أننى أدركت بوضوح الحاجة إلى مثل حملاتى القصيرة المؤقتة. ولقد كنت أقترب دائما من الفتحة الخارجية في كل مرة بنوع من الإحساس بالخطر. وكنت أتجنب الاقتراب منه طوال فترات حياتى المنزلية، وكنت أبتعد تماما حتى عن المنعطفات الخارجية للبهو المؤدى إلى تلك الفتحة التى تنتهى إلى الخارج. وبالإضافة إلى هذا فلم يكن من السهل أن أتجول هناك، ذلك أننى كنت قد صممت هنالك بضعة ممرات ملتوية على هيئة محارة صغيرة، ولقد كنت قد بدأت بناء جحرى مبتدئا بتلك الممرات الملتوية، فى وقت لم يكن لدى فيه أدنى أمل فى الانتهاء من بنائه طبقا لمخططاتى، ولقد بدأت، على نحو أقرب إلى اللهو، من ذلك الركن، وهكذا أشبعت رغبتى فى العمل إشباعا شديدا، فى بناء جحر مضلل، كان يبدو لى وقتها درة كل الجحور مجتمعة، ويمكننى الآن أن أنظر إليه، ربما بإنصاف أكثر على أنه ليس سوى ثمرة لاندفاعة عقيمة، وأنه غير جدير حقا بالانتساب إلى باقى تصميم الجحر، وعلى هذا فلعل المدخل الرئيسى كان هو الشىء الوحيد ذو القيمة فى ذلك الركن، ولقد قلت هذا فى تلك الأيام فى سخرية، مخاطبا أعدائى غير المنظورين، وأنا أتخيلهم جميعا وقد تم وقوعهم، واختناقهم فى تلك المتاهة الخارجية،

إنه فى الواقع عمل سخيف من أعمال الحيلة، سوف يتصدى بصعوبة لهجوم خطر، أو لصراع عدو فى الدفاع عن حياته. فهل يلزم حقا أن أعيد بناء ذلك الجزء من جحرى؟، لقد ظللت دائما أؤجل اتخاذ قرار فى هذا الشأن، وقد يبقى ذلك المدخل الملتوى كما هو، فبالإضافة إلى العمل المرهق الذى يتعين على أن أواجهه، فإن ذلك العمل سوف يكون أيضا من أكثر الأعمال التى يمكن أن يتصورها المرء خطورة.

كان فى مقدورى عندما بدأت العمل فى بناء الجحر، أن أعمل فى حفره، فى هدوء وتأمل عقلى، ولم تكن المجازفة أشد خطورة من أى من المجازفات الأخرى، إلا أن محاولة ذلك الآن سوف تلفت أنظار العالم كله، بلا داع، إلى جحرى. إن ذلك الأمر مستحيل الآن تماما، وإننى لسعيد بذلك للغاية، ذلك أنه مازال لدى ميل إلى ذلك التصميم الأول الذى أنجزته فى البداية. ولو حدثت محاولة خطيرة لمهاجمتى، فهل ينقذنى أى تصميم من تصميمات المداخل؟ من الممكن للمدخل أن يضلل المتصدى للهجوم، وأن يقوده إلى طريق مسدود، وفى وسع المدخل أن يلقى فى روع المهاجم رعبا لا حد له، وفى إمكان المدخل الحالى هو أيضا أن يقوم بذلك الدور على نحو ما. إلا أن هجوما حقيقيا خطيرا يجب أن يقابل بتجنيد فورى لكل ما فى الجحر من إمكانيات، وبكل قوى جسدى وروحى - وهذا شىء بديهى بالطبع. وعلى هذا ففى وسع ذلك المدخل أن يبقى تماما حيث هو.

إن الجحر ملىء بعيوب عديدة لا سبيل إلى دفعها، فرضتها ظروف وأسباب طبيعية، ولهذا ففى وسعه أن يحتمل ذلك العيب أيضا بكل التأكيد الذى أعد مسئولا عنه، والذى أدركه على أنه واحد من عيوب

الجحر، ولو أننى لم أدرك ذلك إلا بعد فوات الوقت، وعلى الرغم من ذلك، فلست أنكر أن الخطأ لا يفتأ يبعث الخوف فى نفسى من حين لآخر، وإنه ليزعجنى فى الحقيقة، على الدوام! وحين أتجنب فى تجولاتى المعتادة ذلك الجزء من الجحر، فإنما يرجع سبب ذلك أساسا إلى أن رؤيته تؤلمنى، لأننى لم أرغب فى أن أذكر دائما بخلل فى بيتى، حتى ولو كان ذلك الخلل، حاضرا فى ذهنى دائما على نحو غاية فى الإزعاج. فليواصل وجوده على تلك الصورة التى لا سبيل إلى إزالتها عند المدخل، ففى استطاعتى على الأقل أن أرفض النظر إليه بقدر ما يسعنى ذلك الرفض. ولو أننى سرت فقط فى اتجاه المدخل، حتى ولو كانت تفصلنى عنه بضعة من الممرات والحجرات، فإننى أشعر برياح خطر داهم، كما لو كان شعرى قد أخذ يتلاشى، وربما تركنى بعد لحظة هاربا، وتركنى عاريا أرتعد، معرضا لعواء أعدائى. نعم، إن مجرد التفكير فى باب الخروج ليجلب لى معه مثل ذلك الشعور، إلا أن الطرقة الملتوية التى تؤدى إليه، إنما هى ما يعذبنى أكثر من أى شىء آخر، وإننى لأحلم أحيانا بأننى قد قمت بإعادة بناء تلك الطرقة، وأننى قد غيرت تصميمها تغييرا تاما، بسرعة، فى ليلة واحدة، بقوة شيطانية خارقة دون أن يلحظ ذلك أحد، وأنه قد أصبح مدخلا منيعا الآن، وإننى لأدرك أن الليالى التى كانت تجيئنى فيها مثل تلك الأحلام، كانت أحلى الليالى وأسعدها، وكانت دموع الفرح والخلاص تظل تلمع على لحيتى عندما أستيقظ.

ولهذا فإنه يتعين على أن أفك تلك التعقيدات المؤلمة التى يعكسها على هذا المنحنى الملتوى جسديا وعقليا كلما حاولت الخروج، وإننى لينتابنى السخط والتأثر، كما يحدث لى أحيانا عندما أفقد السيطرة

على نفسي في داخل ذلك التيه الذي أمتلكه، ويتبدى لي ما صنعته يداي، وكأنه يحاول أن يثبت كفاءته لي أنا نفسي، صانعه الذي لم يحكم بعد حكمه النهائي عليه.

إلا أنني أجدني بعد ذلك تحت طبقة الأعشاب الجافة التي تكون سدة فتحة الخروج، والتي تكون قد ظلت طويلا دون أن تمس - منذ أن قبعت طوال تلك الفترة في داخل منزلي - حتى أنها تكون قد أصبحت متجانسة مع التربة التي تحيط بها، ولا تتطلب الآن سوى دفعة واحدة من رأسي، أصبح بعدها في العالم العلوي. وإنني لأظل فترة طويلة دون أن أجرؤ على الإتيان بتلك الدفعة من رأسي، ولو لم يكن على أن أجتاز ذلك التيه مرة أخرى لكنت دون شك قد عدلت عن الخروج، واستدرت راجعا من حيث أتيت. ولنتدبر قليلا أمر تلك المسألة! إن لك منزلا محصنا، ومكتفياً بذاته، وإنك لتعيش في سلام ودفء، وتتغذى على نحو طيب، تعيش سيدا، السيد الوحيد لكل ممراتك وحجراتك العديدة، التي قمت بإعدادها بنفسك. ويتبدى هذا كله ليس فقط على أنه سيكف عن تتبعك، بل إنه ليتبدى بالفعل على أنه سيهجرك، سيتخلى عنك، وإنك لتداعب الأمل الواثق لاشك، بأنك ستعود فتتملكه ثانية؛ لكن أليست تلك مغامرة خطرة، غاية الخطورة تلهو بها؟ هل ثمة أي أساس معقول لمثل تلك الخطورة؟ لا.. لا يوجد أسس معقولة لمثل تلك الأحوال. إلا أنني في الوقت نفسه سرعان ما أرفع الغطاء الخفي، وأنزلق خارجا، ومن ثم أتركه يسقط خلفي ثانية بنعومة، وأطير بأسرع ما يمكنني مبتعدا عن تلك البقعة المضللة. لكنني لست حرا في الحقيقة! حقا إنني لست محبوسا بعد بين الممرات الضيقة، بل أندفع وسط الغابات والأعشاب

المفتوحة، وأحس بقوى جديدة تتمطى مستيقظة فى جسدى، لم تكن من قبل عندما كانت فى داخل الجحر، تجد مجالا ليقظتها، ولا هى حتى وجدته فى داخل الصومعة، على الرغم من أنها أوسع عشر مرات من حجم الممرات، كما أن الطعام أيضا أفضل هنا فى أعلى، ورغم أن الصيد أكثر صعوبة، وأن التوفيق عزيز المنال، إلا أن النتائج تكون أكثر قيمة من كل الوجوه، لست أنكر هذا كله، بل أقدر قيمته، وأستمتع به قدر طاقتى كما يفعل معظم الحيوانات، وربما أكثر من باقى الحيوانات. لأننى لا أصيد بصورة مشتتة، كما لو كنت مشردا، أو بدافع من اليأس، وإنما أصيد فى ثبات، ووفقا لأصول قواعد الصيد. كما أننى أيضا، لا أنساق تماما لهذه الحياة الحرة، لأننى أعلم أن فترة صيدى محدودة، وأنه ليس لى أن أنساق هنا وراء الصيد إلى ما لا نهاية، وأننى عندما أمل هذه الحياة، وأفكر فى مغادرتها، فإن امرأ ممن لن أقوى على مقاومة دعوته، سوف يدعونى إليه مثلا، وعلى هذا ففى وسعى أن أقضى وقتى هنا هادئا، دون مبالاة، وفى سعادة تامة، أو أنه يمكننى أن أفعل ذلك، لكننى لا أقدر فى الوقت نفسه أن أفعله. ذلك أن جحرى يشغل معظم أفكارى، إننى أندفع من الفتحة بسرعة شديدة، إلا أننى سرعان ما أعود إليها ثانية. إننى أبحث عن مكان أختبىء فيه فى الخارج، وأظل أرقب مدخل بيتى - هذه المرة من خارجه - لأيام طويلة وليال. سمها حماقة إن شئت؛ فإنها تجلب لى سعادة لا حد لها، وتطمئننى. وفى مثل تلك الأوقات يبدو على كما لو كنت لا أنظر إلى منزلى، بل أنظر إلى نفسى مستغرقا فى النوم، مستمتعا بإغفاءة عميقة، بينما أمارس فى الوقت نفسه القيام بدور الحارس

اليقظ على نفسي. حينئذ يكون فى إمكانى بالفعل، ليس فقط أن أحلم بأشباح الليل بثقة النوم العمياء، وعجزه، وإنما أن أتصدى لهم أيضا فى واقع الأمر، بحكمة اليقظة التامة الهادئة! وأكتشف على نحو شديد الغرابة أن وضعى ليس سيئا جدا كما كنت أظن فى أغلب الأحيان، وكما لعلنى سوف أظن بعدما أقفل راجعا إلى منزلى. فى هذا المقام ـ وربما فى غيره أيضا، لكن فى هذا المقام على وجه الخصوص ـ تعد رحلاتى هذه ضرورية حقا. ورغم أننى كنت قد اخترت بعناية طريقاً متطرفا لمكان الباب، فإن حركة المرور التى تمر به شديدة جدا مع ذلك، لو أن المرء قد قام فعلا بملاحظة أسبوعية؛ ولاشك أنها كذلك فى كل المناطق المسكونة، وربما كان من الأفضل أن يجازف المرء وسط حركة المرور الشديدة الخطرة، التى تجرف خطرها بعيدا فى تيارها الشديد، عن أن يقبع فى عزلة تامة، فى انتظار أول دخيل عنيد متطفل. إن الأعداء هنا لا حصر لهم، وإن اتحادهم وتواطأهم ما يزال شديدا، إلا أنهم يحاربون بعضهم البعض، ويمكننى ـ بينما يشغلهم ذلك ـ أن أهرب نافذا بجلدى دون أن يلحظوا هربى. ولم أر طوال كل ذلك الوقت الذى قضيته وأنا أرقب مدخل مجرى، أحدا يتفحص بابه الحقيقى، الذى لا شك سيكون قدره وقدرى فى نفس الوقت، ذلك أننى سوف أنقض دون شك، مطبقا على حنجرته، ناسيا كل شىء آخر فى قلقى على الجحر. وقد كان يجىء فى الواقع بعض الطفيليين الذين لم أكن أجرؤ على الاقتراب منهم، بل كنت أهرب بمجرد أن أشم رائحتهم من على البعد، ولا يمكننى فى الحقيقة أن أعلن على وجه التحديد إن كانت وجهتهم الجحر أم لا؛ إلا أن ما كان يبعث الطمأنينة فى قلبى، أننى لم

أكن أجد أحدا منهم عندما كنت أرجع فورا إلى الجحر، كما أننى كنت أجد المدخل سليما، لم يمسسه سوء. وكانت هنالك ثمة فترات من السعادة، كان يمكننى فيها أن أحدث نفسى بأن عداء الدنيا لى قد توقف، أو هدأ، أو أن قوة الجحر كانت قد رفعتنى فوق صراع الماضى المهلك. ولعل الجحر كان قد حصننى بوسائل كثيرة ما كنت أتوقعها أو أجرؤ على التفكير فيها، عندما أكون بداخله. إن هذا التصور قد ظل مسيطرا على، حتى أننى أحيانا ما كنت أجدنى فى قبضة تلك الرغبة الصبيانية فى عدم العودة إلى الجحر ثانية، وإنما أن أستقر فى مكان ما بالقرب من المدخل، وأن أقضى حياتى كلها فى مراقبته. ولقد استغرقت طويلا فى تأمل - وفى ذلك كنت أجد سعادتى - مدى رسوخ تلك الحماية التى يوفرها لى الجحر لو أننى كنت فى داخله. حسنا. إن المرء ليستيقظ سريعا بقسوة من مثل تلك الأحلام الصبيانية. فما الذى تهدف إليه تلك الحماية التى أنظر إليها الآن هنا من الخارج. بعد كل شيء؟ هل توجد لدى الجرأة لتقدير الخطر الذى يتهددنى عندما أكون بداخل الجحر، عن طريق الملاحظات التى أقوم بها عندما أكون خارجه؟ وهل يتسنى لأعدائى - ولنبدأ بذلك - أن يكون لديهم دراية بى عندما لا أكون بداخل جحرى؟ لاشك أن لديهم دراية بشئونى على نحو ما، إلا أنها دراية غير تامة، ولكن ألا تعد تلك الدراية التامة، هى التحديد الفعلى لصورة من صور الخطر؟ إن التجارب التى أحاول القيام بها هنا إذاً، ليست سوى أنصاف تجارب، وربما أقل من أنصاف تجارب، أقوم بإجرائها لمجرد أن أطرد بها مخاوفى، وأتزود منها بطمأنينة زائفة، لكى أستلقى عرضة للأخطار المهلكة. لا، لست

أرقب نومي كما تخيلت، لكنني نائم فعلا، بينما المخرب هو من يرقب، وربما كان واحدا من هؤلاء الذين مروا بالمدخل دون أن يبدو عليهم أنهم قد لاحظوا وجوده، فقط على سبيل التأكيد - تماما مثلما أفعل أنا نفسي - بأن المدخل لم يمس، وأنه في انتظار هجومهم، وأنهم إنما يمرون لعلمهم بأن (سيد) الجحر في الخارج، أو لأنهم يعلمون جيدا أنه بصراحة مستلق للمراقبة وسط الأعشاب المجاورة. ولقد تركت (برج) مراقبتي، وأحسست أنني قد حصلت على ما يكفيني من تلك الحياة الخارجية، وأحسست بأنه لا يوجد المزيد مما يمكن أن أتعلمه هنا، لا الآن، ولا في أي وقت آخر، وتمنيت أن أقول وداعا لكل شيء هنا فوق الأرض، وأن أهبط إلى أسفل، إلى أعماق جحري دون رجعة إلى الأبد، تاركا الأمور تجري في مجراها المقدر له، ولا أحاول أن أعوقها بسهراتي العقيمة، لكنني بعد أن راقبت ما كان يجري حول المدخل طوال ذلك الوقت، وجدت صعوبة شديدة في لم شتات نفسي لاتخاذ قرار نهائي بالهبوط الفعلي، الذي قد يلفت أنظار أي كائن بسهولة، ودون أن أدري ماذا يحدث خلفي، وخلف المدخل بعد أن يتم إغلاقه. ولقد استفدت من الليالي العاصفة في تخطي المبادرات الضرورية، فحزمت زادي بسرعة، ويبدو أن ذلك كان قد تم كما ينبغي، إلا أنه سوف يتضح، لكن ليس لي أو، لي.. بعد فوات الوقت. وعلى هذا فقد عدلت عن المحاولة، ولم أهبط. وحفرت مجسا، على بعد كاف بالطبع من المدخل الأصلي، مجسا عبارة عن خندق بطول جسمي وغطيته هو أيضا بالعشب الجاف، وزحفت إلى داخل خندقي ذاك، وأغلقته خلفي، وانتظرت في صبر، وظللت متيقظا لفترات طويلة،

وقصيرة، فى ساعات مختلفة من النهار، ثم أزحت العشب، وخرجت من الخندق، ودرست ملاحظاتى. ولقد كانت تلك الملاحظات متضاربة إلى أقصى حد، كما أنها كانت حسنة وسيئة فى وقت معا، إلا أننى لم أتمكن من اكتشاف قانون، أو طريقة مأمونة للهبوط، وكنتيجة لهذا كله لم أكن بعد قد حزمت أمرى على اتخاذ قرار بالهبوط الفعلى، وغرقت فى اليأس، ووجدتنى فى عجز تام أمام ضرورة إنهاء تلك المسألة على وجه السرعة. ولقد حومت طويلا حول فكرة اتخاذ قرار بالهجرة إلى أماكن نائية، و.. أن أمارس ثانية حياتى السابقة الشاقة، التى لا ضمان لها رغم ذلك، ولكنها سلسلة أخرى من الأخطار التى لا تفترق فى شىء عما يكتنفنى الآن من الأخطار، إلا أنها لهذا قد تكفينى عبء الشعور والخوف من أخطار محددة، كما أننى بقيت دائما أذكر تلك المقارنة بين جحرى الآمن، وبين تلك الحياة العادية. ولاشك أن مثل هذا القرار ـ لو اتخذته ـ سيكون عملا من أعمال الجنون المطبق، صادر فقط ـ ببساطة ـ عن سبق ممارسة الحياة الطويلة السابقة فى حرية فارغة. إن الجحر ما يزال جحرى، وليس على سوى أن أخطو خطوة واحدة، أكون بعدها آمنا. وخلصت نفسى من كل شكوكى، واندفعت نحو المدخل فى وضح النهار، وعزمت على أن أرفع سدته فى هدوء، لكننى لم أتمكن من أن أفعل ذلك، فأسرعت مبتعدا عنه، وألقيت بنفسى فى أحضان الأعشاب الشائكة عمدا، وكأننى أعاقب نفسى تكفيرا عن خطيئة ما، لا أدرى كنهها، ثم اضطررت أخيرا إلى أن أعترف لنفسى بأننى كنت محقا فى نهاية الأمر، وأنه من المستحيل حقا أن أهبط إلى الجحر دون أن أترك ذلك الشىء الذى أحبه غاية

الحب، ولو لفترة قليلة، تحت رحمة كل أعدائي، وسط الغابات، وعلى الأرض، في الهواء. وإن الخطر هو في الحقيقة مسألة خيالية، لكنها غاية في الواقعية في نفس الوقت. ولا يحتاج الأمر بالضرورة عدوا معينا قد يستفز، ويتعقبني، بل قد يتصادف أن يكون حيوانا صغيرا بريئا، أو حيوانا حقيرا قليل الشأن قد يتعقبني بدافع الفضول، وعلى هذا، ولأنني لا أعلم حقيقته، يصبح في نظري قائدا للعالم كله ضدي، ولعل الأمر ألا يكون كذلك - فمن الجائز ألا يكون الاحتمال أقل سوءا من غيره، وإنه لأسوأ بالفعل من بعض النواحي -، لأنه قد يكون واحدا من أبناء جلدتي، خبيرا، يقدر قيمة الجحور، أو.. متعبدا، أو مسالما، لكنه على كل الأحوال، وغد قذر، يرغب في أن يسكن جحورا لم يقم ببنائها. فلو قدر له أن يصل الآن بالفعل، ولو تمكن انسياقا مع شهوته القبيحة من اكتشاف المدخل، فراح ينبش لكي يفتحه، ويرفع الأعشاب والأتربة، ولو اتفق له أن نجح في ذلك، وتسنى له بالفعل أن يتلوى متخذا طريقه إلى أسفل، إلى داخل مسكني، حتى لم يتبق منه سوى مؤخرته خارج المدخل، لو أن هذا كله قدر له أن يحدث، حينئذ سوف ألقي بكل حرصي إلى الريح، وقد أندفع في غمرة هياجي الأعمى، فأثب فوقه، أسحقه، وأنزع لحمه عن عظامه، وأمزقه إربا، وأشرب دمه، ثم أضيف أشلاءه بعد ذلك إلى بقية غنائمي. لكنني قبل هذا كله - وهذا هو أهم ما في الأمر - أكون قد عدت ثانية إلى جحري في نفس الوقت. إن أعماقي لتهتز بالرغبة في أن ألقي التحية على المتاهة بغاية الفرح، إلا أن علي أولا أن أسحب الأعشاب والأتربة فوقي بعدما أصبح في الداخل، حينئذ سألوذ بالخلود إلى الراحة، على ما يبدو لي، طوال ما

يتبقى لى من الحياة. إلا أن أحدا لم يأت، ومازلت وحيدا فى مواجهة حلولى الخاصة لمشكلة العودة، مشغول البال دائما بالصعوبة البالغة التى تكتنف المحاولة. لقد تخلصت من الكثير من جبنى، فما عدت أحاول بعد حتى مجرد أن أبدو وكأننى أتجنب المدخل، بل لقد أصبحت هوايتى هى التجول حوله، ولقد كنت أبدو فى تلك الأثناء كما لو كنت جاسوساً معاديا أتحين الفرصة المناسبة للهجوم بنجاح إلى الداخل. فلو أن لى أحداً يمكننى أن أثق به حتى يقوم بالمراقبة فى مكانى، لأمكننى إذن أن أهبط فى غاية الهدوء العقلى، ولسوف أطلب من ذلك الحليف المخلص أن يعد تقريرا مفصلا عن الأحوال أثناء هبوطى وبعده بمدة كافية، ويمكنه أن يدق على غطاء الأعشاب الذى يسد مدخل الجحر لو رأى أى نذير بالخطر، فإذا لم يلحظ شيئا لا يفعل. فعلى هذا النحو يمكننى أن أتخلص تماما من كل مخاوفى، ولا يتبقى بعد ذلك ما أخشاه، أو سيتبقى على الأكثر أمين سرى ذاك، فهل من الممكن ألا يطالبنى بدوره بأداء خدمة ما له فى مقابل ذلك؟ ألن يبدى رغبته على الأقل فى رؤية الجحر؟ إن هذا الأمر فى حد ذاته سوف يؤلمنى غاية الألم، سوف يؤلمنى أن أسمح لأى كائن بأن يتجول بحرية فى داخل جحرى، فلقد بنيته لنفسى، وليس للزوار، وأعتقد أننى سأرفض أن أسمح له بالدخول، حتى ولو كان هو الذى مكننى من الدخول إلى الجحر لكى أسمح له بدوره هو أيضا بالدخول. إلا أننى ببساطة لن يسعنى أن أسمح له بذلك، لأنه سيتعين على بالمثل أن أدعه يدخل أولا، وهذا ما يبدو مستحيلا بصراحة، أو أن علينا أن ندخل معا ونهبط كلانا فى نفس الوقت، حينئذ سوف تصبح الفائدة التى أنتظرها من وجوده

بلا معنى. سوف تضيع الفائدة التى كنت أتوقع أن أجنيها من مراقبته للمكان أثناء هبوطى. ثم ما هى - فى الحقيقة - تلك الثقة التى يمكننى أن أضعها فيه حينئذ؟ هل يمكن أن تتساوى ثقتى فيمن أراه أمامى بعينى، مع ثقتى به عندما لا أعود أراه بعد مطلقا؟، حين تفصلنا سدة الأعشاب الجافة؟ يمكنك بسهولة أن تثق بأى شخص طالما تشرف عليه أو يمكنك مراقبته على الأقل، وربما كان من الممكن أيضا أن تثق فى شخص على بعد كاف، لكن أن تثق فعلا فى شخص خارج الجحر بينما تكون أنت فى داخله؟، ربما أمكن أن يحدث هذا فى عالم آخر غير عالمنا، لكنه فى عالمنا مستحيل تماما فيما يبدو لى. وليست مثل هذه الاعتبارات أهم ما فى الأمر، ذلك أنه يكفى مجرد التفكير فى احتمال أن تمنع الأحداث التى لا نهاية لها، والتى يحفل بها الوجود، حليفى ذاك عن أداء واجبه على النحو الأكمل أثناء هبوطى أو بعده، وكم من النتائج التى لا حصر لها، يمكن أن يخبئها لى مثل ذلك الحادث شديد التفاهة؟ لا.. لو أن المرء تدبر تلك الحالة ومضاعفاتها، فسيتضح أنه ليس لى أن أشكو من كونى وحيدا، وأنه ليس لى من أثق به فقط سوى نفسى وجحرى. ولقد سبق لى أن فكرت فى ذلك من قبل، وأعددت نفسى لمواجهة الصعوبات التى تشغلنى الآن! ولقد كان من الممكن على نحو ما أن يقع حادث من ذلك القبيل عندما بدأت فى بناء الجحر، وقد كان على أن أبنى الممر الأول ليكون ذا مدخلين، تفصل كل منهما عن الآخر مسافة معقولة. وعلى هذا فبعد الهبوط خلال أحد الممرين بذلك البطء الذى لا سبيل إلى تجنبه، يمكننى أن أندفع فورا خلال الممر إلى المدخل الآخر، وأرفع السدة الجافة المكونة من الأعشاب والأتربة

التي ستكون قد أعدت بحيث يسهل رفعها، ومن هناك يمكنني أن أرقب الحال لعدة أيام وليال! كان من الممكن أن يكون هذا هو السبيل الوحيد لحل هذه المشكلة! حقا، إن المدخلين سيضاعفان الخطر، إلا أن هذا الخاطر لم يكن ليعطلني، لأن أحد الممرين سيستخدم فقط كبرج للمراقبة، وسيكون ضيقا للغاية. ولقد استغرقتني دوامة شديدة من التفكير فنيا بشأن التنفيذ، وبدأت مرة أخرى أداعب أحلامي بجحر كامل تماما، ولقد هدأ ذلك من قلقي إلى حد ما، ورأيت بعيني المغلقتين في فرح، حيلا معمارية متكاملة أو شبه متكاملة، تساعدني على أن أنسل خارجا، أو أنزلق إلى الداخل دون أن يلحظني أحد. وبينما كنت أستلقي هنالك مستغرقا في مثل تلك الأفكار، غلبني الإعجاب الزائد بمثل تلك الحيل المعمارية، لكنني أعجبت بها فقط كحلول فنية، لا كمميزات فعلية، فكيف تبدو قيمتها، لو نظرنا إليها من زاوية تلك الحرية التي يتوجب عليها أن توفرها لي في الانسلال إلى الخارج أو إلى الداخل تبعا لرغبتي الخالصة؟ إنها دليل على طبيعة قلقة، على شك داخلي، على رغبات شائنة، ونزعات شريرة ما تزال تتبدى أشد سوءا عندما يفكر المرء في الجحر الذي يقع هناك في متناول يد المرء، ويمكنه أن يفيض على المرء بالأمان لو كان في مقدوره فقط أن يظل متفتحا تماما، وواعيا. إنني الآن، مازلت رغم ذلك خارجه، أبحث عن بعض الوسائل التي تتيح لي العودة إليه، ولهذا فإن الخدع المعمارية الضرورية ستظل مطلوبة، لكنها قد لا تكون مطلوبة بالفعل إلى ذلك الحد في نهاية الأمر! أليس ظلما بالغا للجحر أن ينظر المرء إليه في لحظات الفزع العصبي على أنه مجرد حفرة، يمكنه أن يزحف إليها ليكون آمنا؟

لاشك أنه حفرة مثل باقى الحفر الأخرى، ولاشك أنها حفرة مأمونة، أو ينبغى أن تكون مأمونة. وعندما أتخيل نفسى وسط الخطر، فإننى حينئذ أصر، وأنا أكز على أسنانى، وبكل عنادى، على أن الجحر لا ينبغى له أن يكون شيئا سوى حفرة فقط قد أعدت لإنقاذى، وأنه ينبغى عليها أن تضطلع بتنفيذ تلك المهمة الصريحة المحددة بكل ما يمكنها من الكفاءة، وإننى لعلى أتم الاستعداد لأن أعفيه حينئذ من كل واجباته الأخرى. وإن حقيقة الأمر الآن - ولا يسع المرء أن يلاحظ ذلك فى لحظات الخطر الشديد، بل إن ملاحظتها لتتطلب منه جهدا فائقا عندما يتهدده الخطر بالفعل - هى أن الجحر يقدم فى الواقع جانبا لا يستهان به من الأمان، لكنه لا يكفى بحال من الأحوال، فهل يتاح للمرء أن يتخلص من قلقه عندما يكون فى داخله؟ إن هذا القلق ليختلف عن القلق العادى، إنه قلق مزهو، فياض فى إشباعه، وغالبا ما يكون مكبوتا منذ أمد طويل، إلا أن أثر ذلك القلق ليتساوى إلى حد بعيد مع أثر القلق الذى ينتج عن وجود المرء فى العالم الخارجى. فلو كنت قد قمت ببناء الجحر لكى أؤمن سلامتى بصفة خاصة، لما كنت قد اكتأبت حقا، بغض النظر عن العلاقة بين الجهد الهائل المبذول فى بنائه، وبين الأمان الفعلى الذى قد يحققه لى، على الأقل، على قدر ما يسعنى أن أشعر بذلك، وأفيد منه، لاتضح من هذا أن المشروع لم يكن فى صالحى. وإنه لمن المؤلم إلى أبعد الحدود أن يضطر المرء إلى أن يقر بمثل هذه الأشياء فيما بينه وبين نفسه، إلا أن المرء ليضطر إلى أن يفعل ذلك عندما يواجه بمثل ذلك المدخل هنالك، وقد أغلق نفسه الآن بالفعل، وأحاط نفسه بحاجز فى مواجهتى أنا منشئه ومالكه. لكن

الجحر بعد هذا كله ليس مجرد حفرة يلجأ إليها المرء. فعندما أقف في الصومعة محاطا بأكوام الخزين، متفحصا الممرات العشرة التي هناك بنظراتي، تلك الممرات الصاعدة والهابطة، الرأسية والمنحنية، والواسعة والضيقة، تبعاً لما فرضته الخطة العامة لبناء الجحر، عندما أتفحصها وهي ساكنة وفارغة جميعا، متأهبة بدروبها المتعددة لكي تقودني إلى سائر الحجرات التي تقبع ساكنة وخالية هي أيضا، حينئذ تكون كل الأفكار عن الأماكن في ذاتها قد أصبحت أبعد ما تكون عن ذهني. وأشعر إذ ذاك بأنني هنا في قلعتي التي استخلصتها من التربة العنيدة بالأنياب والمخالب، بضربات الهرس والدق، قلعتي التي لا يمكنها أن تنتمي لأي كائن آخر سواي، وإنها لتنتمي إلى في جوهر وجودها، لدرجة أنني أتقبل في هدوء، وأنا بداخلها، حتى ضربات أعدائي القاضية في ساعتي الأخيرة، ذلك أن دمي سوف يفيض وينتشر هنا فوق تربتي الخاصة، وأنه لن يضيع. وإلا فأي شيء غير ذلك يمكنه أن يعطي معنى لتلك الساعات الهانئة التي أقضيها حينا ناعسا في سلام، ومترقبا أحيانا في سعادة، بداخل تلك الممرات، تلك الممرات التي تناسبني إلى أبعد الحدود، حيث يمكنني أن أتمدد مستلقيا في ارتياح، وأتدحرج هنا وهنالك في فرح صبياني، وحيث أستلقي وأحلم، أو أستغرق في نوم هانيء عميق. أما الحجرات الصغيرة التي أعرفها، حتى أنني ليسعني أن أميز بينها في وضوح بعيني المغلقتين، على الرغم من تشابهها التام جميعا، بمجرد لمس حوائطها، فهي تضمني بأمان ودفء أكثر مما يمنحه العش لطائر، كما أن كل شيء هاديء بداخلها، كل شيء هاديء، وخال!.

لكن لو كانت تلك هى القضية، فما الذى يجعلنى أقف بعيدا؟. لماذا أتفزع من فكرة العدو المتطفل، أكثر مما تفزعنى فكرة عدم العودة ثانية إلى جحرى؟! حسنا، إن الاحتمال الأخير هو - لحسن الحظ - مستحيل، فليست بى أدنى حاجة حتى لمجرد أن أعلم ما الذى يعنيه الجحر بالنسبة لى، وإننى والجحر لننتمى إلى بعضنا البعض على نحو لا يقبل الجدل، حتى أننى على الرغم من كل مخاوفى، يمكننى أن أظل مرتاحا تمام الارتياح هنا خارجه، ولست فى حاجة إلى أن أتغلب على نفورى، وأن أفتح المدخل! فى وسعى أن أبقى، مقتنعا غاية الاقتناع بأن أواصل انتظارى هنا باستسلام، ذلك أن شيئا لا يمكنه أن يفصله عنى إلى الأبد، ولأننى بشكل أو بآخر سيجدنى ثانية بلا ريب فى داخل جحرى! لكن كم من الوقت سوف يمر فى هذه الحالة، قبل أن يتم حدوث ذلك؟، وكم من الأمور قد تقع فى تلك الأثناء، سواء هنا فوق ، أو هنالك فى أسفل؟ وهنا استبدت بى فكرة أن على أن أضع حدا لتلك الحالة، وأن أفعل فورا ما لابد من فعله.

بعد ذلك، وبعد إجهاد عنيف حتى أننى لم أعد قادرا على التفكير، فقد كان رأسى يتطوح، وكانت ساقاى ترتعشان من شدة الإرهاق، وكان النعاس يغالبنى، وبينما كنت أتحسس طريقى وأتلمسه، ولا أقول إننى كنت أسير، على هذا النحو اقتربت من المدخل ورفعت الغطاء المكون من الأعشاب الجافة ببطء، وببطء هبطت تاركا الباب مفتوحا فى ذهولى، لفترة طويلة لا داعى لها، إلا أننى سرعان ما أدركت إهمالى، وخرجت ثانية لتدارك ذلك الإهمال - لكن ما هى الحاجة التى تقتضينى أن أخرج ثانية لكى أفعل ذلك؟ إن كل ما كنت أحتاجه كان أن أسحب

الغطاء المكون من الأعشاب الجافة، وعلى هذا فقد زحفت، وسحبت الأعشاب الجافة أخيرا! بهذه الصورة، وعلى هذا النحو فقط، كنت بالفعل قد هبطت - وهكذا استلقيت أخيرا تحت الأعشاب، فوق الأتربة المصطبغة بدمائي، وأصبح في وسعي الآن أن أحقق رغبتي في النوم.

لم يزعجني شيء، ولم يتعقبني أحد إلى أسفل، وفوق الغطاء المكون من الأعشاب كان كل شيء يبدو هادئا على ما يبدو، لكن لو لم يكن شيء على ما يرام، فهل يتعين على أن أقف الآن للمراقبة؟ لقد غيرت مكاني، تركت العالم الخارجي، وأنا الآن في جحري، ولقد أحسست بأثره على الفور! إنه عالم جديد، يمدني بقوى جديدة، وما أحسسته من التعب هناك في أعلى لم يعد كذلك هنا. لقد عدت من رحلة، متعب ككلب ضال من طول حراستي، إلا أن مرأى البيت العتيد، والتفكير في كل الأشياء التي تنتظر إنجازها، على الأقل، ضرورة إلقاء نظرة على كل الحجرات، بل التوجه قبل هذا كله مباشرة إلى الصومعة. لقد حول ذلك إرهاقي إلى حماس حار كما لو كنت عندما وضعت قدمي في الجحر، قد استيقظت من نوم طويل عميق. إن واجبي الأول، واجب شاق للغاية، ويتطلب كل انتباهي، وأعني به رفع الأتربة خلال ممرات المتاهة الضيقة، رفيعة الجدران. وقد دفعتها بكل قواي، وتم إنجاز العمل، لكن في غاية البطء بالنسبة لي، ولكي أسرع به سحبت مرة أخرى قطعة من اللحم الذي كنت قد غنمته في رحلتي، ودفعتها أمامي، وشققت طريقي فوقها، والآن لم يتبق لي فقط خلفي سوى قطعة واحدة من غنائمي كلها، وكان التقدم قد أصبح أكثر سهولة، إلا أن طريقي

كان مسدودا بكتلة اللحم التى تتقدمنى فى داخل تلك الممرات الضيقة، التى لم يكن يمكننى أن أجتازها دائما فى سهولة عندما أكون بمفردى، لكى أنزلق فى يسر وسط مخازنى، وكان يمكننى أحيانا أن أنقذ نفسى من ضغطها بأن آكل بنفسى ما يشغل المساحة التى أود أن أخليها لنفسى. إلا أن عملية النقل كانت ناجحة مع ذلك، فلقد أتممتها فى وقت معقول للغاية، وأصبحت المتاهة خلفى، وبلغت ممرا عاديا، وتنفست فى ارتياح، ودفعت أسلابى خلال ممر جانبى إلى أحد الممرات الرئيسية الذى كنت قد صممته خصيصا لهذا الغرض، وهو ممر ينحدر هابطا إلى أسفل بميل نحو الصومعة. أما ما تبقى أمامى لكى أقوم بأدائه فلم يكن يعد عملا بالمرة. كان حملى يتدحرج ويهبط إلى أسفل غالبا من تلقاء نفسه، و.. الصومعة أخيرا! أخيرا يسعنى أن أجرؤ على التفكير فى الراحة. لم يكن ثمة شىء قد تغير، ولا كانت أية نكبة فاجعة قد حدثت. والعيوب الطفيفة القليلة التى لاحظتها لأول وهلة، كان يمكن إصلاحها فى الحال. لكن كان على، رغم ذلك، أن أمر مرورى الطويل أولا عبر كل الممرات، ولم تكن ثمة صعوبة فى ذلك، إنه لم يكن يعدو الاتصال ثانية بالأصدقاء، كما كنت أفعل على الأغلب، فى الأيام الغابرة أو ـ إننى لم أصبح عجوزا بعد إلى هذا الحد، إلا أن تذكرى لعديد من الأشياء قد أصبح مضطربا الآن للغاية ـ كما اعتقدت دائما أننى أفعل. وبدأت بالممر الثانى متعمدا ضبط جماح نفسى، ذلك أننى لو رأيت الصومعة مرة، فسوف يمتد وقتى إلى ما لا نهاية له ـ وفى داخل الجحر يمتد الوقت أمامى دائما إلى ما لا نهاية ـ لأن كل ما أفعله هنا، هو دائما عمل ذو قيمة، وبالغ الأهمية، ويجلب لى المتعة إلى غير حد.

بدأت بالممر الثانى، لكننى توقفت فى منتصفه، وتحولت إلى الممر الثالث، ثم تركته يقودنى ثانية إلى الصومعة، والآن على بالطبع أن أبدأ بالممر الثاني مرة أخرى، وهكذا فأنا ألهو مع واجباتي، وأطيل أمدها، وأبتسم لنفسي، وأهنىء نفسي، وأدوخ تماما من كثرة العمل الذى ينتظرنى، إلا أننى أبدا لا أفكر فى التنحى عن القيام به. إننى، من أجلك أيتها الممرات، والحجرات، وأنت أيتها الصومعة قبل كل ما عداك، قد عدت ثانية، معتبرا حياتي نفسها لا شيء، إذا قيست بك، بعد أن ارتعشت كل هذا الوقت بغباء خوفا عليها، مؤجلا عودتي إليك!. فماذا يهمنى من الخطر الآن بعد أن أصبحت معك؟ إنك تنتمين إلى، وإننى لأنتمى إليك، لقد اتحدنا، فما الذى يمكنه أن يصيبنا بمكروه؟ وماذا لو كان أعدائى قد تجمعوا هنالك الآن فى أعلى، بينما تتحفز أفواههم للاندفاع خلال سدة الأعشاب؟ وأجابنى الجحر بصمته وفراغه، مؤيدا كلماتى - لكن شعورا بالفتور قد غلبنى الآن، وكومت نفسى فى إحدى الغرف الأثيرة لدى متفكرا، لم أكن بعد قد تفقدت كل شيء بصورة تامة، على الرغم من أننى كنت ما أزال مزمعا أن أتفحص كل شيء إلى أقصى حد، و.. ليست لدى أية نية فى أن أنام هنا!، كنت فقط قد استسلمت لإغراء منح نفسى لحظة من لحظات الراحة، وتوهمت أننى أرغب فى النوم، ولقد رغبت فقط أن أرى ما إذا كان ذلك المكان الذى كنت قد اعتدت على اتخاذه مكانا لنومى، ما يزال مناسبا للنوم، ولقد كان، بل لقد كان يصلح للنوم أكثر مما يصلح لليقظة، ولقد ظللت مستلقيا حيث كنت فى إغفاءة عميقة.

ولابد أننى كنت قد استغرقت فى النوم مدة طويلة، ولقد استيقظت فقط عندما بلغت لحظات النعاس الأخيرة الخفيفة التى انقضت من

نفسها، ولابد أنها كانت خفيفة للغاية، ذلك أنه لم يكن على الأغلب سوى صفير خافت هو الذى تسبب فى إيقاظى. ولقد أدركت ذلك الصوت فورا، تلك الحشرة الضئيلة التى كنت قد تركت لها مجالا واسعا، فكان أن حفرت لنفسها مجرى جديدا فى مكان ما، أثناء غيابى، ولابد أن ذلك المجرى قد لفت انتباه حشرة أخرى أكبر منها، وكان الهواء ينفذ خلال ذلك المجرى، ويصدر عنه ذلك الصفير، فما هو الحد الذى يمكن أن تمل تلك الحشرات الصغيرة العمل عنده، وكم من الازعاج يسببه نشاطها الدائب! سوف أتسمع أولا إلى جدران ممراتى، ثم أحدد المكان الذى يصدر عنه الإزعاج عن طريق القيام بعمل مجسات، وحينئذ فقط سوف أتمكن من أن أتخلص من ذلك الصوت. وعلى أى حال، فلعل تلك القناة الجديدة أن تنفعنى كوسيلة من أطول وسائل التهوية لو أمكن إدماجها فى خطة تصميم الجحر، إلا أننى سوف أفتح عينى على اتساعهما فيما بعد على مثل تلك الحشرة الصغيرة بحدة أكثر مما اعتدت أن أفعل من قبل بشأنها، وسوف لا أستبقى منها حشرة واحدة.

ولأن لدى خبرة واسعة بالبحوث التى من هذا القبيل، فلعل الأمر لا يستغرقنى طويلا، وفى إمكانى أن أبدأه فورا، وإن أعمالا أخرى لتنتظرنى فى الحقيقة، إلا أن هذا هو أكثرها أهمية، فلابد للصمت من أن يسود كل ممراتى. ومع ذلك فهذا الصوت ليس سوى صوت برىء خافت بالنسبة لغيره، لم أكن أسمعه مطلقا عندما وصلت لتوى، رغم أنه لابد كان موجودا دون شك. لكن كان من الضرورى أن أشعر بالألفة التامة فى بيتى قبل أن يتيسر لى سماعه، وإنه ليسمع فقط لأذن صاحب

البيت وحده على ما يبدو لى، كما أنه لم يكن صوتا متصلا أيضا كما هو العهد بمثل تلك الأصوات، فثمة وقفات طويلة، كان سببها بوضوح انسدادات فى مجرى تيار الهواء! بدأت أبحاثى، إلا أننى لم أتمكن من العثور على المكان الصحيح الذى يمكننى أن أبدأ منه، ومع أننى قد حفرت بضعة مجسات، إلا أننى كنت قد حفرتها جزافا، ولم يكن لذلك بالطبع أى طائل، كما أن المجهود الشاق الذى أنفقته فى الحفر، وما ينتظرنى لملء هذه الفجوات ثانية، من مجهود أكثر مشقة، ثم تسوية التربة، ودقها حتى تتماسك، جهود شاقة للغاية كلها ضائعة سدى. ولم يكن يبدو أننى أقترب أبدا من المكان الذى كان يصدر عنه الصوت، فقد استمر منبعثا دائما بنفس خفوته، تتخلله وقفات منتظمة حينا كنوع من الصفير، وفى مرة أخرى كأصوات أزيز. ويمكننى الآن أن أترك تلك الأصوات وشأنها، إنها مزعجة غاية الإزعاج بلا ريب، إلا أن الشك فى أن يكون سببها هو ما أدركته فى بداية الأمر كان يقينا من الصعب أن يتزعزع، وعلى هذا فمن الصعب أن يزداد ارتفاع تلك الأصوات، بل إنها على العكس من ذلك قد تختفى من نفسها بمرور الوقت ـ رغم أننى لم يكن يسعنى حتى الآن أن أنتظر طويلا إلى هذا الحد، على أمل أن يحدث هذا ـ ربما اختفى الصوت نتيجة لاستمرار عمل هؤلاء الحفارين الصغار، كما أن الصدفة نفسها فى أغلب الأحيان يمكنها أن تضع يد المرء، فوق هذا، على سبب الإزعاج، حيث تفشل البحوث الطويلة المنتظمة. على هذا النحو هدأت نفسى، وشرعت ببساطة فى إكمال دورتى على الممرات، وزيارة الحجرات التى لم أكن بعد قد زرت الكثير منها منذ عودتى، وأخذت أمتع نفسى بتأمل الصومعة من وقت

لآخر. إلا أن قلقي لن يتركني، ولابد لي من أن أواصل بحثي. إن هذه الحشرات الصغيرة تتطلب الكثير، والكثير جدا من الوقت الذي كان يمكن أن يستغل على نحو أفضل. وفي الأحوال التي من قبيل حالتي تلك الراهنة، تجذبني عادة الجوانب الفنية من الأمر، فالضوضاء مثلا في إمكان أذني أن تميز حتى أدق أصدائها، حتى لقد أصبح لهذه الضوضاء شكل معين واضح غاية الوضوح بالنسبة لي حتى ليمكنني تبعا لذلك أن أستنتج سببها، وإنني لأوشك الآن أن أحترق شوقا إلى معرفة مدى صحة استنتاجي.

وليس في إمكاني الآن أن أشعر بالأمان، لعدد من الأسباب المقنعة، طالما أن استنتاجي ذاك لم تثبت بعد صحته. حتى لو تكشف الأمر عن حبة من الرمل قد تكون سقطت من أحد الجدران، وتدحرجت نحو المجرى، وإن صوتا من هذا القبيل لهو أمر هين بلا شك لو نظرنا إليه من هذه الزاوية، لكنه سواء كان أمرا هينا أو مهماً، فإنني لم أتمكن من أن أجد شيئا، رغم كل جهودي الشاقة التي أنفقتها في البحث. قلت لنفسي: (و.. لعلني أن أكون قد وجدت الكثير، إذا كان قد قدر لذلك أن يحدث في حجرتي)، وسرت مسافة طويلة بعيدا عنها، نحو نصف الممر المؤدي إلى الحجرة المجاورة، وكنت قد سرت تلك المسافة فقط على سبيل المزاح، موهما نفسي بأن حجرتي المفضلة لم تكن لتلقى اللوم وحدها، لأن ثمة إزعاج أيضا في كل مكان آخر من الجحر، وبابتسامة على وجهي شرعت في التسمع، إلا أنني كففت لتوي عن الابتسام، فلقد قابلني بالفعل نفس الصفير هنا أيضا! و.. ليس ثمة شيء في الواقع يمكن أن ينزعج المرء بسببه، ذلك أنني أعتقد أحيانا أن أحدا سواي

لا يمكنه أن يسمع تلك الأصوات. حقا، إننى أسمعها الآن أشد وضوحا، ذلك لأن أذنى قد غدت الآن أشد حدة بطول المران، رغم أنه هو فى الواقع نفس الصوت تماما، مهما كان المكان الذى أحاول أن أتسمع إليه منه، وهذا ما انتهيت إلى الاقتناع به بعد مقارنة انطباعاتى! أو.. أنه كان يزداد ارتفاعا، وكنت قد تحققت من هذا عندما كنت قد تسمعت فى منتصف الممر، دون أن أضغط أذنى إلى الحائط، وإنما بأن أرهف سمعى فقط، و.. بأن أطرق برأسى نحو الأرض كذلك فى الحقيقة، حتى يصبح فى مقدورى أن أخمن أكثر من أن أسمع أدق أثر للضوضاء من وقت لآخر. إلا أن شدة تشابه الصوت فى كل مكان هو أشد ما كان يزعجنى، ذلك لأنه لم يكن ليتوافق مع أوهامى الأولى عنه، فهل أفلحت حقا فى التكهن بمبعث ذلك الصوت؟، إنه لابد يصدر إذن بقوة شديدة من أحد الأماكن الثابتة، التى يتعين على أن أكتشفها، لكنه أصبح خافتا بعد ذلك، فأشد خفوتا!، فلو لم تتطابق افتراضاتى مع الواقع، فماذا يكون التفسير؟ هنا، ما يزال يبقى احتمال أن يكون هناك صوتان، وأننى كنت حتى الآن أتسمع من مسافة بعيدة، متساوية البعد عن كلا المركزين اللذين يصدر عنهما كل من الصوتين، و.. أن الصوت يزداد ارتفاعا كلما اقتربت من أحدهما، وأن النتيجة الأخيرة تبقى تقريبا كما هى بالنسبة للأذن، نتيجة لشدة الصوت الصادر من المركز الآخر. ولقد تخيلت الآن فى أحيان كثيرة، عندما استمعت بعناية، أن فى إمكانى أن أميز، ولو بكثير من الإبهام، اختلافات فى درجة الصوت تؤيد هذا الافتراض الأخير. وعلى أية حال، يجب على أن أمد مجال أبحاثى أبعد كثيرا مما فعلت حتى الآن. ولهذا هبطت الممر نحو

الصومعة، وبدأت أتسمع هناك! غريب! نفس الصوت هنا أيضا ! والآن لابد أنه صوت صادر عن حفر طائفة من الحشرات الصغيرة، التى استغلت غيابى بصورة فاضحة، وعلى أية حال، فليس لديهم أى نوايا فى إلحاق أى أذى بى. إنهم ببساطة مشغولون بعملهم، وطالما أن أى من العقبات لن تعترض طريقهم، فسوف يمضون قدما فى الاتجاه الذى اتخذوه. إننى أعلم هذا كله، إلا أن كونهم قد اجترأوا على الاقتراب من الصومعة ذاتها، أمر غير مفهوم لى، وإنه ليملؤنى حيرة، ويشوش الطاقات التى أحتاجها غاية الحاجة لإنجاز العمل الذى ينتظرنى. ليست لدى أية رغبة هنا فى أن أعرف ما إذا كان السبب هو العمق المبالغ فيه، الذى تستقر عنده الصومعة، أو أنه اتساعها الهائل، وطاقتها التى تستتبعه فى شفط الهواء، والتى تتيح لها أن تبعث الفزع فى الحشرات الحافرة، وتعمل على تشتيتها بعيدا، أو.. مجرد حقيقة أنها هى «الصومعة» التى وصل خبرها إلى عقولهم الغبية عن طريق مجرى أو آخر.

ولم ألحظ مطلقا على أى حال، دليل واحد للحفر حتى الآن فى حوائط الصومعة. لقد أتت إلى هنا جماعات من الحشرات الضئيلة، منجذبة بالروائح النفاذة، هذه مسألة واقعة، و.. بهذا أكون قد وضعت يدى على أرض دائمة للصيد. إلا أن من أطاردهم، قد حفروا دائما طريقا خلال الممرات العليا، قادمين بسرعة إلى هنا، خائفين إلى حد ما، لكنهم غير قادرين على الصمود أمام مثل ذلك الإغراء. لكن يبدو لى أنهم يحفرون الآن فى كل الممرات، فلو كنت قد نفذت أفضل تلك التصميمات الهائلة الرائعة التى كنت قد درستها فى شبابى، وفى فترة نضجى المبكرة،

أو كنت قد امتلكت فقط القدرة على تنفيذها، لأننى لم تكن تنقصنى الإرادة! فقد كان أى من هذه التصميمات، التى كنت قد درستها يقضى بأن أعزل الصومعة من كل جوانبها، فيما عدا أساس ضيق كان يتحتم على تركه - لسوء الحظ - لكى يحمل التصميم كله. ولقد لازمتنى دائما صورة تلك المساحة الخالية - وما كان ذلك بلا مبرر - كما تلازمنى أحب التخيلات. فإلى أى حد يفيض المرء بالسعادة، عندما يرقد ملتصقا، ضاغطا جسمه إلى الحائط الخارجى المستدير، ينهض إلى أعلى، ويترك نفسه لينزلق ثانية إلى أسفل، ويفقد توازنه، ليجد نفسه فوق أرض صلبة، ويلعب كل تلك الألعاب بتفاصيلها على مقربة من الصومعة، لكن دون أن يدخلها، و.. أن يتجنب المرء الصومعة، ويريح ناظريه من التطلع إليها حينما يحلو له ذلك، وأن يؤجل الفرح بمرآها إلى حين، وألا يستعملها، لكن فقط يحتضنها آمنة بين راحتيه - إنه شىء يعد مستحيلا طالما أن لك مدخلا واحدا عاديا مفتوحا إلى داخلها - و يكون فى وسعك فوق هذا كله أن تقف حارسا عليها، وتكون - على هذا النحو - متمتعا غاية المتعة بتجنب الرؤية المباشرة لها، حتى أنه لو تعين على المرء أن يختار بين أن يقضى حياته كلها إما فى داخل الصومعة، وإما فى المساحة الخالية التى تحيطها من الخارج لاختار الأخيرة، راضيا بالتجول إلى أعلى، وإلى أسفل طوال اليوم، حارسا للصومعة! حينئذ لن تكون ثمة أصوات هنالك، صادرة عن الجدران، ولا حشرة وقحة تحفر فى اتجاه الصومعة نفسها، ولسوف يستتب السلام هنالك، وسأكون حارسه، ولن يكون على حينئذ أن أتسمع باشمئزاز إلى حفر حشرة ضئيلة كتلك، بل أكون سعيدا لاستماعى إلى شىء لا يتاح لى سماعه الآن مطلقا، هو صمت الصومعة الهامس!.

إلا أن ذلك الحلم البديع قد انقضى وقته، وعلى الآن أن أشرع فى العمل، سعيدا غاية السعادة بأن لعملى الآن علاقة مباشرة بالصومعة، لأن ذلك سيدعم وجودها. ويسعنى أن أرى دون شك، بغاية الوضوح، أننى فى حاجة إلى كل طاقتى لهذا العمل الذى يبدو وكأنه عمل عارض. وإننى لأتسمع الآن إلى حوائط الصومعة، ومن حيث أتسمع فى أعلى، أو فى أسفل، عند السقف أو فى الأرضية، عند المدخل أو فى الأركان، فى كل مكان، وفى أى مكان، تصلنى نفس الضوضاء! وكم من الوقت، كم من العناية الفائقة، قد تبدد فى التسمع إلى تلك الضوضاء، بتوقفها المنتظم! فى إمكان المرء أن يجد عزاء طفيفا خادعا فى حقيقة أنه، هنا فى الصومعة، لا يسمع لاتساعها شيئا بالمرة، كما يمكن أن يتضح ذلك من الممرات، لو توقف المرء خلف حوائطها، وغالبا ما أقوم بهذه التجربة فقط كنوع من الراحة، وكوسيلة لاسترداد هدوئى، فأتسمع بانتباه، وأكون سعيدا غاية السعادة عندما لا أسمع شيئا. لكن تبقى المشكلة كما هى، ما الذى قد يحدث؟ حين أواجه بهذا اللغز يتهاوى تفسيرى الأصلى، كاملا إلى الأرض. لكننى لابد من أن أطرح أيضا تفسيرات أخرى تنبثق من تلقاء نفسها، ففى مقدور المرء أن يزعم مثلا على سبيل المثال أن الضوضاء التى أسمعها هى تلك الأصوات التى تحدثها تلك الكائنات الضئيلة أثناء عملها، إلا أن خبراتى كلها لا تتفق مع ذلك، فلا يمكننى أن أسمع الآن فجأة شيئا لم أسمعه مطلقا من قبل، على الرغم من وجوده دائما هنالك. وربما تكون حساسيتى للاضطرابات داخل الجحر قد أخذت تتزايد بمرور السنين، إلا أن سمعى قد غدا ـ بشكل ما ـ أشد إرهافا، وإنه لمن طبع أية حشرة ضئيلة ألا

يسمع لها صوت، فهل ترانى قد تساهلت معهم من ناحية أخرى؟ إن في مقدورى، ولو خاطرت بالموت جوعا، أن أبيدهم جميعا. لكننى ربما - وإن هذه الفكرة لتلح على الآن - كنت أتعامل هنا مع بعض الحيوانات التى لا أعرفها. من الممكن أن يكون الأمر كذلك. لقد خبرت الحياة طويلا هنا فى أسفل، بدراية كافية، إلا أن العالم ملىء بالتنوع، ولا يفتقر إلى المفاجآت المؤلمة. إلا أنه لا يمكن أن يكون حيوانا واحدا، ولابد أن يكون هناك حشد كامل قد هبط فجأة فى دائرة أملاكى، حشد كامل رهيب من الحشرات الصغيرة، التى لابد لها دون شك أن تكون أكبر كثيرا فى الحجم من غيرها من الحشرات الصغيرة ما دام صوتها مسموعا إلى هذا الحد، إلا أن مثل تلك الحشرات لا يمكنها أن تكون كبيرة الحجم للغاية، ذلك أن الصوت الذى يصدر عن عملها هو صوت غاية فى الخفوت. ربما كانت إذن مجموعة من الحشرات مجهولة النوع، فى أثناء تجوالها، وقد اتفق لها أن مرت بالقرب منى، وقدر لها أن تزعجنى، إلا أنها سرعان ما تكف عن ذلك، وعلى هذا ففى مقدورى حقا أن أنتظر حتى ينتهى مرورها، ولست بحاجة لأن أتكبد مشقة العمل الذى يتضح أنه لم يكن له ثمة ما يبرره فى نهاية الأمر. لكن لو كانت تلك الحشرات غريبة حقا، فلماذا لم أعثر على أى منها؟ لقد حفرت لتوى جملة من الفجوات، آملا العثور على حشرة من بينها، إلا أننى لم أعثر على واحدة! ثم جاءنى أنها لابد أن تكون حشرات غاية فى الضآلة، أكثر ضآلة من كل ما عهدته من الحشرات، وأنه لا يمكنها فقط أن تحدث ضوضاء شديدة وتفحصت لهذا التربة التى حفرتها، وألقيت بكتل الأتربة فى الهواء، حتى أنها تفككت إلى ذرات دقيقة للغاية، لكن

لم يكن بينها أثر لصانعي الضوضاء هؤلاء. وببطء أدركت أننى بقيامى بحفر مثل تلك الحفر العشوائية الصغيرة، فإننى لن أنتهى إلى شيء، وأننى سأكون فقط قد شوهت بهذا العمل حوائط جحرى، خادشا بتعجل هنا وهنا دون أن أترك لنفسى فسحة من الوقت حتى أردم ثانية تلك الفجوات، وكانت قد تكومت للتو فى أماكن عديدة أكوام من الأتربة سدت طريقى، وحجبت عنى الرؤية، وكان ذلك إزعاجا آخر، فلم يعد يمكنني الآن أن أتجول فى أنحاء مسكنى، ولا أن أمعن النظر فى أنحائه، ولا أن أستريح، وغالبا ما كنت أتكوم مستغرقا فى النوم أثناء عملى فى حفرة أو أخرى، ومخلبى قابض على التربة فوق رأسى، وكأننى أحاول، وأنا فى غيبوبة، أن أمزق كائنا ما. ولقد عزمت الآن على أن أغير أساليب عملى، فلسوف أحفر حفرة واسعة متجهة بدقة فى اتجاه الصوت، ولن أتوقف عن الحفر حتى أضع يدى على السبب الحقيقى للضوضاء، بعيدا عن كل الافتراضات، ومن ثم أدمره، لو كان ذلك فى إمكانى، فإن لم يكن، فسوف أعرف الحقيقة على الأقل، ولسوف تجلب لى تلك الحقيقة الراحة، أو تسبب لى اليأس، لكنها سواء فى هذا أو ذاك ستكون فوق الشك أو التساؤل.

لقد منحنى هذا القرار قوة! إن كل ما فعلته حتى الآن يبدو لى متسرعا للغاية! إننى فى غمرة تأثرى لعودتى إلى الجحر، ولم أكن قد تخلصت بعد من اهتمامات العالم العلوى، ولا كنت قد تشربت سلام الجحر، ولأننى كنت حساسا غاية الحساسية لأننى كنت قد تركته طوال تلك الفترة كلها، فقد كنت غارقا فى اضطراب عقلى شامل بسبب ذلك الصوت غير المألوف. وماذا كان ذلك الصوت؟ مجرد صفير خافت

مسموع فقط لفترات طويلة، مجرد شيء لا أهمية له. ولست أقول أن بإمكان المرء أن يعتاده في سهولة، لأن أحدا لم يتمكن من أن يعتاده. لكن في إمكان المرء دون أن يملك إزاءه شيئا بالفعل للتو واللحظة، أن يلاحظة لفترة، وأن يتسمع كل ساعتين، ويمكنه أن يسجل نتائج ملاحظاته في أناة، دون أن يضغط أذنه إلى الحائط كما فعلت، أو يحفر كتلة من الأتربة كلما سمع أدنى صدى، لا أملا في أن يتوصل إلى شيء بالفعل، ولكن فقط لمجرد أن يفعل أي شيء يهدئ قلق المرء الداخلي. سوف يتغير هذا كله الآن كما أرجو! ثم بعينين مغلقتين ملتهبتين بالغضب، وجدتني أؤكد لنفسي أنني لست أرجو شيئا من هذا القبيل، ذلك أنني كنت أرتعش هائجا مائجا مازلت، كما كنت منذ ساعات. فإذا لم يتغلب على العقل، فلعلني أن أفعل شيئا آخر أجدى من مواصلة الحفر بعناد وتحد، فقط لمجرد الحفر، في مكان أو آخر، سواء أسمعت شيئا هنالك أم لم أسمع، مثلي في ذلك مثل تلك الحشرة الضئيلة نفسها، التي تحفر دونما سبب على الإطلاق، أو لأنها ببساطة تأكل التربة. ولقد أرضتني خطتي الجديدة البارعة، لجدتها وبراعتها، وهدأتني. ليس في تلك الخطة ثمة ما أعترض عليه، أو أنني على الأقل لست أرى ما يمكنني أن أعترض عليه، فهي قادرة - بقدر ما يمكنني أن أتوقع - على أن تحقق هدفي، إلا أنني لا أؤمن بها في أعماقي. وإنني لأعتقد فيها اعتقادا مزعزعا، حتى أنني لأخشى المخاوف التي قد يتسبب عنها نجاح تلك الخطة. ولست أعتقد حتى في النهاية الفاجعة. حقا، إنه يتضح لي أنني كنت قد فكرت منذ بداية وضوح الضوضاء، في مثل تلك الفجوة المثالية، ولكنني لم أبدأ في تنفيذها حتى الآن،

لأننى فقط لم أكن مقتنعا بجدواها، ولسوف أبدأ بالطبع، رغم ذلك فى تنفيذ تلك الحفرة، فليس أمامى سبيل آخر، إلا أننى لن أبدأ من فورى، وإنما سأؤجل ذلك لفترة قصيرة أخرى، ولو عاد عقلى إلى صوابه مرة أخرى، ولابد له أن يعود تماما إلى الصواب، فلن أندفع اندفاعا أعمى إلى عملى. وسوف أصلح أولا على أية حال، ذلك التدمير الذى أحدثته بالجحر، بحفرى الوحشى، وسوف يستغرقنى ذلك وقتا طويلا، إلا أنه ضرورى. ولو قدر للحفرة الجديدة أن تبلغ هدفها فقد تكون طويلة، أما إذا لم تنته إلى شىء أبدا، فسوف لا تكون لها نهاية، وعلى أية حال، فذلك العمل يعنى غيبة طويلة عن الجحر، إلا أن تلك الغيبة لن تكون مؤلمة بحال من الأحوال، نفس إيلام الغيبة فى العالم العلوى، لأن بإمكانى أن أقطع عملى عندما أحب، وأقوم بزيارة لمسكنى، وحتى إذا لم أقم بتلك الزيارة، فإن جو الصومعة سيكون مألوفا لى، وسيحيطنى فى أثناء عملى، لكن ذلك سيكون معناه فوق كل شىء أن أترك الجحر، وأن أعرض حياتى لمصير تحف به الأخطار، ولهذا فإننى أريد أن أترك الجحر خلفى فى حالة طيبة، حتى لا يقال إننى أنا الذى أناضل من أجل سلامته، قد دمرت بنفسى سلامته بعدم إعادة كل شىء إلى سابق عهده فورا. ولقد شرعت لهذا فى جرف الأتربة ثانية لردم الفجوات التى كان قد استخرج منها، وهذا نوع من العمل مألوف لى تماما، حتى لقد قمت به مرارا لا حصر لها دون أن أعتبره عملا فى الحقيقة، ودون أن أقوى على مقاومته عندما كنت أبدؤه فى كل مرة، وخاصة تبطيط التربة وتسويتها النهائية، وليس هذا تفاخرا فارغا، ولكنه الحقيقة المجردة. إلا أن كل شىء بدا صعبا هذه المرة، وإننى لفى غاية الحيرة، حتى أننى

أضغط أذني بين الحين والآخر أثناء قيامي بالعمل وأتسمع، وبلا شعور أترك الأتربة التي كنت قد رفعتها لتوي تنساب ثانية إلى الممر. أما التشطيب الأخير الذي يحتاج عناية فائقة، فلم أكن أقوى عليه مطلقا. وتبقت نتوءات بشعة، وشروخ مزعجة، هذا إذا تجاهلنا الحديث عن حقيقة أن الطفو القديم لا يمكن ترميمه ببساطة مرة أخرى، إذا رمم الحائط على هذا النحو. ولقد حاولت أن أعزي نفسي بفكرة أن عملي الحالي ما هو إلا عمل مؤقت، وأنني سوف أرمم كل شيء كما ينبغي عندما أعود بعد أن يحل السلام، ولن يكون العمل الذي ينتظرني حينئذ سوى مجرد لهو. نعم، إن العمل هو مجرد لهو في الحكايات الخرافية، وراحتي تدخل في نطاقات الحكايات الخرافية هي أيضا، ولقد كان من الأفضل لو تم العمل الآن فورا على أكمل وجه، وإنه لمما يعد أكثر تعقلا على وجه العموم، أن تقطع العمل وتواصل التجول عبر الممرات حتى تكتشف مصادر أخرى جديدة تنبعث منها الأصوات، وهو أمر سهل للغاية، فليس على المرء سوى أن يتوقف عند أي بقعة يختارها، ومن ثم يتسمع، ولم يكن هذا هو آخر اكتشافاتي العقيمة. فأحيانا ما كنت أتخيل أن الضوضاء قد توقفت، ذلك أنها كانت تتوقف لفترات طويلة، وكان يصعب أحيانا سماع ذلك الصفير الخافت، وحينئذ كان دم المرء كله يتدفق في صخب نحو أذنيه، ثم تنقضي فترات من فترات الصمت الواحدة بعد الأخرى، ويظن المرء لبرهة أن الصفير قد توقف إلى الأبد. حينئذ لا أواصل التسمع أكثر من ذلك، وإنما أقفز، و.. تتغير صورة الحياة كلها، ويبدو كما لو أن الينابيع التي كان يفيض منها سكون الجحر قد انفضت أختامها. حينئذ أكف عن دراسة اكتشافي فورا،

وأتمنى أن أعثر على أى شخص يمكنني أن أعهد إليه بكل ثقتى. ولهذا فإنني أندفع نحو الصومعة، وأتذكر، لأنني، ولأن كل شىء قد تفتح الآن على حياة جديدة، أنني لم أتناول شيئا من الطعام منذ وقت طويل، فأختطف شيئا أو آخر يكون مدفونا تحت الأنقاض وسط مخزن مئونتى، وفى سرعة أشرع فى التهامه، بينما أهرع ثانية إلى مكان اكتشافى الذى لا يكاد يصدقه عقل، إنني أريد حينئذ فقط أن أؤكد لنفسى صمته، عرضاً، وبلا اكتراث، أثناء تناول طعامى، و.. لقد تسمعت، وكشف لى أشد درجات التسمع استهتارا على الفور، أننى كنت قد خدعت بصورة فاضحة. فبعيدا هناك كان الصوت ما يزال منبعثا بلا توقف. وبصقت طعامى، ووددت لو أطأه بقدمى، ومن ثم أعود إلى عملى دون أن أقرر بأى عمل مما ينتظرنى من الأعمال أبدأ، كنت أريد أن أعمل فى أى مكان يبدو محتاجا إلى عملى، وكان هناك كثير من الأماكن على هذه الصورة، وشرعت تلقائيا فى استئناف عمل أو آخر، كما لو كان (الملاحظ) قد وصل لتوه، وكان لابد لى من افتعال الانهماك فى العمل فى وجوده. لكنني ما كدت أبدأ فى هذا، حتى تهيأ لى أننى ربما تمكنت من التوصل إلى اكتشاف آخر. فقد بدا الصوت كما لو كان قد أصبح أشد ارتفاعا طبعا ـ وهنا، يتجلى ذلك دوما فى شكل طبقا صوتية غاية فى المراوغة ـ لكنه يكون دائما فى الوقت نفسه على درجة من الارتفاع تتيح فقط للأذن أن تميزه فى وضوح، ويبدو الارتفاع فى الصوت كما لو كان اقترابا، ويبقى هذا الاقتراب أشد وضوحا عن سماعك لمجرد ارتفاعه، حتى أنك لتتمكن بالفعل من رؤية الخطوة التى تقربه منك، وتقفز مبتعدا عن الحائط إلى الخلف، وتحاول

أن تتنبأ فى الحال بكل العواقب المحتملة التى قد يسفر عنها ذلك الاكتشاف. وتحسس كما لو كنت حقا لم تجهز الجحر للدفاع ضد الهجمات، رغم أنك كنت قد انتويت أن تفعل ذلك، لكنك ترى رغم كل خبراتك فى الحياة خطر الهجوم، وحاجتك تبعا لذلك إلى تنظيم المكان للدفاع، بعيدة كل البعد - أو أنك لا تراها بعيدة بالأحرى، فكيف يتسنى لها أن تبدو كذلك؟ - لكن على خلاف تلك الدرجة من الأهمية، التى تحتم وضعها فى مكانها، حتى يمكن للمرء أن يحيا فى سلام، وهكذا فإن مثل تلك الاعتبارات لم تكن قد أوليت العناية الأولى فى كل ما يتصل ببناء الجحر. وعديد من الأشياء فى هذا الصدد، ربما كان إنجازها قد تم دون أن يتحد بالتصميم الكلى، أشياء كانت قد أهملت كلها بطريقة غير مفهومة. ولقد حالفتنى دفعة كبيرة من الحظ طوال تلك السنوات. لقد أفسدنى الحظ، ولقد كانت لدى الهموم، إلا أنها هموم لم تكن لتتمخض عن شىء، إذا كان ثمة حظ يؤازرك. وإن ما يجب فعله الآن، هو أن يفحص الجحر، وأن تدرس كل الوسائل الممكنة لتحصينه. أن تستنتج خطة للدفاع، وخطة مطابقة للبناء، ثم الشروع بعد ذلك فى العمل فورا بهمة الشباب. هذا هو العمل الذى يلزم حقا، والذى لا أجدنى بحاجة إلى القول بأنه متأخر جدا عن وقته الآن. لكن ما يلزمنى حقا، ليس حفر مجس هائل، لن يسفر بالفعل سوى عن توريطى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى فى البحث عن الخطر، بسبب الخوف الأحمق الذى سوف ينبعث بسرعة خارقة من تلقاء نفسه. وفجأة استغلقت على خطتى السابقة. لم أعد أجد أدنى أثر للعقل فيما كان يبدو معقولا للغاية. ومرة أخرى تركت العمل جانبا،

وحتى تسمعي كففت عنه هو أيضا، لم تعد لدى أدنى رغبة في أن أكتشف مزيدا من الدلائل على أن الصوت يتزايد، فلقد أصبح لدى ما يكفيني من الاكتشافات، لقد تركت كل شيء جانبا، وسأكون راضيا غاية الرضا لو استطعت فقط أن أتغلب على الصراع الذى يحتدم فى داخلي. وتركت الممرات تقودنى مرة أخرى إلى حيث تشاء، حتى بلغت أقصى، وأقصى تلك الممرات التى لم أكن قد رأيتها منذ عودتى، والتى كانت كما هى ما تزال، لم تمسسها بعد مخالبى المخربة، تلك الممرات التى ارتفع صدى صمتها ليلاقينى، ويغرقنى. إلا أننى لم أستسلم لها، وإنما أسرعت، لم أكن أدرى ما الذى أريده، ربما مجرد أن أنفق الوقت. ولقد أصابنى الشرود حتى وجدتنى عند المتاهة، وراودتنى فكرة التسمع تحت السدة الترابية. وقد استولت على اهتمامى فى تلك اللحظة مثل تلك الأشياء البعيدة الموغلة فى البعد، وتسمعت السكون العميق، كم هو ممتع هنا فى الخارج!، لا أحد يشغله أمر جحرى. لكل امرىء مشاغله الخاصة التى لا علاقة لها بى، فكيف تمكنت من أن أسمح للأمور أن تبلغ هذا الحد بقدرتى على الاستنتاج؟ هنا تحت السدة الترابية، ربما كان المكان الوحيد فى جحرى كله، الذى يمكننى أن أتسمع فيه لساعات، دون أن أسمع أى شيء. انقلاب تام لكل الأمور فى الجحر، فما كان ذات مرة يعد أخطر الأماكن فى الجحر، قد أصبح المكان الآمن الوحيد، بينما غرقت الصومعة فى الضوضاء، وأصبحت هدفا لكل أخطار العالم. لقد انهار كل شيء، فحتى هنا لا يوجد أمان فى الحقيقة، لم يتغير أى شيء هنا، لا الصمت ولا الضجيج. إن الخطر ليكمن فى المتاهة، كما كان يكمن من قبل فوق السدة الترابية، إلا أننى

قد فقدت حساسيتى تجاهه، وإن عقلى ليشغله الصفير المنبعث من الجدران، فهل انشغل عقلى به حقا؟، إنه يزداد ارتفاعا، ويزداد اقترابا، إلا أننى أتلوى خلال المتاهة، وأتخذ لنفسى هنا مرقدا تحت السدة الترابية، ويبدو على بالفعل كما لو كنت أترك مسكنى بالفعل متجها نحو مصدر الصفير، راضيا لو أننى فقط استطعت أن أجد هنا شيئا من السلام. أما بالنسبة لمصدر الصفير؟ فهل توصلت بعد هذا كله إلى جديد، فيما يتعلق بالسبب الذى يكمن خلف تلك الأصوات؟ إن تلك الأصوات بلا شك قد نتجت عن القنوات التى حفرتها تلك الحشرات الضئيلة؟ أليس هذا هو رأيى الذى ارتأيته؟ يبدو لى أننى لم أتراجع عنه قيد أنملة. ولو لم تكن تلك الضوضاء تصدر عن تلك القنوات مباشرة، فإنها لابد تصدر عنها، عن طريق غير مباشر. وحتى لو لم تكن لها بها أية علاقة، فليس المرء حرا فى أن يفترض افتراضات مسبقة، بل عليه أن ينتظر حتى يعثر على السبب، أو حتى تكشف المشكلة عن وجهها، وفى إمكان المرء أن يتلهى بالافتراضات طبعا، حتى ولو بلغ هذا الحد، .. فمن الممكن مثلا أن تكون هناك مياه تتدفق على بعد ما، وأن يكون هذا الصوت الذى يتبدى لى على أنه أزيز أو صفير، هو خرير الماء فى الواقع. لكن المياه الجوفية ـ بصرف النظر عن حقيقة أننى لا أملك خبرة فى هذا المجال ـ التى كنت قد صادفتها فى البداية، كنت قد انتشلتها بعيدا من فورى، ولا يمكن لتلك المياه أن تتسرب ثانية فى مثل تلك التربة الرملية وتعود إلى سابق مكانها، وبصرف النظر عن تلك الحقيقة، فإن الضوضاء هى صفير لا محل لإنكاره، ولا يمكننى ببساطة أن أتقبله على أنه خرير. إلا أن بالى لن يرتاح، ما لم أجد ما

يهدىء كل تلك الوساوس التى تتناوبنى. ولقد وصلت بالفعل إلى الاعتقاد - ولا يجدينى شيئا أن أنكر ذلك لنفسى - بأن الصفير إنما يصدر عن حيوان ما!، لم يكن حشدا كبيرا من الحيوانات الصغيرة، لكن حيواناً واحداً فقط هائل الحجم. كان هناك عديد من الدلائل التى تناقض ذلك، فقد كان من الممكن سماع الضوضاء فى كل مكان، وبنفس الدرجة من الارتفاع دائما، وعلى وتيرة واحدة فوق ذلك كله، فى أثناء الليل والنهار، لم يكن أمام المرء لهذا فى البدء سوى أن يتجه إلى فرض أن هناك حشداً كبيراً من الحيوانات الضئيلة، لكن لما كان على أن أعثر على بعضهم أثناء قيامى بالحفر، ولم أجد شيئا، لم يتبق أمامى سوى أن أفترض وجود حيوان هائل الحجم، خاصة وأن الدلائل التى كانت تبدو وكأنها تتناقض مع هذا الفرض، كانت مجرد أشياء تجعل من ذلك الحيوان - وليس وجود مثل ذلك الحيوان أمرا مستحيلا كما قد يبدو - كائنا خطرا إلى أبعد مما فى إمكان المرء أن يتصور حدا لخطورته! هل يجب على لهذا السبب وحده أن أتخلى عن ذلك الافتراض؟ سوف أكف عن ذلك الخداع الذاتى، ذلك أننى قد راودتنى لفترة طويلة فكرة إمكان سماع صوت ذلك الحيوان على مثل ذلك البعد، ما دام يعمل بكل تلك الوحشية، فهو يحفر بمثل تلك السرعة التى ينطلق بها حيوان فوق طريق ممهد، وإن الأرض لتهتز ما تزال تحت تأثير حفره، حتى عندما كان يتوقف! يتحد ذلك الترجيع للصدى وضوضاء الحفر نفسها فى صوت واحد على مثل ذلك البعد الشديد. وإننى عندما أسمع مجرد أصداء تلك الأصوات المتلاشية، فإننى أسمعها دائما بنفس قوتها الأصلية. وتبعا لهذا فإن الحيوان أيضا لا

يشق طريقه في اتجاهى، وذلك بملاحظة عدم تغير الصوت، بل يبدو كما لو كانت لديه خطة ما لا يمكنني تفسير هدفها، وإنني لأفترض فقط أن الحيوان - ولست أزعم مع ذلك، أنه يعلم بوجودى - إنما يعمل على تطويقي، فلعله أن يكون قد قام بحفر عدة دوائر حول جحرى، منذ أن بدأت في الإحساس بوجوده حتى الآن. إن طبيعة الضوضاء، والأزيز أو الخرير، تمدني بزاد وافر للتفكير. فعندما أحفر، وأجرف التربة على طريقتى الخاصة، فإن الصوت المنبعث يكون مختلفا تمام الاختلاف. ويمكنني أن أفسر الصفير فقط بهذه الطريقة : أن وسائل الحيوان الوحيدة للحفر ليست هي مخالبه، التي لعله أن يكون قد استخدمها فقط كوسيلة ثانوية، لكن خرطومه، وأنفه، لابد أنهما كانا في غاية الحدة بالطبع، بالإضافة إلى قوتهما الهائلة في مثل تلك الحالة. ولابد أن الحيوان كان يدفع خرطومه ذاك داخل التربة دفعة شديدة، فيمزق كتلة هائلة، ولا يتسنى لي أن أسمع شيئا حينما يفعل ذلك، فتكون تلك هي الوقفة التي ينقطع فيها صدور الصوت، إلا أنه يستنشق الهواء بعد ذلك استعدادا لدفعة أخرى، ولابد أن يكون شهيق ذلك الحيوان صوتا تهتز له التربة، ولا يكون ذلك لقوة الحيوان وحدها، وإنما أيضا لسرعته، ولشهوته العنيفة للعمل. وإن تلك الضوضاء لتصل بعدئذ إلى سمعي كصفير خافت. إلا أن طاقة الحيوان على العمل بلا توقف تظل مع ذلك غير مفهومة على الإطلاق. وربما كانت تلك الوقفات القصيرة تتيح له أيضا فرص انتزاع لحظات من الراحة، لكن يبدو أنه لم يكن يسمح لنفسه أبدا حتى الآن، بفترة راحة طويلة بالفعل فهو يواصل الحفر ليلا ونهارا دائما بنفس الحيوية والنشاط، ولا يكل من التفكير المتصل في

هدفه الذى يرى ضرورة إنجازه بأقصى تركيز، والذى يقترب فى يسر من الاكتمال. وإننى ليصعب على الآن أن أتكهن بطبيعة ذلك العدو. إلا أن ما يحدث الآن بصرف النظر عن صفات ذلك الحيوان الغريبة، كان قد ملأنى رعبا طوال الوقت. كان شيئا يخالف كل ما كنت قد أعددت نفسى دائما لمواجهته. كانت هناك حقيقة أن كائنا ما لابد سيصل! فكيف أمكن لكل تلك الأشياء أن تفيض بكل ذلك الهدوء، وأن تسبب لى كل تلك السعادة، طوال ذلك الوقت، فقط لكى تتسلمنى تلك المخاوف الآن؟، وقياسا على ذلك، فما هى بقية كل تلك الأخطار الوضيعة التى يخبئها لى الغيب، والتى أنفقت عمرى كله مهددا بها دون أن أدرى؟ كنت قد تمنيت كمالك للجحر أن أكون فى وضع أقوى من أى عدو قد يتصادف ظهوره. لكننى أعد أعزل تماما الآن بسبب ملكيتى لذلك المبنى المهدد، فى مواجهة أى هجوم جاد! إن سعادتى بامتلاكه قد أتلفتنى، ولقد جعلنى ضعف الجحر ضعيفا بدورى، وإن إصابته لتؤلمنى كما لو كنت أنا نفسى من أصيبت، وإنه على وجه الدقة هو ما كان يجب على أن أتوقعه، بدلا من التفكير فقط فى الدفاع عن نفسى ـ وما أشد ما تهاونت، وعبثت حتى فى تحقيق ذلك ـ كان يجب على أن أفكر فى الدفاع عن الجحر. وكان لابد من إعداد العدة قبل كل شىء لفصل أجزاء من الجحر، لفصل كل ما يمكن فصله منه، عن الأجزاء المعرضة للخطر فى وقت الهجوم، وكان لابد لإتمام ذلك من إحداث تصدعات فى التربة، بحيث تنهار فى نفس لحظة الخطر، ويجب أن تكون تلك التصدعات سميكة للغاية بالإضافة إلى ذلك، ولابد لها أن تكون حاجزا قويا حتى لا يتسنى للمهاجم أن يدرك أن الجحر الحقيقى إنما يبدأ فقط فى

الجانب الآخر من الحاجز. ولابد من أن يتم تدبير تلك الانهيارات بعد ذلك بحيث لا تخفى الجحر فقط، بل وتدفن المهاجم أيضاً. إلا أننى لم أنهض بأقل محاولة لتنفيذ مثل تلك الخطة، ولم يتم تنفيذ شىء مطلقا فى هذا الشأن. لقد كنت منعدم التفكير كالأطفال، وكنت قد أنفقت سنوات شبابى فى ألعاب صبيانية، ولم أفعل أى شىء سوى السخرية حتى بفكرة الخطر، ولقد تهربت بالفعل من تدبر الخطر الفعلى، وعلى هذا فلم أكن أستحق أى نذير.

ولم يحدث من قبل بالطبع ما يشبه الوضع الراهن، رغم أن ثمة حادثة لا تكاد تختلف عمّا يحدث الآن، كانت قد وقعت عندما كان الجحر ما يزال فى بدايته، ولقد كان الاختلاف الأساسى بين ما حدث فى ذلك الحين، وما هو واقع الآن هو ببساطة أن الجحر كان قد بدىء فى تنفيذه حينئذ فقط! ولم أكن بالفعل فى تلك الأيام سوى مجرد صبى متواضع فى العام الأول من بدء عمله، وكانت المتاهة قد تشكلت فقط فى خطوطها السريعة الخارجية، وكنت قد فرغت لتوى من حفر إحدى الحجرات الصغيرة، إلا أن النسب والتنفيذ كانا ملفقين على نحو مؤسف، وكان كل شىء باختصار تجريبيا لأقصى حد، حتى أن الجحر لم يكن يعد حينذاك سوى مجرد تمهيد. مجرد شىء، لو أن المرء هجره يوما، ففى إمكانه أن يتركه غير آسف! وذات يوم بينما كنت مستلقيا فوق كومة من الأتربة محاولا أن أستريح من العمل - ولقد استرحت من أعمالى كثيرا جدا طوال حياتى، سمعت فجأة ضوضاء على البعد، ولما كنت صغيرا فى ذلك الوقت، فلم ينتابنى الخوف، بقدر ما تملكنى الفضول، فتركت عملى جانبا، واستغرقت فى التسمع، ورحت أتسمع،

وأتسمع دون أن تستولى على الرغبة فى الاندفاع إلى أعلى نحو السدة الترابية لأتمدد هناك حتى لا أتمكن من سماع شيء! المهم أننى تسمعت على أية حال، وتبينت أن الضوضاء كانت تنبعث من بعض أعمال الحفر الشبيهة بأعمال الحفر التى أقوم بها، إلا أنها أضعف إلى حد ما بالطبع، لكن.. ما هو حجم أعمال الحفر، تلك التى يجرى تنفيذها على البعد؟، لا أحد يدرى! لقد كنت مهتما غاية الاهتمام، إلا أننى رغم ذلك، كنت هادئا، وباردا، وفكرت قائلا فى نفسى : لعلنى أن أكون الآن فى جحر شخص آخر، وربما كان المالك يشق الآن طريقه متجها نحوى، فلو اتضح لى أن ما افترضته كان صحيحا، فسوف أرحل، ذلك أنه لم تكن لدى أية نوازع للعدوان أو إراقة الدماء، وسوف أبدأ البناء فى أى مكان آخر. لكننى كنت قبل كل شيء، صغيرا، وكنت ما أزال بلا جحر، وعلى هذا ففى إمكانى أن أبقى باردا تماما، وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن أشد حالات الضوضاء لتقدم لى أى عون حقيقى على الإدراك، بل لقد كانت تستعصى تماما على التفسير. فلو كان من يحفر هناك قد اتخذ طريقه نحوى، لأنه كان قد سمعنى وأنا أقوم بالحفر، ثم لو أنه كان قد غير اتجاهه كما خيل إلى الآن بالفعل، لما أمكن للمرء أن يقطع بأنه إنما فعل ذلك لأن توقفى للراحة قد ضيع عليه الوجهة المحددة التى كان يحفر متجها إليها، أو لأنه - وهذا ما يبدو معقولا أكثر - كان هو نفسه قد غير خطته. إلا أننى ربما كنت قد خدعت فى ذلك كله، ولعله لم يكن يحفر بالفعل فى اتجاهى. وكان الصوت بعد كل لحظة يزداد ارتفاعاً لبرهة، كما لو كان يقترب، ولما كنت صغيراً حينذاك، فلعلنى ما كنت لأنزعج حتى لو وجدت الحفار

يخرج أمامي فجأة من باطن الأرض، إلا أن شيئا من هذا لم يحدث! وعند حد ما، بدأ صوت الحفر يضعف، وراح يخفت، ويخفت كما لو كان الحفار قد انحرف مبتعدا شيئا فشيئا عن طريقه الأول، ثم.. فجأة توقف نهائيا عن الحفر، كما لو كان قد قرر أخيرا أن يتخذ الوجهة الأخرى المقابلة، وأن يمضى فى خط مستقيم مبتعدا عن مكانى. وظللت مستمرا فى التسمع إليه فى سكون لوقت طويل قبل أن أعود ثانية إلى عملى! ولقد كان ذلك النذير حينئذ إنذارا صحيحا بدرجة كافية، لكننى سرعان ما نسيته. ونادرا ما كان له تأثير على خطط بنائى.

وبين ذلك اليوم البعيد، ويومنا هذا تكمن سنوات نضجى، لكن ألا يبدو كأن لم يكن ثمة فترة من الزمن تفصلهما على الإطلاق؟ إننى مازلت ألجأ إلى فترات طويلة من الراحة من أعمالى، وأتسمع إلى الحائط، كما أن الحفار فى هذه المرة أيضا قد غير خطته من جديد، ولقد استدار إلى الخلف، عائدا من رحلته، يظن أنه قد أعطانى فسحة من الوقت طوال تلك الفترة حتى أستعد لاستقباله. إلا أن كل شىء فى جانبى كان سيئا، مضطرب الإعداد عما كان عليه حينذاك. فالجحر الهائل يقف عاجزا عن أى دفاع، كما أننى لم أعد بعد صبيا صغيرا، لكن معماريا عجوزا، كما خانتنى كل الإمكانيات التى أتمتع بها عندما حانت اللحظة الحاسمة. لكننى ما دمت عجوزا إلى هذا الحد، فإنه يبدو لى أننى سوف أبقى دائما سعيدا بأننى عجوز، عجوز جدا حتى أننى لن أتمكن من أن أنهض ثانية من مكان راحتى تحت السدة الترابية. ذلك أننى لكى أكون شريفا، لا يمكننى أن أحتمل بقائى هنا، فنهضت، واندفعت كما لو كنت قد امتلأت هنالك بهموم جديدة بدلا من السلام،

هابطا إلى داخل المنزل مرة أخرى. فماذا كانت حالة الأمور فى تلك المرة الأخيرة التى وجدتنى فيها هنا؟ هل أصبح الصفير خافتا؟ لا. لقد غدا أشد ارتفاعا!، وتسمعت من عشرة أماكن اخترتها جزافا، وتيقنت بوضوح من خيبة أملى! إن الصفير كما كان من قبل، ولا شىء قد تغير! هناك فى أعلى أسفل السدة الترابية، لا يوجد ثمة اضطراب يحس به المرء، بل إن المرء ليكون فى سلام هنالك، مرتفعا فوق الزمن. لكن كل لحظة هنا، تبعث الاضطراب والرعدة فى المتسمع، ومرة أخرى عبرت الممر الطويل المؤدى إلى الصومعة، كان كل ما يحيطنى مثقلا بالاضطراب، وبدا كما لو كانت كل الأشياء تتفحصنى، ومن ثم تشيح بأنظارها بعيدا حتى لا تؤلمنى، إلا أنها لا تتحول عن محاولة قراءة الحل فى تعبيرات وجهى فى اللحظة التالية! هززت رأسى، فلم أكن قد عثرت بعد على أى حل، ولا كنت حتى قد اتجهت نحو الصومعة متعقبا أية خطة. ومررت بالبقعة التى كنت قد اعتزمت أن أحفر فيها المجس، وتطلعت إليها مرة أخرى، لقد كانت مكانا رائعا يمكننى أن أبدأ العمل فيه. وكان امتداد المجس سيتخذ الاتجاه الذى كان يمر بأغلب ثقوب التهوية الدقيقة التى كانت ستسهل مهمتى بصورة رائعة، ولعلنى ما كنت لأواصل الحفر إلى بعيد جدا، ولعلنى حتى ما كنت لأجدنى مضطرا إلى أن أحفر حتى أصل إلى مصدر الضوضاء. ولعلنى لو تسمعت خلال ثقوب التهوية لكان ذلك كافيا. إلا أن أى احتمال لم يكن كافيا تماما لكى يبعث فى النشاط حتى أقوم بالحفر. وقد تقول إن ذلك المجس كان سيأتينى باليقين؟ إلا أننى كنت قد بلغت حدا لم أعد راغبا عنده فى الحصول على أى يقين! وفى الصومعة اخترت قطعة طيبة من

اللحم الأحمر، وزحفت بها خلال أحد أكوام الأتربة، فهنالك سوف يمكنني على الأقل أن أحصل على الهدوء».. فإلى أى حد كان من الممكن أن يتوافر هنالك مثل ذلك الهدوء؟ ومضغت اللحم، وأنا أفكر فى الحيوان الغريب الذى يتخذ طريقه الخاص على البعد، ثم فكرت مرة أخرى فى أن أتمتع بمخزن أطعمتى، بأقصى ما يمكننى أن أفعل، طالما أن الفرصة ماتزال فى يدى. وربما كان هذا الحل الأخير هو على ما يبدو، الخطة الوحيدة التى كنت قد أهملتها، والتى كان يسعنى تنفيذها. أما فيما عدا ذلك، فلقد حاولت أن أكتشف سر خطط الحيوان! هل هو يتجول أم يعمل فى جحره الخاص؟ فلو أنه كان يتجول، فربما أمكن حينئذ التوصل معه إلى نوع من التفاهم، ولو أمكنه أن يندفع حقا إلى الجحر، فسوف أعطيه بعضا من محتويات مخزنى، ولسوف يمضى راجعا حينئذ من حيث أتى!، حكاية لطيفة!، يمكننى بالطبع أن أحلم بشتى أنواع الحلول، وأنا مستلق فوق كومة أتربتى،.أحلم حتى بالتفاهم مع الحيوان، على الرغم من أننى أعلم تمام العلم، أن شيئا من هذا لا يمكن أن يحدث، و.. أننا فى اللحظة التى سنواجه فيها أحدنا الآخر - بل أكثر من هذا - فى اللحظة التى سيعتقد عندها كل منا بمجرد وجود الآخر، سنكشف كلانا عن أنيابنا ومخالبنا بصورة عمياء، ولن يتأخر أحدنا لحظة واحدة عن الآخر، ولن يتقدم عليه لحظة واحدة، ولسوف يتضور كل منا بنوع جديد ومختلف من الجوع، حتى لو كنا كلانا قد التهمنا من فورنا كفايتنا من الطعام حتى أوشكنا على الانفجار من شدة الامتلاء. ذلك أنه - للحقيقة - من هو ذلك الحيوان الذى لن يغير خط سيره، وخططه التى اختطها جميعا للمستقبل عند رؤيته

للجحر، حتى ولو كان قد خرج حينذاك فقط بنية التجول؟ لكن ربما كان الحيوان يحفر فى جحره الخاص، حينئذ لن يمكننى حتى أن أحلم بأى تفاهم، و.. حتى لو كان فى وسع مثل ذلك الحيوان الغريب أن يتسامح مع جار على مقربة من جحره، فإنه لن يتغاضى عن جحرى، إنه لن يتغاضى بحال من الأحوال عن جار يمكنه أن يسمعه فى وضوح! إلا أن الحيوان يبدو الآن بالفعل على مسافة بعيدة جدا، فلو أنه انسحب مبتعدا قليلا أيضا، فربما اختفت الضوضاء، وربما أمكن للهدوء حينئذ أن يسود كل شىء، كما كان الحال فى الأيام الخوالى. ولسوف يصبح ذلك كله درسا مؤلما بعدئذ، لكنه مفيد، درس سوف يدفعنى فورا إلى القيام بإجراء مختلف الإصلاحات فى الجحر، فلو تحقق لى الأمان، ولم يعد يتهددنى الخطر، فإننى مازلت قادرا على ألوان العمل الشاق، وربما كان الحيوان قد تخلى عن فكرة توسيع جحره فى اتجاهى، نظرا للإمكانيات الهائلة التى تتيحها له طاقته على العمل، ووجد لنفسه عوضا عن ذلك فى اتجاه آخر. إن هذا التعويض بالطبع لا يمكن أن يتم أيضا بالمفاوضة لكن فقط برغبة الحيوان نفسه، أو عن طريق نوع من الضغط أمارسه عليه من جانبى. وفى كلتا الحالتين، سوف يكون العامل الحاسم هو ما يمكن أن يعلمه الحيوان عنى، وطبيعة تلك المعلومات. وكلما اشتد تفكيرى فى ذلك، كلما بدا لى مستحيلا أن يكون الحيوان حتى قد أحس بوجودى! ومن الممكن، على الرغم من عدم إمكان تصور ذلك، أن يكون قد حصل على معلومات عنى، عن طريق بعض القنوات الأخرى، إلا أنه بلا شك، لم يحس بوجودى، وطالما أننى لا أعلم عنه أى شىء، فإنه ببساطة لا يمكنه أن يكون قد سمعنى، لأننى

كنت قد ظللت هادئا غاية الهدوء طوال ذلك الوقت، فلا يمكن أن يكون ثمة ما يبعثني على الهدوء مثل عودتي إلى الجحر، وربما أمكنه أن يسمعني، فيما بعد، عندما حفرت المجسات، رغم أن طريقتي في الحفر لا تحدث سوى أصداء خافتة للغاية. لكن لو أنه كان قد سمعني فلابد أنني كنت سألحظ بعض الدلائل التي تدل على ذلك، ولابد أن الحيوان كان سيوقف عمله بين الفينة والأخرى لكي يتسمع إليّ، إلا أن كل شيء ظل كما هو بلا أدنى تغيير.

فى مستعمرة العقاب

«إنه جهاز رائع»!

قالها الضابط للرحالة، وبنظرة إعجاب زائدة، شمل الجهاز الذى كان مألوفا له تماما. وبدا الرحالة، وكأنه كان قد قبل فقط بدافع من التأدب، دعوة القومندان له، لكى يشهد تنفيذ حكم الإعدام فى جندى حكم عليه بالموت لعصيانه، وإهانته لأحد الرؤساء. ولم تكن المستعمرة نفسها تعير ذلك الإعدام اهتماما كبيرا. فلم يكن موجودا، على الأقل فى الوادى الرملى الصغير، الذى لم يكن سوى فجوة عميقة، كانت تحيطها من كل جوانبها، صخور عارية شامخة، سوى الضابط، والرحالة، والرجل المحكوم عليه بالإعدام، وهو مخلوق أبله، واسع الفم، ذو شعر مشعث، ووجه زائغ النظرات، والجندى الذى كان ممسكا بالسلسلة الثقيلة، التى تضم القيود الصغيرة التى كانت تطبق على رسغى ساقى السجين، ومعصميه، ورقبته، والتى كانت ترتبط بعضها البعض بحلقات مستديرة. ولقد بدت نظرة الرجل المحكوم عليه بالإعدام، نظرة بعيدة الشبه، على أية حال، بنظرة الكلب المذعن، حتى

ليتهيأ للمرء أن يظن أنه قد يتخلص من قيوده تلك، ليجرى مطلق السراح نحو التلال المحيطة فى أية لحظة، وأنه لم يكن ينتظر سوى إطلاق الصفير إيذانا له بالانطلاق، عندما كان على عملية تنفيذ حكم الإعدام فيه أن تبدأ مجراها.

ولم يحفل الرحالة كثيرا بالجهاز، وتمشى ذهابا وجيئة بلا مبالاة واضحة، بينما راح الضابط يجرى الترتيبات الأخيرة، زاحفا حينا تحت الجهاز الذى كان مدفونا فى الأرض إلى عمق بعيد الغور، ومرتقيا حينا آخر سلما لكى يتفحص أجزاءه العليا. ولعله كان من الأفضل لو تركت تلك الأعباء لكى يقوم بها عامل ميكانيكى، إلا أن الضابط قد قام بأدائها فى حماس زائد، ربما لأنه كان معجبا بالجهاز غاية الإعجاب، أو لأنه لأسباب أخرى، لم يكن يمكنه أن يثق بأى شخص آخر، حتى يقوم بدلا منه بتلك الترتيبات.

«كل شىء جاهز الآن». هتف أخيرا بذلك، وهبط السلم. بدا مترهلا بصورة غير عادية، متنفسا من خلال فمه المفتوح على آخره، وقد دس منديلين فاخرين من المناديل النسائية تحت ياقة ردائه.

«لا شك أن مثل ملابسك هذه، تعد ثقيلة للغاية بالنسبة إلى المناطق الحارة»، قالها الرحالة، بدلا من أن يوجه بعض الأسئلة عن الجهاز، ووافقه الضابط قائلا: «بالطبع»!، بينما كان يغسل يديه الملوثتين بالزيت والشحم فى دلو ممتلئ بالماء كان معدا فى انتظاره «إلا أنها تذكرنا بالوطن، فنحن لا نحب أن ننسى الوطن، والآن فلتلق نظرة فقط على تلك الآلة»، أضاف ذلك من فوره، بينما كان يجفف يديه بمنشفة، ويشير إلى الجهاز.

«كل شىء يجب، إلى الآن، أن يثبت باليد، لكن الآلة سوف تعمل من هذه اللحظة فصاعدا، كلية من تلقاء نفسها». فأطرق الرحالة، وتبعه. وقال الضابط، متخذا جانب الحذر، لتأمين نفسه ضد كل الظروف الطارئة: «وإن الأمور لتسير على نحو خاطىء بالطبع، فى بعض الأحيان، وآمل ألا يقع اليوم ثمة خطأ، إلا أن علينا أن نضع الاحتمالات، ولسوف تواصل الآلة عملها بصورة متواصلة لمدة اثنتى عشرة ساعة. ولو حدث أن اتخذ شىء ما طريقا خاطئا، فلن يكون ذلك سوى أمر بسيط، وسوف يمكن إصلاحه على الفور!».

وتساءل أخيرا قائلا : «ألا تريد مقعدا؟»، ساحبا مقعدا من الخيزران من بين كومة من المقاعد الخيزرانية، مقدما إياه إلى الرحالة، الذى لم يسعه أن يرفضه. كان جالسا الآن على حافة قبر، نظر فى داخله نظرة خاطفة. لم يكن قبرا عميقا، وكان التراب الناتج عن حفره مكوما فى هيئة سد، وكان الجهاز يربض فى الجانب الآخر.

قال الضابط : «لست أدرى، ما إذا كان القومندان قد وصف لك هذا الجهاز؟»، لوح الرحالة بيده فى غموض، و.. لم يكن الضابط ينتظر شيئا أكثر من ذلك، ما دام يمكنه الآن أن يشرح الجهاز بنفسه!، قال مستندا إليه، وممسكا بمقبض الذراع: «هذا الجهاز اخترعه قومندانـنا الأسبق، ولقد عاونته فى أولى تجاربه، وساهمت فى العمل حتى نهايته، إلا أن الفضل فى اختراعه يرجع إليه وحده. ألم تسمع مطلقا من قبل عن قومندانـنا الأسبق؟ لا؟ حسنا، إننا لا نبالغ فى القول لو قلنا لك إن هيئة مستعمرة الإعدام كلها هى نتاج جهده، ونحن الذين كنا أصدقاءه، نعلم حتى قبل أن يموت أن هيئة المستعمرة كانت كاملة

غاية الكمال، حتى أن خلفه، ولو تفتق ذهنه عن آلاف المشاريع الجديدة، كان سيجد أنه من المستحيل تماما تغيير أى شىء، على الأقل لمدة سنوات طويلة قادمة، ولقد صدق تنبؤنا، ولقد رأى القومندان الجديد أن عليه أن يقر بصدق هذا التنبؤ. وإنه لمما يؤسف له أنك لم تلتق من قبل بالقومندان القديم! لكن،.. قطع الضابط حديثه قائلا: «لقد شردت فى الحديث، وها هو جهازه أمامك، وإنه ليتألف كما ترى من أجزاء ثلاث. ولقد تطلبت بمرور الوقت كل من هذه الأجزاء الثلاثة اسما من الأسماء المستعارة؛ ولقد سمى الجزء الأسفل بـ «الفراش»، والجزء العلوى «الرسام»، وهذا الجزء، هنا فى الوسط، ذلك الذى يتحرك إلى أعلى، وإلى أسفل قد سمى بـ «المشط»! تساءل الرحالة قائلا: «المشط»؟، لم يكن يستمع إليه بانتباه كاف، وكانت انعكاسات ضوء الشمس شديدة غاية الشدة، فى الوادى الخالى من الظلال، ومن الصعب أن يجمع المرء شتات أفكاره. ولقد كان معجبا فوق هذا بالضابط، الذى كان رداؤه الثقيل فضفاضا جدا، على الرغم من ضيقه، وهابطا لثقله إلى أسفل، وثقل كل ما كان يحمله من الشرائط العسكرية، التى كانت كلها تتابع موضوع حديثه بغاية الحماس، والذى كان إلى جانب حديثه ذاك، ما يزال يضبط ربط مسمار هنا، ومسمار هناك، بمفتاح صمولة كان يحمله فى يده!، أما الجندى فقد كان يبدو عليه، كما لو كان فى نفس حالة الرحالة تماما، كان قد لف قيود السجين حول كلا معصميه، واعتمد على بندقيته، تاركا رأسه مدلاة، دون أن يعير شيئا أدنى اهتمام. ولم يندهش الرحالة لذلك، فقد كان الضابط يتحدث بالفرنسية، ولا شك أن الجندى لم يكن ليفقه لا هو ولا

السجين حرفا واحدا من تلك اللغة. إلا أنه كان واضحا على الرغم من ذلك أن السجين لم يكن يبذل جهدا أقل من جهد الجندى فى تتبعه لشرح الضابط. وبنوع من العناد النعسان كان يوجه نظراته إلى حيث كان الضابط يشير بإصبعه، وعندما كان ينقطع الحديث نتيجة لتساؤل الرحالة، كان ينظر هو أيضا حواليه، كما كان يفعل الضابط تماما.

قال الضابط: «نعم، المشط، وإنه لاسم يناسبه، ذلك أن الإبر موضوعة بمثل وضع أسنان المشط، كما أن مهمته كلها تتم على نحو مطابق لعمل المشط، على الرغم من أن حركته محدودة بمكان معين، ومدبرة بمهارة فنية فائقة، وسوف تفهم ذلك الآن، على أية حال. فهنا على «الفراش» يمدد الرجل المحكوم عليه ـ سوف أصف لك الجهاز أولا قبل أن أعده للعمل. فلسوف يمكنك حينئذ أن تتبع سير الإجراءات بصورة أفضل. وعلاوة على ذلك، فإن حال إحدى تروس «الرسام» سيئة، فهى تصر صريرا متواصلا أثناء الدوران، فلا يمكنك أن تسمع نفسك عندما تتحدث سوى بصعوبة بالغة، ويصعب الحصول على قطع الغيار هنا لسوء الحظ. حسنا، ها هو «الفراش» كما قلت لك، تغطيه تماما طبقة من القطن الطبى، وستعرف فيما بعد لماذا!، فوق ذلك القطن الطبى يوضع المحكوم عليه، وجهه إلى أسفل، عار تماما بالطبع، وتوجد هنا سيور لربط الأيدى، وسيور هنا للساقين، وهنا للعنق، وبهذا يمكن ربطه بشدة. وهنا عند رأس «الفراش»، حيث يضع الرجل رأسه، كما ذكرت من قبل، توجد تلك القطعة الصغيرة من الفلين، التى يمكن فى سهولة ضبطها بحيث تندفع مباشرة فى داخل فمه، والقصد من ذلك هو منعه من الصياح، ومن عض لسانه!، ويجد الرجل نفسه

مضطرا بالطبع إلى ابتلاع تلك الفلينة، وإلا انكسرت رقبته تحت ضغط السير الجلدى». وتساءل الرحالة، وهو يميل إلى الأمام : «هل هذا قطن طبى؟»، فقال الضابط بابتسامة : «نعم، بلا شك، يمكنك أن تتفحصه بنفسك»!، وجذب يد الرحالة، وسحبها إلى أعلى نحو «الفراش». إنه قطن طبى، قد أعد خصيصا لهذا الغرض، وهو لهذا يبدو مختلفا على هذا النحو، وسأذكر لك حالا، لماذا وضع!».

وأحس الرحالة لحظتها باهتمام مفاجيء بالجهاز، وظلل عينيه من أشعة الشمس بإحدى يديه، وتطلع إلى أعلى محملقا نحو الهيكل. كان تركيبا عملاقا. وكذلك كان «الفراش» و«الرسام» وكانا يبدوان كصندوقين خشبيين معتمين، وقد علق «الرسام» على ارتفاع يقارب المترين فوق «الفراش»، وثبت كل منها من جميع الجوانب، بأربعة قضبان نحاسية. كانت تعكس الأشعة فى ضوء الشمس فوق أغلب أجزاء الجهاز، وتحت هذين كان يتحرك «المشط» كالمكوك فوق شريط من الصلب.

وكان الضابط قد لاحظ على نحو ما، لا مبالاة الرحالة السابقة، لكنه قد شعر الآن باهتمامه المفاجيء، ولهذا توقف عن الشرح حتى يفسح له مجالا من الملاحظة المتأنية. وحذا السجين حذو الرحالة، ولما لم يكن يسعه أن يرفع يدا يظلل بها عينيه، فقد تطلع إلى أعلى نحو أشعة الشمس، دون أن يظللها.

قال الرحالة، مستندا بظهره إلى الخلف فى مقعده، واضعا ساقا فوق الأخرى: «حسنا، يستلقى الرجل...»، فقال الضابط: «نعم»، دافعا قبعته قليلا إلى الخلف، متحسسا وجهه الدافيء بإحدى يديه: «أرجو أن تنتبه الآن، فثمة بطارية كهربائية، لكل من «الفراش»، و«الرسام»،

ويحتاج «الفراش» إلى البطارية لحركته، ويحتاج «الرسام» إلى البطارية لحركة «المشط»، وما إن يستلقى الرجل، حتى يبدأ «الفراش» فى الحركة، إنه يتذبذب فى الدقيقة، ذبذبات سريعة جدا، فى كلا الاتجاهين، من جانب إلى جانب، ومن أعلى إلى أسفل، وربما أمكنك أن ترى جهازا مماثلا لهذا الجهاز فى المستشفيات، إلا أن الحركة فى (فراشنا) محسوبة بغاية الإحكام، لأن عليها أن تتوافق بدقة مع حركة «المشط». فالمشط هو الأداة الأساسية للتنفيذ الفعلى للحكم».

تساءل الرحالة: «وكيف يجرى الحكم؟».

قال الضابط فى دهشة، وهو يعض على شفته: «ألا تعرف هذا أيضا؟، اغفر لى ما قد يبدو على شرحى من التفكك، إننى أرجو عفوك، فأنت ترى أن القومندان قد اعتاد دائما على القيام بالشرح، إلا أن القومندان الجديد قد تنصل من ذلك الواجب، لكن مع زائر على هذه الدرجة من الأهمية...» وحاول الرحالة أن يستغفر ذلك الشرف بكلتا يديه، إلا أن الضابط رغم ذلك، أصر على مواصلة تمجيده قائلا: «زائر على مثل هذه الدرجة من الأهمية، ولا يتاح له حتى أن يعرف نوع الحكم الذى نجريه، وهو نوع جديد، هو - وكان على وشك أن يتفوه بألفاظ جارحة، لكنه ضبط نفسه، وقال : «لم أكن أعلم، وليست هذه غلطتى. وعلى كل حال، فلا شك فى أننى أفضل من يمكنه شرح إجراءاتنا، بما أننى أضع هنا - وربت على الجيب الذى فوق صدره - الرسوم الصحيحة التى وضعها قومندانّنا الأسبق».

تساءل الرحالة قائلا : «رسوم القومندان الخاصة؟ هل كان يقوم بأداء كل شيء بنفسه إذن؟ هل كان جنديا، وقاضيا، وكيميائيا، ورساما؟».

قال الضابط مطرقا بموافقة، ونظرة زجاجية جامدة : «لقد كان كذلك حقا!»، ثم تفحص يديه فى إمعان. لم تكونا نظيفتين إلى حد يكفى لكى يلمس بهما الرسوم. فاتجه نحو الدلو، وغسلهما مرة أخرى، ثم سحب محفظة صغيرة جلدية، وقال: «إن حكمنا لا يبدو قاسيا، فكل أمر خالفه المحكوم عليه، يكتب على جسده بواسطة «المشط»، وهذا الرجل المحكوم عليه مثلا، سوف يكتب على جسده : «وقر الرؤساء!».

وتطلع الرحالة إلى الرجل، كان قد قام واقفا عندما كان الضابط يشير إليه، برأس مطرقة، متسمعا فيما يبدو بكل ما أوتى من إرهاف السمع فى محاولة لالتقاط ما كان يقال. إلا أن حركة شفتيه الغليظتين، المضغوطتين بشدة على بعضهما، كانت تدل فى وضوح على أنه لم يتمكن من أن يفهم كلمة واحدة. وكانت أسئلة كثيرة تشغل بال الرحالة، لكنه تساءل فقط عند رؤية المحكوم عليه: «هل يعلم بالحكم الصادر عليه؟». قال الضابط: «لا!»، متشوقا إلى مواصلة شرحه، لكن الرحالة قاطعه قائلا: «ألا يعلم نوع الحكم الذى ينفذ فيه؟»، قال الضابط ثانية : «لا!»!، متوقفا لحظة، كما لو كان يقصد بذلك أن يتيح الفرصة للرحالة حتى يفرغ من سؤاله، ثم قال بعد ذلك: «لن تكون هنالك أية فائدة من إخباره، ولسوف يعرفها جسديا بنفسه»!، وقد انتوى الرحالة ألا يرد، إلا أنه شعر ثانية بنظرة المحكوم عليه، تتحول نحوه، وكأنها تتساءل عما إذا كان يؤيد ما يجرى؟، وهكذا مال ثانية إلى الأمام، بعد أن كان قد اضطجع إلى الخلف فى مقعده، ووجه سؤالا آخر: «لكن لا شك فى أنه يعلم بأنه قد حكم عليه؟»، قال الضابط : «ولا حتى ذلك أيضا!»، وهو يبتسم للرحالة، كما لو كان يتوقع منه أن يبدى

مزيدا من الملاحظات المندهشة!، قال الرحالة: «لا!»، إذن فهو لن يتمكن من معرفة ما إذا كان دفاعه ناجحا أم غير ناجح!»، «ليست لديه أية فرصة لإقامة دفاع!»، قالها الضابط، مبعدا نظراته، كما لو كان يتحدث إلى نفسه، وهكذا يوفر على الرحالة مشقة الإحراج من سماع شرح الأمور البديهية، فقال الرحالة : «ولكن لابد له من فرصة للدفاع عن نفسه»، وقام واقفا من مقعده!.

وخشى الضابط أن يتأخر شرحه للجهاز وقتا أطول من ذلك، فاتجه نحو الرحالة، وسحبه من ذراعه، ولوح بيده الأخرى نحو الرجل المحكوم عليه، الذى كان يقف لحظتها معتدلا تماما، حتى لتُعد [illegible] مثيرا للانتباه فى وضوح، ونحو الجندى الذى كان قد هز القيود بدوره هو أيضا ـ وقال : «ها هو النحو الذى تسير عليه الأمور، إننى الشخص المكلف بأمر العدالة فى مستعمرة الإعدام هذه، على الرغم من حداثة سنى، ذلك أننى كنت مساعدا للقومندان السابق فى كل شئون الإعدام، وأعرف عن الجهاز أكثر مما يمكن أن يعرفه أى شخص آخر. وإن القاعدة التى أتبعها هى هذه : «إن الجريمه لا تحتمل الشك»، ولا تستطيع المحاكم الأخرى أن تتبع هذه القاعدة، وهى تتألف لهذا من عديد من الآراء، وثمة محاكم عليا تتفحص أيضا أحكامها. إلا أن الحال ليس كذلك هنا، أو، على الأقل، لم يكن الحال كذلك فى عهد القومندان السابق. ولقد أبدى الرجل الجديد، شيئا من الميل إلى التدخل فى أحكامى، إلا أننى قد نجحت إلى حد بعيد فى مقاومته، وسوف أواصل مقاومتى له بنجاح. وقد يروقك أن أشرح لك هذه «الحالة»، وإنها لبسيطة غاية البساطة كغيرها من «الحالات». فقد كتب

إلى هذا الصباح، ضابط برتبة (كابتن) تقريرا جاء فيه أن هذا «الرجل» الذى كان قد خصص لخدمته، ونام أمام بابه، كان نائما فى وقت الخدمة. وإن خدمته، لو تفضلت بالانتباه، هى أن ينهض عند كل مرة تدق فيها الساعة، وأن يؤدى التحية لباب حجرة (الكابتن)!، إنه ليس واجبا إجباريا، ولكنه ضرورى طالما أنه كان عليه أن يكون ديدبانا، وأن يكون خادما فى وقت معا. ولابد له أن يكون منتبها لكلا المهمتين. وفى الليلة الماضية، شاء «الكابتن»، أن يرى إن كان خادمه ذاك يقوم بأداء واجبه، و.. فتح الباب عندما دقت الساعة الثانية، فوجد رجله مكوما هنالك، ومستغرقا فى النوم. فجذب سوط ركوب، وساطه به على وجهه، وبدلا من أن ينهض الرجل، ويرجوه المغفرة، تشبث بركبتيه، وهزه صائحا: «الق ذلك السوط، وإلا أكلتك حيا!»، تلك هى الشهادة، وقد جاءنى الكابتن منذ ساعة، فسجلت شهادته تلك، وذيلتها بالحكم المناسب لها. ثم جاءنى الرجل فى القيود. كان هذا كله غاية فى البساطة. فلو أننى أحضرت الرجل أمامى أولا، واستجوبته، فإن الأمور كانت ستتعقد تعقيدا بالغ الاضطراب. فلابد له أن يلقى بالأكاذيب، وهكذا، وهكذا، وكأمر واقع، فقد استقدمته، ولن أدعه يفلت!، هل هذا واضح الآن بما يكفى؟، إلا أننا نضيع الوقت، فلا بد للتنفيذ أن يبدأ، ولم أفرغ بعد من شرح الجهاز لك، و.. دفع الرحالة إلى الخلف نحو مقعده، واتجه مرة أخرى نحو الجهاز، وراح يقول: «إن تكوين «المشط» كما ترى، يلائم تكوين الجسم البشرى، وهذا هو «المشط» المخصص للجذع، وهذان هما «مشطا» الساقين، أما «للرأس» فلا يوجد فقط سوى هذه «الشوكة» الصغيرة، هل هذا واضح

بدرجة كافية؟» قال ذلك، بينما انحنى فى رقة نحو الرحالة، متطلعا إلى تقديم الشروح الأكثر شمولاً!.

وحدق الرحالة فى «المشط» بتجهم. فلم يرقه ذلك الحديث عن الإجراءات القانونية، وكان عليه أن يذكر نفسه أن تلك كانت على أية حال مستعمرة إعدام، حيث يلزم اتخاذ مقاييس غير عادية، وأنه كان لابد من فرض نظام عسكرى حتى النهاية. إلا أنه أحس أن أملا ما يمكن أن يعقد على القومندان الجديد، الذى كان على ما يبدو، قد انتوى أن يستحدث، ولو بالتدريج نوعا جديدا من الإجراءات التى لم يكن أفق الضابط ليتسع لقبولها. حفزته هذه السلسلة من الأفكار على توجيه سؤاله التالى: «هل يشهد القومندان تنفيذ الحكم؟». قال الضابط، مفزوعا للسؤال المفاجىء: «ليس حضوره مؤكدا!»، وتغير تعبيره الودى، و«إن هذا هو السبب فى أننى لا أريد أن أضيع وقتا أطول مما يجب على أن أضيعه، وسوف أختصر لهذا شرحى. لكن، بالطبع، غدا، بعد أن يتم تنظيف هذا الجهاز - وإن عيبه الوحيد هو فى أنه يصبح فى غاية التشوش، يمكننى أن ألخص شرح كل التفاصيل، وسأذكر لك الآن الأمور الأساسية، فعندما يستلقى الرجل على «الفراش»، ويبدأ الفراش فى التذبذب، يهبط (المشط) نحو جسده، وإنه لينظم نفسه أوتوماتيكيا حتى أن الإبر تكاد تلمس الجلد تقريبا، ويكفى أقل تماس لشد الشريط الصلب فيتحول إلى حزام محكم، ثم يبدأ التنفيذ. ولن يتسنى لأى مشاهد جاهل أن يتبين أى فارق بين عقوبة وأخرى. فسيبدو (المشط)، وكأنه يقوم بعمله بنظام متكرر. وعندما يرتعد الرجل، فإن أطراف (المشط) تثقب بشرة جسده الذى يكون مرتعشا

هو أيضا مع حركة تذبذب الفراش، وعلى هذا فإن التقدم الفعلى للتنفيذ يصبح ملحوظا، إن (المشط) مصنوع من الزجاج. وقد كان تثبيت الإبر فى الزجاج مشكلة فنية، إلا أننا تغلبنا بعد تجارب عديدة على تلك الصعوبة، ولعلك تلاحظ، أن أية مشكلة عويصة لم توقفنا، وفى إمكان أى شخص أن ينظر الآن خلال الزجاج، ويلاحظ الكتابات التى تتشكل فوق الجسد، فهل تتكرم بأن تقترب قليلا، وتلقى نظرة على الإبر؟.

فنهض الرحالة ببطء، وتقدم، وانحنى على «المشط»، وقال الضابط: «هل ترى، يوجد هنا نوعان من الإبر، مرتبة فى أشكال متضاعفة، ولكل إبرة طويلة، أخرى قصيرة إلى جوارها، فالإبرة الطويلة تقوم بالكتابة، وترش الإبرة القصيرة خيطا من الماء، لغسل الدم، وتبقى الكتابة واضحة، ويسير الدم والماء معا خلال قنوات صغيرة، إلى هذا المجرى الرئيسى، وينحدر إلى أسفل خلال ماسورة عادم نحو القبر. وتعقب الضابط بإصبعه المجرى الصحيح الذى يتخذه الماء والدم. ولكى يجعل الصورة أكثر وضوحا بقدر الإمكان، رفع كلتا يديه أسفل فتحة الماسورة، كأنما ليتلقى انصباب المزيج، وعندما فعل هذا، سحب الرحالة رأسه إلى الخلف، وتحسس الهواء خلفه بكفه، متلمسا العودة إلى مقعده. واكتشف لرعبه أن الرجل المحكوم عليه، كان قد لبى هو أيضاً دعوة الضابط لتفحص «المشط» عن قرب، وتتبعه!، كان قد جذب الجندى النائم إلى الأمام بالسلسلة، وانحنى على الزجاج. وكان فى مقدور المرء أن يلاحظ أن عينيه الزائغتين كانتا تحاولان تبين الشىء الذى كان السيدان يتطلعان إليه، لكنه لم يتمكن لأنه لم يفهم الشرح من أن يدرك شيئا. كان يحدق فى هذا الاتجاه،

وفى ذاك، وظل محملقا، مرسلا نظراته عبر الزجاج، وأراد الرحالة أن يدفعه بعيدا، لأنه ربما كان يرتكب خطأ ما بتطلعه على هذا النحو إلا أن الضابط منع الرحالة بشدة بإحدى يديه، وباليد الأخرى التقط كتلة من الطين من كومة الأتربة الناتجة عن الحفر، وقذف بها الجندى، ففتح عينيه مفزوعا، ورأى ما جرؤ الرجل المحكوم عليه، على إتيانه، فترك بندقيته تسقط، ودق كعبيه فى الأرض، وجذب السجين إلى الخلف، حتى لقد تعثر، وسقط من فوره، فوق الأرض، ووقف بعد ذلك ينظر إليه، ويرقبه وهو يصارع محاولا النهوض، ويتخبط فى قيوده!، صاح الضابط قائلا : «أوقفه على قدميه!»، ذلك أنه قد لاحظ أن انتباه الرحالة كان شارداً غاية الشرود، بسبب الرجل المحكوم عليه. وكان الرحالة فى الحقيقة، مائلا نحو «المشط» دون أن يركز انتباهه عليه، مهتما فقط باكتشاف ما كان يحدث للرجل المدان، وصاح الضابط مرة أخرى قائلا : «اعتن به!». وجرى حول الجهاز، وأمسك الرجل المدان بنفسه من تحت إبطيه، وأوقفه بمساعدة الجندى على قدميه، اللتين راحتا تتعثران من تحته.

قال الرحالة : «لقد عرفت الآن كل شىء عن الجهاز!»، عندما عاد الضابط إليه، قائلا وهو يمسك بذراع الرحالة، مشيرا إلى أعلى: «كل شىء ما عدا أهم الأشياء جميعا!»، ففى «الرسام» توجد كل التروس التى تتحكم فى تحركات «المشط»، وهذه التروس الآلية، تدار تبعا للنص المنصوص عليه فى الحكم. ومازلت حتى الآن أستخدم الخطط الرائدة التى رسمها القومندان السابق، وها هى ذى!»، ثم انتزع بعض الأوراق من الحقيبة الجلدية الصغيرة ـ لكن يؤسفنى أننى لا يمكننى أن أسمح لك بأن تتسلمها فهى أثمن ممتلكاتى جميعا، ويمكنك أن

تسحب لنفسك مقعدا، وسوف أنشرها أمامك هكذا، فيصبح في إمكانك أن ترى كل ما فيها بوضوح، ونشر الورقة الأولى. ولقد أراد الرحالة أن يقول شيئا يوضح إعجابه، إلا أن كل ما كان يمكنه أن يراه، كان تيها من الخطوط- متقاطعة، ومتعارضة مع بعضها البعض، كانت تغطى الورقة فى كثافة، حتى أنه كان من الصعب أن تميز المساحات الخالية من بين تلك الخطوط. قال الضابط : «اقرأها؟». فقال الرحالة: «لا يمكننى ذلك!»، فعاد الضابط يقول: «ولكنها واضحة غاية الوضوح!»، فقال الرحالة متخلصا فى مراوغة: «ولكنها بارعة، غاية البراعة، ولا يمكننى تفسيرها!»، قال الضابط بابتسامة: «نعم!» مبعدا الورقة ثانية: «إنها ليست خطوطا منمقة خطها أطفال المدارس، وهى فى حاجة إلى دراسة متخصصة، وإننى واثق تمام الثقة من أنك ستفهمها أنت أيضا، إن المخطوط ليس مخطوطا مبسطا بالطبع، فليس المطلوب منه أن يقتل رجلا من فوره، لكن أن يقتله فقط، بعد انقضاء فترة من الزمن، متوسطها اثنتا عشرة ساعة، وقد صمم التخطيط بحيث تأتى نقطة التحول فى الساعة السادسة، وهكذا كان يجب أن تكون هناك كميات وكميات من الزهور حول النص الأصلى، وإن النص نفسه ليدور حول الجسم فقط فى شريط ضيق، أما باقى الجسم، فإنه يبقى للزخرفة، فهل يمكنك الآن أن تقدر العمل الذى يتم تنفيذه بواسطة «المشط»، وبواسطة الجهاز كله، ارقبه فقط!، وصعد إلى أعلى السلم، وأدار عجلة ما، وصاح إلى أسفل قائلا: «انظر، وابق فى نفس الجانب»!، وبدأ كل شىء فى العمل، فلو لم تكن العجلة تحدث صريرا، لكان كل شىء رائعا. وكما لو كان الضابط مندهشا للصوت

الذى يصدر عن العجلة، فقد دق قبضته عليها، ثم نشر ذراعيه كاعتذار للرحالة، وهبط إلى أسفل السلم، مسرعا، ليرقب عمل الآلة من أسفل، وكان شيء ما، شيء لا يدركه أحد سواه، على غير ما يرام رغم ذلك، فصعد إلى أعلى السلم مرة أخرى، وأدخل كلتا يديه في داخل «الرسام»، ثم دفع إحدى القضبان إلى أسفل، بدلا من استخدام السلم، حتى يمكنه أن يهبط بسرعة أكبر، وبكل ما تحتمله رئتاه من قوة، حتى يجعل كلامه مسموعا وسط الضجة التى بدأت، صاح زاعقا فى أذن الرحالة : «هل يمكنك أن تتبع ذلك الآن؟»، لقد بدأ (المشط) فى الكتابة، وعندما ينتهى من النسخة الأولى من النص على الظهر، فإن طبقة القطن الطبى، تبدأ عندئذ فى الدوران، ويبطء تدير الجسم، لكى تتيح «للمشط» مساحة جديدة خالية للكتابة. ويكون الجزء الجريح الذى تمت كتابته، ملتصقا فى تلك الأثناء بالقطن الطبى، الذى أعد خصيصا لكى يوقف النزيف، وهكذا يمهد نفس المكان لكتابة جديدة أبعد غورا، كما أن تلك الأسنان التى عند حافة المشط، تنزع بعد ذلك عندما يدور الجسم أكثر فأكثر، طيات القطن بعيدا عن الجراح، وتلقى بها إلى القبر، وهكذا ينفسح المجال أمام (المشط) لمزيد من العمل. ويواصل الكتابة على هذا النحو، أعمق، فأعمق، طوال الاثنتى عشرة ساعة. ويظل الرجل المحكوم عليه حيا كما هو خلال الساعات الست الأولى، لكن فقط يعانى من وطأة الآلام. وبعد ساعتين يشعر بقطعة الفلين، وقد اندفعت بعيدا، ذلك أنه عندئذ لا يعود قادرا على الصياح. ومن هذا الوعاء الذى يتم تسخينه بالكهرباء، هنا عند رأس (الفراش)، ينصب بعض من حساء الأرز الدافىء، يمكن للرجل، لو شاء، أن يلعق

منه ما قد يكون فى متناول لسانه، ولا يخطىء تلك الفرصة واحد منهم قط، لا يسعنى أن أذكر واحدا أخطأه ذلك، ولى خبرة عريضة. فقط عند حوالى الساعة السادسة يكون الرجل قد فقد كل رغبة له فى الطعام. وعادة ما أركع هنا فى أسفل، عندئذ، وأرقب تلك الظاهرة. ونادرا ما يبتلع الرجل حسوته الأخيرة، إنه يلوكها فقط فى فمه، ويبصقها داخل القبر.. وعلى أن أنحنى عندئذ، وإلا فإنه سوف يبصقها فى وجهى. لكنه يصبح هادئا للغاية عند حلول الساعة السادسة!، إن الإشراق يشع منبثقا من الكيان الهامد، ويبزغ البهاء حول العينين، ويتشعشع مبتدئا من ذلك المكان. لحظة تغرى المرء بأن ينزلق تحت «المشط» إلى جواره. ولا شىء يحدث أكثر من ذلك، فقط يبدأ الرجل فى فهم الكتابة، إنه يحرك فمه، كما لو كان يتسمع، ولقد رأيت بنفسك مدى صعوبة اكتشاف النص عندما يتفحصه المرء بعينيه، إلا أن رجلنا يفسرها بجراحه. وثق من أنه عبء قاس، وأن الرجل يحتاج إلى ست ساعات حتى يتم له ذلك، ويكون «المشط» أثناء تلك الفترة قد ثقبه تماما، وأطاح به إلى داخل القبر، حيث يستقر وسط الدم والمياه والقطن الطبى، عندئذ يكون قد تم تنفيذ الحكم، ونقوم بدفنه أنا والجندى.

كان الرحالة قد أعار سمعه للضابط، وراح يرقب الآلة أثناء عملها، ويداه داخل جيوب سترته. وكان الرجل المحكوم عليه يرقبها بدوره، لكن دون أن يدرك شيئا. انحنى قليلا إلى الأمام، واستغرق فى التطلع إلى الإبر المتحركة، وعندئذ، شق الجندى، بإشارة من الضابط، سروال الرجل، وسترته من الخلف بسكين، حتى تهاوت ملابسه نحو الأرض، وحاول الرجل أن يتشبث بملابسه المتهاوية ليستر بها عريه، إلا أن

الجندى رفعه إلى أعلى، ونزع عنه ما تبقى من ملابس، وأوقف الضابط الآلة، وفى أثناء الصمت المفاجىء، الذى نتج عن توقفها، كان الرجل قد وضع تحت «المشط»، وكانت قد فكت قيوده، واستبدلت بها السيور، ولأول وهلة تهيأ للرجل أنه قد تحرر من قيوده. لكن سرعان ما عدل وضع «المشط»، فهبط قليلا إلى أسفل، فقد كان الرجل هزيلا، وعندما لمسته أطراف الإبر، سرت رعدة فى كل جسده، بينما كان الجندى منهمكا فى تقييد يده اليمنى بالسيور، ودفع الرجل يده اليسرى بلا وعى، لكن تصادف أن امتدت نحو المكان الذى كان يقف فيه الرحالة. وظل الضابط يتطلع إلى مكان الرحالة، كما لو كان يحاول أن يقرأ على وجهه، الانطباع الذى طرأ عليه، كرد فعل لعملية التنفيذ، التى كان قد شرحها له بلمحات سريعة، على الأقل.

وانقطع السير الذى يقيد المعصم، ولعل الجندى أن يكون قد بالغ فى شده. وكان على الضابط أن يتدخل، ورفع الجندى الجزء المقطوع من السير ليعرضه عليه، واتجه الضابط نحوه، قائلا، ووجهه متجه ما يزال ناحية الرحالة: «إنها آلة معقدة غاية التعقيد، وإن أجزاءها لتتمزق، أو تفلت من مكانها هنا وهناك، إلا أن المرء لا يجب عليه لهذا أن ينصرف عن تنفيذ العدالة الشاملة، وعلى أية حال فمن الممكن إصلاح هذا الشريط بسهولة، وسأستعمل القيود بدلا منه ببساطة، ولسوف تضعف رقة التذبذب بالنسبة لليد اليمنى قليلا بالطبع، وأضاف قائلا بينما كان يثبت القيود: «لقد انخفضت الآن الاعتمادات التى كانت تنفق على صيانة الآلة انخفاضا كبيرا، ولقد كان لى فى ظل عهد القومندان السابق حق التصرف المطلق فى مبلغ من المال مخصص

كلية لهذا الغرض، وكان هناك مخزن أيضا، يمتلىء بقطع الغيار، لاستبدال كل شيء، وأعترف بأننى كنت مسرفا فى استعمالها، على الأغلب، أعنى فى الماضى، لا فى الحاضر حيث يتحين القومندان الحالى دائما كل فرصة تسنح له لمهاجمة طريقتنا العتيقة فى تنفيذ الأحكام. وهو الذى يشرف الآن بنفسه على نفقات الآلة، فإذا أرسلت فى طلب سير جديد، طلبوا السير القديم الممزق كدليل على احتياجنا لآخر جديد، كما أن السير الجديد لا يصلنا قبل مرور عشرة أيام، ويصلنا بعدئذ سير مصنوع من خامة قديمة بالية، كما أنه لا يكون سيرا جديدا بحال من الأحوال، أما كيف يتسنى لى أن أدفع الآلة إلى العمل بدون سيور، فهذا ما لا يهتم به أحد!».

وفكر الرحالة فى نفسه قائلا: «إن تدخل المرء فى شئون الغير بصورة مباشرة، أمر شائك دائما، فلست عضوا فى المستعمرة، ولا مواطنا فى الولاية التى تتبعها المستعمرة». فهل كان له أن يهاجم ذلك الإعدام، أو يحاول بالفعل أن يوقفه. فى وسعهم أن يقولوا له : «إنك غريب، فاهتم بشئونك الخاصة!»، ولن يمكنه أن يرد على ذلك، ما لم يكن عليه أن يضيف أنه كان مندهشا لسلوكه فى هذا الشأن، ذلك أنه قد رحل كمشاهد فقط، دون أية نوايا مطلقا فى تغيير أساليب الشعوب الأخرى فى إقرار العدالة. إلا أنه وجد نفسه واقعا هنا تحت تأثير الرغبة الشديدة فى التدخل. فإن ظلم الإجراءات، ووحشية الإعدام، لم يكن يمكن التغاضى عنها. ولا يمكن لأحد أن يظن أنه يتدخل فى الأمر لغرض خاص، ذلك أن الرجل المحكوم عليه، كان رجلا غريبا تماما عنه، فهو ليس مواطنا له، ولا حتى متعاطفا معه على الإطلاق. وكان

الرحالة قد حصل على توصيات من الجهات العليا، وقد قوبل هنا بالحفاوة الزائدة، كما أن حقيقة دعوته لمشاهدة تنفيذ حكم الإعدام، كانت تنم عن الاستعداد للترحيب بوجهة نظره. ولقد كان كل شيء يشير إلى ذلك، بما أن القومندان، كما سمع بوضوح تام، لم يكن يؤيد تلك الإجراءات، وكان يتخذ موقفا معادياً على الأغلب للضابط.

وسمع الرحالة في تلك اللحظة الضابط وهو يصرخ في غضب، فقد كان قد فرغ لتوه من دفع قطعة الفلين إلى داخل فم الرجل المحكوم عليه، عندما انتابت الرجل نوبة غثيان لم يتمكن من التغلب عليها. أغلق عينيه، وتقيأ. وجذب الضابط مسرعا قطعة الفلين، وحاول أن يحمل رأسه فوق القبر، إلا أن الوقت كان قد فات، وكان القيء قد لطخ الجهاز كله. صاح الضابط، وهو يهز القضبان النحاسية التي تواجهه، بلا شعور، قائلا، «إن الخطأ كله، خطأ القومندان، إن الآلة قد تلوثت كحظيرة الخنازير»!، وأخبر الرحالة بما حدث، ويداه ترتعشان: «ألم أحاول لساعات طويلة أن أخبر القومندان، أن عليه أن يدرك أنه لابد للسجين من أن يصوم يوما كاملا قبل تنفيذ حكم الإعدام؟»، إلا أن قوانيننا الحانية ترى العكس. فلقد قامت سيدات القومندان بحشو فم الرجل بالحلوى قبل أن يساق إلى هنا. لقد عاش طوال حياته على السمك المتعفن، وأخيرا آن له أن يلتهم الحلوى!، إن حدوث ذلك مازال ممكنا، ولا يسعني أن أقول شيئا في معارضته، لكن لماذا لا يحضرون لي قطعة أخرى من الفلين، ظللت أرسل في طلبها طوال الشهور الثلاثة الماضية. وكيف يتسنى لرجل ألا يصاب بالغثيان، بينما يبتلع مرغما قطعة من الفلين، أفرز عليها أكثر من مائة رجل لعابهم، وعضوا عليها في لحظاتهم الأخيرة مع الموت؟».

كان الرجل المحكوم عليه قد ألقى رأسه إلى أسفل، ونظر في هدوء، وكان الجندى منهمكا فى محاولة تنظيف الآلة بسروال الرجل، وتقدم الضابط نحو الرحالة، الذى تراجع خطوة إلى الخلف، فى شعور مبهم، إلا أن الضابط، كان قد أمسك بيده، وجذبه إلى أحد الجوانب قائلا: «إننى أريد أن أتحدث إليك قليلا فى ثقة، فهل يمكننى ذلك؟»، وأجابه الرحالة قائلا: «طبعا!»، واستمع له، وعيناه مطرقتان نحو الأرض!.

«إن هذه الإجراءات، وهذا الأسلوب المتبع فى تنفيذ حكم الإعدام، الذى أتيحت لك الآن الفرصة للتمتع بمشاهدة روعته، لم يعد له بعد أى أنصار الآن، يجهرون بتأييده فى مستعمرتنا. وإننى نصيره الأوحد، والنصير الوحيد فى الوقت نفسه لتراث القومندان السابق، وليس فى استطاعتى أن أطمع فى أى تطوير أبعد من ذلك لتلك الطريقة، فلقد استنفدت جهودى كلها حتى أحافظ على بقائها كما هى. وكانت المستعمرة فى أثناء حياة القومندان السابق، تكتظ بأنصاره، ومازلت أتمتع إلى حد ما، بقدرته على الإدانة، لكن ليست لى ذرة واحدة من قوته، ولهذا اختفى الأنصار عن نظرى، ولا يزال يوجد الكثير منهم، إلا أن أحدا منهم لن يوافق على هذه الطريقة، فلو أتيح لك أن تذهب اليوم إلى مشرب الشاى، فى اليوم نفسه الذى يتم فيه تنفيذ هذا الحكم، وأن تستمع إلى ما يمكن أن يقال، فلعلك أن تسمع فقط بضع ملاحظات غامضة. كان من الممكن أن يعلن الأنصار هذه الملاحظات، لكن فى ظل القومندان الحالى، وقوانينه الحاضرة، فلا توجد أدنى فائدة لى من ورائها. وإنى أسألك الآن، هل يمكن لمثل ذلك «العمل»، ثمرة جهد حياة بأكملها أن يهمل تماما، بسبب ذلك القومندان، وتلك المرأة التى

تسيطر عليه؟، وأضاف قائلا، وهو يشير نحو الآلة: «وهل يجب على المرء أن يسمح لهذا بأن يحدث؟، حتى ولو كان المرء قد حضر إلى جزيرتنا كأجنبى، فقط لقضاء بضعة أيام؟. ليس هناك ثمة وقت لإضاعته، وإن هجوما ما يحدث الآن بمهمتى كقاض، إن المؤتمرات تعقد دائما فى مكتب القومندان، تلك المؤتمرات التى أبعد عنها، ويبدو لى أن مجيئك اليوم إلى هنا أمر خطير له مغزاه، إنهم جبناء، ويستخدمونك كستار، أنت الغريب!، كم كان تنفيذ حكم الإعدام مختلفا فى الأيام الخالية!، كان الوادى يزدحم بالناس يوما كاملا قبل الاحتفال، كلهم يجيئون فقط من أجل الفرجة، وفى الصباح الباكر يظهر القومندان مع حريمه، وكانت ترتفع أصوات الأبواق فى كل أنحاء المعسكر، وأعلن أنا أن كل شىء على أتم الاستعداد، وينتظم الحشد المجتمع ـ ولا يمكن أن يجرؤ أى موظف كبير على التغيب ـ حول الآلة، وهذه الكومة البائسة من المقاعد الخيزرانية هى مخلفات ذلك العهد. وتكون الآلة نظيفة تماما، ولامعة، ويتم تزويدى بقطع غيار جديدة، تقريبا لتنفيذ كل حكم جديد، وأمام مئات المشاهدين ـ الواقفين جميعا على أطراف أصابع أقدامهم، لمسافة تمتد حتى تلك المرتفعات التى هناك ـ يوضع الرجل المحكوم عليه، تحت «المشط» بيد القومندان نفسه. وما يترك اليوم لأى جندى لكى يؤديه، كان هو كل واجبى، الذى كنت أكلف بأدائه حينذاك، وهو واجب القاضى الذى يشرف على عملية التنفيذ، وكان ذلك تكريما لى، ثم يبدأ تنفيذ الإعدام بعدئذ!، ولم تكن تصدر أدنى ضوضاء متنافرة تشوش حينذاك على عمل الآلة. ولم يكن الكثيرون يعنون كثيرا بمراقبتها، بل كانوا يستلقون بعيونهم المغلقة

فوق الرمال، وهم يعلمون جميعا أن العدالة كانت فى تلك الأثناء تأخذ مجراها. ولم يكن المرء يسمع وسط ذلك الصمت، شيئا سوى زفرات المحكوم عليه، فى غمغمة شبه واضحة، بسبب قطعة الفلين. أما فى أيامنا فلا يمكن للآلة أن تنتزع من أى منهم زفرة أكثر ارتفاعا مما يمكن لقطعة الفلين أن تتكتمه، وكانت الإبر التى تقوم بالكتابة تفرز فى تلك الأيام سائلا حمضيا، لا يسمح لنا اليوم باستعماله!، حسنا، وبعد ذلك تحل الساعة السادسة!، كان من المستحيل أن نسمح بتلبية كل الرغبات لمراقبتها عن كثب. وكان القومندان قد قرر بحكمته أن تكون الأولوية فى الرؤية للأطفال، وكان لى بالطبع، بحكم وظيفتى امتياز الوجود الدائم بالقرب من الجهاز، وغالبا ما كنت أجلس القرفصاء هنالك، حاملا طفلا صغيرا بين كل من ذراعىّ. كيف كنا نستغرق جميعنا فى مراقبة مشهد التجلى فوق وجه المعذب، وكم متعنا أنظارنا ببهاء تلك العدالة، التى تمت فى النهاية، وانقضت بمثل تلك السرعة؟، كم كان الحال رائعا فى تلك الأوقات يا رفيقى؟! كان الضابط قد نسى على ما يبدو شخصية الرجل الذى كان يتوجه إليه بالحديث، فقد عانق الرحالة، ووضع رأسه فوق كتفه، ولقد ارتبك الرحالة غاية الارتباك، وحملق متململا من فوق رأس الضابط. وكان الجندى قد فرغ من مهمته فى تنظيف الآلة، وكان يصب الآن حساء الأرز من قدر فى الوعاء. وعندما لاحظ ذلك الرجل المحكوم عليه، الذى كان يبدو عليه وكأنه قد استفاق تماما، بدأ يحاول بلوغ الحساء بلسانه، وظل الجندى يدفعه بعيدا، فقد كان حساء الأرز قد هيىء للحظة قادمة، إلا أن الوعاء كان قد امتلأ بصورة غير مناسبة، حتى أن الجندى نفسه كان يدفع يديه القذرتين

في داخل الوعاء، ويأكل منه بكفيه أمام وجه الآخر الذى كان يتعطش إلى الطعام.

وابتعد الضابط قائلا : «لا أريد أن أغضبك، وإننى لأعلم أنه من المستحيل أن يصف المرء تلك الأيام وصفا يمكن تصديقه الآن، وعلى كل حال، فإن الآلة ما تزال تعمل، وما تزال فى ذاتها صالحة للعمل، إنها فعالة في ذاتها، على الرغم من وقوفها وحيدة وسط هذا الوادى، وإن الجثة ماتزال تلقى فى النهاية، داخل القبر، بحركة متموجة، خفيفة، غير ملحوظة، على الرغم من عدم وجود مئات من الناس المحتشدين من حولها كالذباب كما كان يحدث فى العهد السابق. فقد كان علينا فى تلك الأيام أن نقيم حاجزا قويا حول القبر، ولقد تهدم ذلك الحاجز، منذ ذلك الحين!».

وأراد الرحالة أن يبعد وجهه عن الضابط، وينظر حواليه كيفما اتفق، وظن الضابط أنه كان يشمل بنظره وحشة الوادى، وهكذا فقد أمسك بيديه، وأداره، لكى يلتقى عينيه متسائلا :

«هل لاحظت هذا العار؟».

إلا أن الرحالة لم يقل شيئا. وتركه الضابط قليلا وحده، وبساقيه المتباعدتين، ويداه فوق شفتيه، كان قد وقف ساكنا تماما، محدقا فى الأرض، ثم ابتسم للرحالة فى تشجيع، وقال: «لقد كنت قريبا منك بالأمس غاية القرب، عندما وجه إليك القومندان الدعوة، ولقد تكهنت فورا بما كان يهدف إليه، ومع أنه لم يجرؤ على اتخاذها بعد، لكنه يهدف بلا شك إلى استخدام حكمك ضدى، حكم أحد مشاهير الأجانب، لقد دبر هذا الأمر بعناية؛ إن هذا هو يومك الثانى فى الجزيرة، وأنت لا

تعرف القومندان القديم، وأساليبه، وإنك لتتمتع بالأساليب الأوربية فى التفكير، ولعلك تعترض على مبدأ عقوبة الإعدام بصفة عامة، وتعترض خاصة على مثل تلك الآلات الميكانيكية للقتل، وإنك سوف ترى أن التنفيذ، بالإضافة إلى ذلك، لم يكن له سند من الجمهور، احتفال حقير، نفذ على نحو ما، بآلة قديمة، ومستهلكة بالفعل - والآن - لو أننا أخذنا ذلك كله فى الاعتبار، فهل لن يسفر الأمر - وهذا ما يظنه القومندان - عن استنكارك لوسائلى؟، وإذا أنت استنكرتها، فأظنك لن تتكتم الحقيقة، ومازلت أتحدث من وجهة نظر القومندان -، لأنك رجل يجب أن تستشعر الثقة بأحكامك السليمة؟، لقد رأيت الكثير حقا، وتعلمت أن تقدر مميزات الكثير من الشعوب، ولا يبدو لهذا أنك ستتخذ رأيا متشددا ضد إجراءاتنا، كما لو كنت تراها فى بلدك. إلا أن الحاكم فى غير حاجة إلى ذلك. وإن ملاحظة عارضة، أو حتى أدنى إشارة غير واعية ستكون فيها الكفاية بالنسبة له. ولن يكون الأمر فى حاجة حتى إلى أن توضح له ما تفكر فيه بالفعل، إلا بالقدر الذى يلزم لكى يستخدم ببعض التمويه، حتى يخدم غرضه. إنه سيحاول أن يستفزك بالأسئلة الخبيثة. ولست أشك فى هذا، وسوف تجلس سيداته من حولك، ويرهفن أسماعهن، وربما كنت تقول حينئذ شيئا من هذا القبيل: «فى بلدنا، لنا أسلوب آخر لتحقيق العدالة!»، أو «للسجين فى بلدنا الفرصة للدفاع عن نفسه، قبل الحكم عليه!»، أو «إننا لم نستخدم أساليب التعذيب منذ القرون الوسطى!»، كل هذه التصريحات، هى تصريحات طبيعية، كما تبدو حقا بالنسبة لك - ملاحظات غير ضارة، قد لا تلقى أية أحكام على وسائلى، لكن ماذا سيكون رد القومندان

عليها؟، يمكننى أن أتخيله، قومندانا الطيب، وهو يدفع مقعده بعيدا على الفور، ويندفع نحو الشرفة، ويمكننى أن أرى سيداته، وهن يسرعن خلفه، ويسعنى أن أسمع صوته ـ وتسميه السيدات، صوت الرعد ـ حسنا، وهذا هو ما سيقوله : «إن باحثا غربيا شهيرا، قد أوفد لدراسة الإجراءات المتعلقة بالجريمة فى كل بلدان العالم، قد قال لتوه إن أسلوبنا القديم فى تحقيق العدالة هو أسلوب وحشى، مثل ذلك القرار الذى صدر عن مثل تلك الشخصية، يجعل من المستحيل بالنسبة لى أن أعضد تلك الأساليب بعد الآن، وبناء على ذلك فإننى أعلن أنه ابتداء من اليوم...» وهكذا، ولعلك تريد أن تعترض بأنك لم تقل شيئا من هذا القبيل، وأنك لم تذكر أن وسائلى وحشية، بل إن تجربتك العميقة، على العكس، تقودك إلى الاقتناع بأنها أكثر إنسانية، وأنها أكثر توافقا مع الكرامة البشرية، وأنك معجب غاية الإعجاب بالآلة، لكن ذلك كله سيكون قد فات أوانه، ولن تتمكن حتى من بلوغ الشرفة، لأنك ستكون محاطا كما سيحدث، بالسيدات، ولعلك أن تحاول لفت الأنظار، وربما أردت أن تصرخ، إلا أن سيدة ما، سوف تغلق شفتيك، وسيكون قد تم القضاء علينا أنا، والقومندان السابق!.

وكان على الرحالة أن يمنع ابتسامة كادت تغلبه، فبهذه السهولة كان العبء الذى كان يظنه غاية فى الصعوبة، وقال بمراوغة: «إنك تبالغ فى تقدير نفوذى؛ لقد اطلع القومندان على رسائل التوصية التى أحملها، وهو يعلم أننى لست خبيرا فى الإجراءات المتعلقة بالجريمة، ولو كان لى أن أسوق رأيا، فلن يكن سوى رأى شخصى بحت، رأى لا يزيد فى أهميته عن رأى أى شخص آخر عادى، وأقل تأثيرا بكثير جدا

على أي حال من رأى القومندان الذى، على حسب ما يسعنى إدراكه، يتمتع بسلطة واسعة فى مستعمرة الإعدام هذه، ولو كان موقفه من إجراءاتك موقفا عدائيا بصورة مؤكدة كما تظن، فإننى أخشى إذن أن تكون نهاية أسلوبك قد أصبحت وشيكة الوقوع، حتى بدون أية معونة متواضعة من جانبى!».

فهل اتضح الأمر للضابط في النهاية؟، لا، لقد بقي كما هو، دون أن يتمكن من إدراك أى شىء، ولقد هز رأسه بشدة، وألقى حوله نظرة سريعة على الرجل المحكوم عليه، وعلى الجندى، اللذين توقفا عن احتساء حساء الأرز، واقترب من الرحالة، وبدون أن يتطلع إلى وجهه، قال في صوت أكثر انخفاضا عن ذى قبل، مثبتا نظرته على بقعة ما من معطفه: «إنك لا تعرف القومندان، إنك تشعر بأنك ـ وعفوا عن التعبير ـ غريب بصورة ما، بالدرجة التى تهمنا جميعا، لكن صدقنى، لو قلت لك أن نفوذك لا يمكن أن يقدر بهذه الصورة المبالغ فى التهوين من شأنها، ولقد سررت ببساطة عندما سمعت أنك ستشهد تنفيذ الإعدام، وحدك فقط. ولقد رتب القومندان ذلك الأمر، لكى يوجه صفعة لى، إلا أننى سأحولها لصالحى، دون أن تصرفنى الهمسات الكاذبة، والنظرات المغرورة، التى لا يمكن تجنبها لو أن جمعا من الناس قد شهد الإعدام، لقد استمعت إلى شرحى، ورأيت الآلة، وأنت الآن تشهد تنفيذ حكم الإعدام. ولقد كونت دون شك حكمك الخاص لتوك، فلو كانت لديك ثمة شكوك ما تزال باقية للآن، فإن مرأى عملية تنفيذ الإعدام سوف تذيبها. وإننى ألتمس منك ذلك الالتماس: «انصرنى على القومندان!».

لم يترك له الرحالة مجالا لمواصلة حديثه، لأنه صاح قائلا: «كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟، إن ذلك مستحيل تماما!، إنني لا أستطيع مساعدتك، ولا أملك أن أقاومك!»، قال الضابط: «نعم، إنك تستطيع!» ورأى الرحالة بشعور ما أن الضابط كان قد ضم قبضته: «نعم، يمكنك!»، رددها الضابط بإصرار متزايد، «إن لدى خطة مضمونة النجاح، إنك تظن أن نفوذك غير كاف، ولكننى أعرف أنه كاف، بل إن هناك تسليما مطلقا بأنك على حق، وليس من الضرورى، من أجل الحفاظ على ذلك التقليد، أن تحاول حتى عمل ما قد يثبت أنه غير كاف!»، استمع إذن إلى خطتى، إن أول شىء يجب عليك ضرورة تنفيذه، هو أن تكون صموتا بقدر المستطاع، فيما يختص بحكمك على ذلك الأسلوب، وما لم يوجه إليك سؤال مباشر، فلا يجب عليك أن تقول شيئا على الإطلاق، كما أن ما تقوله لابد أن يكون مقتضبا وعاما، ولتدع الأمر يبدو، وكأنك ترغب فى عدم مناقشة القضية، وتوحى بأنها مسألة لا صبر لك على الحديث عنها، وأنه لو كان لك أن تسمح لنفسك بالحديث عنها، فإن ستستخدم لغة قوية!، إننى لا أطلب منك أن تطلق الأكاذيب بأى حال من الأحوال، بل إنك ستجيب فقط إجابات مقتضبة من قبيل: «نعم، لقد شاهدت الإعدام!»، أو «نعم، لقد شرح لى!»، إجابات من هذا القبيل، ولا شىء أكثر من ذلك. وتوجد أساسات كافية لأى ملل قد تبديه، على الرغم من أن مثل ذلك الملل لن ينتاب القومندان، وسوف يستغلق عليه مقصدك بالطبع، وسيفسره بالطريقة التى تروقه! هذا هو ما تعتمد عليه خطتى!، سوف يعقد مؤتمر مهم غدا فى مكتب القومندان، يضم كل كبار الموظفين الإداريين الذين يرأسهم

القومندان، وإن القومندان بالطبع رجل من طراز أولئك الرجال الذين يحولون مثل تلك المؤتمرات إلى استعراضات عامة، إن له رواقا مجهزا يغص دائما بالمتفرجين، وإننى مجبر على الاشتراك فى تلك المؤتمرات، إلا أنها تكاد تصيبنى بالغثيان! ومهما كان من أمر، فسوف تدعى عندئذ، بلا شك، لحضور ذلك المؤتمر. فلو سلكت اليوم كما أتوقع، فسوف تكون دعوتك طلبا مهماً. لكن لو حدث، ولم تدع لحضور ذلك المؤتمر لسببٍ من الأسباب، فإن عليك أن تطلب توجيه الدعوة لك بالحضور، ولا شك فى أنك ستجاب إلى طلبك عندئذا، وهكذا ستكون جالسا غدا، فى مقصورة الحاكم، مع السيدات، ويظل يتطلع إلى أعلى ليتأكد من وجودك هناك. وستثار مختلف الأمور التافهة، والمضحكة، فقط لمجرد التأثير فى النظارة، وأغلبها عن أعمال الميناء، ولا شىء سوى أعمال الميناء!، وستثار مناقشة إجراءاتنا القانونية هى أيضا، فإذا لم يثرها هو أو لم يتعجل إثارتها، فسأنظر أنا فى أمر إثارتها، ولسوف أقف وأقرر أن إعدام اليوم قد تم تنفيذه، باختصار تام، فقط مجرد تقرير! ليس مثل ذلك التقرير معتادا، إلا أننى سأقوم بإعلانه، وسيشكرنى القومندان كالعادة، بابتسامة وبودة، ثم لا يتمكن بعد ذلك من أن يضبط نفسه، وسيمسك بالفرصة النادرة : «لقد استمعنا إلى تقرير عن تنفيذ ذلك الإعدام، فقط مجرد تقرير!»، سوف يقول ذلك أو كلمات أخرى لها نفس المعنى: «إن إعداما قد تم تنفيذه، ويسرنى فقط أن أضيف أن ذلك التنفيذ قد شهده الباحث الشهير، الذى شرف كما تعلمون مستعمرتنا ذلك الشرف عزيز الوقوع، بزيارته لنا، وإن حضوره جلسة اليوم لمؤتمرنا كذلك، لتزيد فى أهمية تلك المناسبة، أفلا نسأل

الباحث الشهير الآن، أن يعطينا تقريره عن طريقتنا التقليدية في إصدار حكم الإعدام، والإجراءات التي يتم تنفيذه طبقا لها؟».

هنالك سيرتفع بالطبع هتاف عال، وموافقة شاملة، وسأكون أكثر الجميع إصرارا، وسينحني لك القومندان، ويقول: «إذن، باسم الحشد المجتمع، أتقدم إليك بالسؤال!». وستتقدم الآن نحو مقدمة المقصورة، وستضع راحتيك، حيث يتسنى لكل فرد من الموجودين رؤيتهما، أو ربما التقطتها السيدات، وضغطن على أصابعك، وأخيرا سوف يمكنك بعد ذلك أن تتحدث!، لا يسعني أن أعرف كيف سيمكنني أن أحتمل التوتر انتظارا لتلك اللحظة، فلا تعمل حسابا لأي تحفظ عندما تسترسل في خطبتك، انشر الحقيقة جهرا، وانحن على مقدمة المقصورة، واهتف، نعم، اهتف حقا بقرارك، باعتقادك الراسخ، في وجه القومندان!، نعم، لعلك لن تفعل ذلك، فقد لا يتناسب فعله مع شخصيتك، وربما كان الناس في بلدك يفعلون أمثال تلك الأمور على نحو مختلف. حسنا، ليكن الأمر كذلك، فلسوف يكون لطريقتك هذه نفس الأثر أيضا، فلا تقف حتى، بل قل بضع كلمات، ولو همسا، بدرجة تسمح فقط للموظفين الجالسين تحتك، بأن يسمعوها، وسيكون ذلك كافيا جدا، ولن تكون بحاجة حتى إلى أن تشير إلى افتقار الإعدام إلى مساندة الجماهير، ولا حتى العجلة التي تحدث صريرا أثناء دورانها، ولا السير المقطوع، ولا قطعة الفلين القذرة. لا، سأتكفل أنا بهذا كله، وصدقني، لو لم تدفعه دعواي إلى خارج هذا المؤتمر، فلسوف تجبره على أن يركع على ركبتيه، لكي يقر بالعرفان: «قومنداني السابق، إنني أتواضع أمامك!».

«هذه هي خطتي، فهل تساعدني على تنفيذها؟، ولكنك راغب بالطبع في مساعدتي، وماذا يمكن أن يكون هنالك أكثر من هذا، إنه يتوجب عليك أن تساعدني!»، وأمسك الضابط، بذراعي الرحالة، وحملق، متنفسا في وجهه بصعوبة. كان قد هتف بالجملة الأخيرة، بأعلى صوته، حتى لقد التفت الجندي، والرجل المحكوم عليه، فزعين!». لم يكونا قد فهما كلمة واحدة، إلا أنهما توقفا عن تناول حساء الأرز، وتطلعا نحو الرحالة، وهما يلوكان ما تناولاه.

ولم يكن لدى الرحالة أدنى شك حول الإجابة التي كان عليه أن يدلي بها، ففي خلال حياته، كان قد مارس الكثير جدا من التجارب، حتى أنه لم يكن ليتردد في مثل هذا الظرف، ولقد كان شريفا في خصاله، وشجاعا، وإنه الآن، حتى وهو يواجه الجندي والرجل المحكوم عليه، قد تردد بالفعل لمدة طويلة، حتى استطاع أن يجذب أنفاسه أخيرا، مع ذلك، وقال، كما كان ينبغي له أن يقول : «لا!»، فرمش الضابط بعينيه عديدا من المرات، إلا أنه لم يحول عينيه بعيدا. وتساءل الرحالة قائلا: «هل تحب أن أشرح لك لماذا؟»، فأطرق الضابط، بلا صوت!،: «لأنني لا أقر إجراءاتك هذه!»، حتى قبل أن تأخذني إلى مؤتمرك - إنني بالطبع، تحت أي ظرف من الظروف، لن أخون ثقتك - كنت بالفعل أتساءل عما إذا كان من واجبي أن أتدخل، وعما إذا كان سيتاح لتدخلي أدنى فرصة للنجاح. ولقد تحققت الآن ممن يجب علي أن أقصده، القومندان بالطبع!، ولقد أوضحت أنت هذه الحقيقة، وضوحا أشد، لكن دون أن تقوى من عزيمتي، بل على العكس، فإن اعتقادك المخلص قد أثر في نفسي على الرغم من أنه لم ينجح في أن يؤثر على عدالتي!».

ظل الضابط صامتا، واستدار نحو الآلة، وأمسك بقضيب نحاسى، ثم حدق، وهو ينحنى قليلا إلى الأمام، فى «الرسام»، كما لو كان ليتأكد بنفسه من أن كل شىء كان على ما يرام. وبدا الجندى والرجل المحكوم عليه بالإعدام، كما لو كانا قد أدركا بعض الإدراك!، وكان الرجل المحكوم عليه يشير إلى الجندى إشارات ذات مغزى، على الرغم من صعوبة حركته بسبب السيور محكمة الشد، وكان الجندى مائلا نحوه، محنيا إلى أسفل، وهمس الرجل بشىء ما، وأطرق الجندى.

وتبع الرحالة الضابط قائلا: «إنك لا تعرف بعد، ما الذى أنوى أن أفعله، سوف أخبر القومندان دون شك برأيى، فيما يتعلق بتلك الإجراءات، لكن ليس فى اجتماع عام، وإنما على حدة، كما أننى لن أبقى هنا طويلا، حتى أشهد أى مؤتمر، فسوف أرحل صباح الغد الباكر، أو سأصعد إلى ظهر سفينتى على الأقل!».

لم يكن يبدو على الضابط أنه كان يستمع، فقد قال مبتسما، كما يبتسم الرجل المسن من الهراء الصبيانى، ولكنه يتعقب أفكاره الخاصة خلف ابتسامته: «وهكذا، فأنت لم تقتنع بتلك الإجراءات؟».

ثم أخيرا قال: «إذن فقد حان الوقت!».

وتطلع فجأة إلى الرحالة بعينين لامعتين، كانتا تحملان شيئا من التحدى، وشيئا من الدعوة إلى المعاونة.

تساءل الرحالة، فى غير ارتياح : «وقت ماذا؟».

إلا أنه لم يتلق جوابا!.

قال الضابط للرجل المحكوم عليه باللغة الوطنية: «إنك حر!»، ولم يصدق الرجل ذلك فى بداية الأمر، فقال الضابط: «نعم، أنت مطلق

السراح!»، وللمرة الأولى انتعش وجه الرجل المحكوم عليه انتعاشا حقيقيا، فهل كان ذلك صحيحا؟، هل كانت فقط مجرد نزوة من نزوات الضابط، ما تلبث أن تتغير ثانية؟، هل رجاه الزائر الأجنبي أن يطلق سراحه؟، وكيف تم له ذلك؟. كان من الممكن أن يقرأ المرء هذه التساؤلات على وجهه، لكن ليس لفترة طويلة، فمهما كان الأمر، فقد كان يريد أن يصبح حرا بالفعل، لو كان ذلك ممكنا، وبدأ يصارع، بقدر ما كان «المشط» يسمح له بالصراع!.

وصاح الضابط قائلا : «إنك تمزق سيورى، ابق كما أنت، فسوف نفكها حالا!»، وشرع فى فكها، مشيرا إلى الجندى، ليعاونه. وضحك الرجل المحكوم عليه، فى صمت بينه وبين نفسه، وأدار وجهه مرة إلى اليسار نحو الضابط، وأخرى إلى اليمين نحو الجندى، كما أنه لم ينس أن يتطلع إلى الرحالة!.

أصدر الضابط أمره قائلا: «اسحبه خارجا!»، فبسبب «المشط» كان لابد لذلك من أن يتم بشىء من العناية، وكان الرجل قد خلص نفسه إلى حد ما من الخلف لفراغ صبره.

ومع ذلك، فلم يلق الضابط إليه أدنى اهتمام، منذ تلك اللحظة، ومضى نحو الرحالة، وسحب المحفظة الجلدية الصغيرة مرة أخرى، وأخرج الأوراق التى بداخلها، وعثر على الورقة التى كان يريدها، وعرضها على الرحالة، قائلا: «اقرأها؟».

قال الرحالة : «لا أستطيع، لقد ذكرت لك من قبل، أننى لا أستطيع تفسير تلك النقوش!».

قال الضابط، وهو يقترب جدا من الرحالة؛ حتى يتمكنا من تفسيرها معا: «حاول أن تنظر إليها نظرة متفحصة!».

وعندما بدا أن لا جدوى من ذلك، مر الضابط على النقش بإصبعه الصغير، رافعا إصبعه عاليا فوق الورقة، كما لو كان السطح غير قابل للتلوث باللمس، لكى يتيح للرحالة أن يتتبع النص، على ذلك النحو. وبذل الرحالة جهدا، متكلفا إرضاء الضابط فى هذا المطلب على الأقل، إلا أنه كان عاجزا تماما عن تتبع تلك النقوش. وبدأ الضابط أخيرا فى تهجى الحروف، حرفا حرفا، ثم بعد ذلك قرأ الكلمات: «كن عادلا!»، قائلا: «هذا ما هو مكتوب هنا، ويمكنك بلا شك أن تقرأها الآن!»، ومال الرحالة جدا على الورقة، حتى خشى الضابط أن يلمسها، وسحبها بعيدا عنه، ولم يلحظ الرحالة ذلك، لكن كان واضحا أنه كان عاجزا ما يزال عن فك رموزها.

قال الضابط مرة أخرى: «كن عادلاً!»، هذا ما هو مكتوب عليها!».

ورد الرحالة : «ربما، إننى على استعداد لتصديقك!».

قال الضابط : «حسنا إذن!»، راضيا بعض الرضا على الأقل، وارتقى السلم، صاعدا بالورقة إلى أعلى، وبعناية وضعها فى داخل «الرسام»، وبدا كما لو كان يعدل من وضع كل التروس، ولقد كان عملا مرهقا، وكان لابد له من ربط كل العجلات بالغة الصغر - واختفت تماما رأس الضابط لبعض الوقت فى داخل «الرسام». كان عليه أن يضبط الآلة بغاية الدقة. وكان الرحالة فى أسفل يرقب العمل بصورة متصلة، وتصلبت عنقه، وأرهقت عيناه من سطوع الشمس فى السماء، وكان الجندى والرجل المحكوم عليه مشغولين معا الآن، وكان قد تم اصطياد بنطلون الرجل وسرواله، اللذين كانا قد ألقيا داخل القبر وسط الماء

والدم، بطرف حربة بندقية الجندى. كان السروال قذرا بصورة بشعة، وغسله الرجل فى الدلو الممتلىء بالماء، وعندما ارتدى السروال والبنطلون أخيرا، لم يتمكن من منع نفسه هو أو الجندى من القهقهة، ذلك أن الملابس كانت بالطبع مشقوقة من الخلف. ولعل الرجل المحكوم عليه، قد أحس بأنه يتعين عليه أن يسلى الجندى، فاستدار حول نفسه، واستدار بملابسه الممزقة، وأقعى الجندى فوق الأرض ضاربا ركبتيه فى ابتهاج، ولكنهما سرعان ما وضعا حدا لابتهاجهما بدافع من الاحترام للسيدين.

وعندما فرغ الضابط من مهمته فى أعلى، نظر إلى الآلة فى جملتها مرة أخرى بابتسامة، لكنه أغلق غطاء «الرسام» هذه المرة، ذلك الغطاء الذى كان قد بقى مفتوحا حتى الآن، وهبط إلى أسفل، ونظر داخل القبر، معلقا على استرداد الملابس من داخل القبر فى رضا، ثم مضى نحو دلو الماء لكى يغسل يديه، مدركا بعد فوات الوقت أن الماء كان قذرا بصورة تبعث على القرف، ولم يكن راضيا، لأنه لم يتمكن من أن يغسل يديه، وفى النهاية دسهما فى قلب الرمال. هذا الحل لم يرضه، لكن كان عليه أن يقنع به ـ ثم وقف معتدلا، وبدأ يفك أزرار سترته الرسمية. وعندما فعل ذلك، سقط المنديلان النسائيان اللذان كان قد دسهما خلف ياقة قميصه، سقطا فى يديه. قال: «ها هى مناديلك!»، وقذفهما نحو الرجل، واتجه نحو الرحالة مفسرا: «هدية من السيدات!».

وعلى الرغم من السرعة الزائدة التى كان ينزع بها سترته الرسمية، ثم ملابسه كلها بعد ذلك، فقد أمسك بكل قطعة منها بعناية فائقة، وتحسس بأصابعه زركشتها الفضية، تلك الزركشة التى كانت تزين

الـسـترة، ورتب الشوشة كما كانت، كانت عنايته الزائدة الوالهة هذه ترجع بلا شك إلى حقيقة أنه كان يتعين، بمجرد أن ينتهى من خلع كل قطعة من ملابسه، أن يطوح بها فورا إلى داخل القبر، وقد مثل بنوع من الاندفاع المتردد. وكان قد تبقى شىء أخير، هو سيفه، وحزامه، وقد سحب السيف من داخل غمده، وكسره، ثم طوح بقطع السيف، وبالحزام، والغمد جميعا، بغاية العنف إلى القبر، حتى لقد انبعثت أصوات صلصلتها من داخله.

ووقف عاريا هناك فى نهاية الأمر، وعض الرحالة شفتيه، ولم يقل شيئا، فقد أدرك على وجه الدقة ما سيحدث بعد ذلك، إلا أنه لم يكن له حق منع الضابط من أن يفعل أى شىء يراه. فلو كانت الإجراءات القانونية التى تعهدها الضابط، كانت تسير حقا، إلى نهايتها على هذا النحو - كنتيجة حقا لتدخل الرحالة، الذى أحس باضطراره إلى ذلك - فلقد كان الضابط إذن مصيبا فيما يفعله، وفى مكانه لم يكن الرحالة ليفعل شيئا آخر سوى ذلك.

لم يفهم الجندى، ولا الرجل المدان شيئا مما كان يحدث فى البداية، ولم يكونا حتى مشغولين بأدنى محاولة لفهم ما كان يجرى حولهما. وكان الرجل المدان فرحا لاستعادته المناديل، إلا أنه لم يكن مسموحا له بالاحتفاظ بهما طويلا، لأن الجندى قد اختطفهما فجأة، وعلى غير توقع. وكان الرجل يحاول بدوره أن يختطفهما من تحت الحزام، حيث دسهما الجندى، إلا أن الجندى كان متيقظا لمحاولته. وهكذا كانا قد انهمكا فى الصراع على سبيل المزاح. ولم يجتذب انتباههما سوى وقوف الضابط عارياً تماما. وقد صدمت الرجل المحكوم عليه بالإعدام

بصفة خاصة، فكرة أن تغيرا حاسما فى المصائر كان وشيك الوقوع. فما حدث له، كان فى طريقه لأن يمر بالضابط هو أيضا، ربما حتى نهاية النهاية. ويبدو أن الزائر الأجنبى قد أمر بهذا. وعلى هذا فقد كان ذلك انتقاما، مع أنه شخصيا لم يعان التجربة حتى النهاية، وارتسمت ضحكة سخرية عريضة، صامتة، على وجهه، وظلت مرسومة على وجهه طوال ما تبقى من الوقت.

ومع ذلك فقد استدار الضابط نحو الآلة. ولقد كان واضحا من قبل بدرجة كافية، أنه كان يفهم جيدا كيف يدير الآلة، لكنه كان يبعث الآن على الدهشة، عند رؤيته وهو يديرها، ورؤية إلى أى حد كانت الآلة تنقاد لإدارته، كان على يده فقط أن تقترب فحسب من «المشط» حتى يرتفع وينخفض عديدا من المرات، إلى أن يتخذ وضعه الصحيح لاستقبال الضابط، ولقد لمس فقط حافة «الفراش»، وسرعان ما تذبذب هذا من فوره، وجاءت قطعة الفلين، لتقابل فمه، وكان فى إمكان المرء أن يرى أن الضابط، كان رافضا بالفعل أن يبتلعها، تفاداها فقط للحظة، ولكنه سرعان ما رضخ وابتلعها. وكان كل شىء جاهزا، فقط كانت السيور ملقاة إلى أسفل من كل الجوانب، لم تكن ثمة حاجة إليها بالفعل، ولم يكن الضابط فى حاجة إلى أن يقيد، ثم لاحظ الرجل المحكوم عليه، السيور المفكوكة، ولم يكن الإعدام مستكملا فى رأيه لشروط وقوعه، ما دامت بكلات أبزيمات السيور غير مشبوكة، ولقد أومأ بهمة للجندى، وأسرعا معا لكى يقيدا الضابط بالسيور، وكان الأخير قد مدد إحدى قدميه لكى يدفع بها الذراع التى حركت «الرسام»، ورأى الرجلين قادمين نحوه، فسحب قدمه إلى الخلف، واستسلم للقيود، إلا

أنه لم يعد يمكنه أن يبلغ الذراع الآن، ولا كان الجندى أو الرجل المحكوم عليه قادرين على تمييزها، وكان الرحالة قد انتوى ألا يحرك ساكنا. لم يكن ضروريا دفع الذراع، فما أن تم شد القيود، حتى بدأت الآلة فى العمل، وتذبذب «الفراش»، وخفقت الإبر فوق الجلد، وارتفع «المشط»، وهبط. وكان الرحالة يحدق فيه لفترة قبل أن يتذكر أن ثمة عجلة من عجلات «الرسام» كان لابد لها أن تحدث صريرا، إلا أن كل شىء ظل هادئا، ولم يكن فى الإمكان سماع أقل همهمة.

وكانت انتباههم قد انصرف عن الآلة لأنها ببساطة كانت تعمل على ذلك النحو الصامت، ولاحظ الرحالة وجود الجندى والرجل المحكوم عليه، وكان الأخير أكثر انتعاشا، فقد كان كل شىء فى الآلة يستحوذ على اهتمامه، وكان منحنيا الآن إلى أسفل، ومشرئبا فى حين آخر، فوق أطراف أصابعه، وكانت سبابته ممدودة طوال الوقت، يشير بها للجندى إلى التفاصيل. ولقد تبرم الرحالة بذلك، كان قد عزم على البقاء حتى النهاية، إلا أنه لم يكن يحتمل رؤية هذين الشخصين، قال لهما: «انصرفا إلى بيوتكما!»، وتقبل الجندى ذلك الأمر راضيا غاية الرضا، لكن الرجل المحكوم عليه تلقاه وكأنه عقوبة، وتوسل بيديه المتعانقتين طالبا السماح له بالبقاء، وعندما هز الرحالة رأسه رافضا، خرّ الرجل راكعا على ركبتيه.

ورأى الرحالة أنه لم يكن ثمة فائدة من مجرد إطلاق الأوامر، وكان على وشك أن يتجه نحوهما، ويدفعهما بعيدا، و.. سمع فى تلك اللحظة ضوضاء منبعثة من «الرسام» فوق رأسه، فتطلع إلى أعلى، هل كان ذلك الترس بسبيله مرة أخرى إلى إثارة الضجيج؟، إلا أن الأمر كان

أمرا مختلفا تمام الاختلاف، وببطء ارتفع غطاء «الرسام» ثم سقط مفتوحا على آخره، وظهرت أسنان الترس، وارتفعت أكثر، وسرعان ما ظهرت العجلة بأكملها، بدا كما لو كانت ثمة قوة هائلة تعتصر «الرسام»، حتى لم يعد هناك مكان للعجلة، فتحركت إلى أعلى، حتى بلغت حافة «الرسام» وسقطت إلى أسفل، وتدحرجت فوق الرمال قليلا فوق حافتها، ثم ارتمت على سطحها، وكانت العجلة الثانية ترتفع للتو بدورها حينذاك، يتبعها العديد من العجلات المسننة، كبيرة وصغيرة، وفي لحظة، لا يمكن تقديرها، تدحرجت جميعا على نفس النحو، وكان المرء يتصور، بعد كل لحظة، أن «الرسام» سيفرغ، إلا أن مجموعة أخرى من العجلات التى لا حصر لها كانت سرعان ما تظهر، وتسقط على الأرض، وتتدحرج فوق الرمال، ثم ترتمى. وجعلت هذه الظاهرة الرجل المحكوم عليه ينسى تماما، الأمر الذى وجّهه إليه الرحالة بالانصراف، فلقد سحرته العجلات ذات التروس، وكان يحاول فى إصرار أن يمسك بإحداها، ويسأل الجندى فى الوقت نفسه، أن يعاونه فى الإمساك بواحدة، لكنه كان يسحب يده دائما فى انزعاج، ذلك أن عجلة أخرى كانت تأتى دائما، مترنحة فى طريقها إلى الأمام، حيث كانت تزعجه بدورها فى النهاية، على الأقل فى بداية تدحرجها.

وكان الرحالة، من ناحية أخرى، قد أحس باضطراب شديد، كانت الآلة تتفكك فى وضوح إلى أجزاء صغيرة، ولقد كان عملها فى صمت مجرد خدعة، وخامره شعور بأن عليه أن يقف الآن إلى جوار الضابط، فى الوقت الذى لم يعد قادرا فيه الآن على أن يعنى بأمر نفسه، لكن بينما ابتلعت العجلات ذات التروس المتواترة كل اهتمامه، كان قد نسى

أن يتنبه إلى بقية الآلة، و.. أصيب أخيرا بدهشة بالغة، دهشة لا تبعث على الرضا مع ذلك، فحين كانت آخر عجلة قد غادرت «الرسام»، كان الرحالة قد انحنى على «المشط»، فاكتشف أنه لم يكن يقوم بالكتابة، وإنما كان يطعن، ولم يكن «الفراش» يدير الجسم حول نفسه، لكن فقط يرفعه إلى أعلى مرتعشا، ملاصقا للإبر. ولقد أراد الرحالة أن يفعل شيئا، لو أمكنه أن يفعل، لإيقاف الآلة، لأن ما كان يحدث لم يكن تعذيبا رائعا كما أراده الضابط، وإنما كان قتلا صريحا، ومد يديه. إلا أن «المشط» ارتفع فى تلك اللحظة حاملا الجسم مغروزا فى أسنانه، وتحرك إلى أحد الجوانب، كما تفعل الآلة، فقط عندما تحل الساعة الثانية عشرة، وكان الدم يتدفق فى مئات الجداول، ولا يمتزج بالماء، كما أن أنابيب الماء قد تعطلت هى أيضا. وتعطل وقوع آخر مرحلة من مراحل العمل، فلم يسقط الجسم المغروز فى الإبر الطويلة، وظل معلقا، شاخبا خيوط الدم فوق القبر، دون أن يسقط فى داخله. وحاول «المشط» أن يتحرك راجعا إلى الخلف، إلى مكانه السابق، لكنه ظل ثابتا فى مكانه فوق القبر، كما لو كان قد لاحظ أنه لم يتخلص بعد من حمله، وصاح الرحالة فى الشخصين الآخرين: «تقدما بالمساعدة!»، وأمسك هو بقدمى الضابط، بينما أمسك الآخران بالرأس من الجانب المقابل، وهكذا، فربما أمكن تخليص الضابط من الإبر. إلا أن الشخصين الآخرين لم يتمكنا من أن يواصلا العمل، بل لقد استدار الرجل المحكوم عليه مبتعدا بالفعل، وكان على الرحالة أن يذهب خلفهما، ويجبرهما على التقدم إلى حيث تتعلق رأس الضابط. وكان عليه هنا، على الرغم منه، أن ينظر إلى وجه الجثة. كان الرأس كما كان

أثناء حياته، لم تكن ثمة علامة هناك للنداء الموعود، ولم يجد الضابط في الآلة ما وجده فيها الآخرون، كانت الشفتان مضمومتين إلى بعضهما، وكانت العينان مفتوحتين بنفس التعبير الذى كانتا تتخذانه أثناء حياته، وكانت نظراتهما هادئة، وراضية، وخلال الجبهة كان الثقب الذى أحدثته الشوكة الحديدية الهائلة.

❖ ❖ ❖

وعندما بلغ الرحالة، مع الجندى، والرجل المحكوم عليه، أول بيوت المستعمرة، أشار الجندى إلى أحدها، قائلا : «ها هو مشرب الشاى!».

وفى فناء البيت كانت هناك مساحة عميقة منخفضة، كهضبة، وكانت حوائطها، وسقفها قد سوده الدخان، وكانت مفتوحة على امتداد طولها. ورغم أن هذا المقهى كان مختلفا اختلافا قليلا جدا عن البيوت الأخرى فى المستعمرة، التى كانت جميعها خرائب متهدمة، حتى تبلغ مبنى القومندان الشاهق، إلا أنه قد عكس انطباعا بتراث تاريخى من طراز ما على ذهن الرحالة، الذى أحس بقوة أثر الماضى، واقترب من المقهى، يتبعه رفيقاه، صاعدا وسط المناضد الخالية التى كانت تقف فى الطريق أمام المقهى، و.. تنفس الهواء البارد الثقيل الذى يأتى من الداخل. قال الجندى : «لقد دفن هنا الرجل العجوز، فلم يسمح له القسيس بالرقاد فى ساحة الكنيسة!»، احتار الناس فى المكان الذى يمكنهم أن يدفنوه فيه مؤقتا، وفى النهاية دفنوه هنا، إن الضابط لم يخبرك بذلك، لأنه بالطبع، كان يخجل من ذلك على الأغلب، ولقد حاول عددا من المرات أن يستخرج جثة الرجل العجوز ليلا، إلا أنه كان يطرد دائما، ويحال بينه وبين ذلك!».

تساءل الرحالة قائلا : «أين هو القبر؟»، وكان قد أحس بأنه يستحيل عليه تصديق الجندي. وهرول أمامه كلا الرجلين في التو، مشيرين بأيديهما الممدودة نحو القبر. اقتادا الرحالة إلى الأمام، نحو الجدار الخلفي، حيث كان يجلس بعض الضيوف، إلى عدد من الموائد القليلة، وكان هؤلاء على ما يبدو بعض عمال الميناء، رجال أقوياء، بلحى قصيرة، كثيفة، متألقة. ولم يكن فوق جسد أحدهم سترة، كما كانت سراويلهم جميعها ممزقة، كانوا مجرد مخلوقات بائسة، متواضعة!، وعندما اقترب الرحالة، وقف بعضهم، ملتصقين بالحائط، وحملقوا فيه: «إنه أجنبي!»، سرت همسة حوله : «إنه يريد أن يرى القبر!»، و.. دفعوا إحدى الموائد جانبا، وتحتها كان يوجد بالفعل شاهد قبر. كان حجرا بسيطا، منخفضا للغاية، حتى أنه كان من السهل تغطيته بأحد الموائد. وكانت ثمة نقوش قد حفرت فوق سطحه، في حروف صغيرة جدا، وكان على الرحالة أن يركع على ركبتيه، لكي يقرأها. وهذا ما كانت تقوله: «هنا يستريح القومندان القديم، إن أنصاره، الذين لا ينبغي أن تكون لهم الآن أسماء، قد حفروا هذا القبر، ووضعوا ذلك الحجر، وتوجد ثمة نبوءة، تتنبأ بنهوض القومندان ثانية بعد عدد من السنوات، ليقود أنصاره من هذا المنزل، لاسترجاع المستعمرة، اعتنق ذلك، وانتظر!»، عندما قرأ الرحالة تلك الكلمات، ونهض قائما على قدميه، رأى المتفرجين الذين يقفون من حوله يبتسمون جميعا، كما لو كانوا قد فرغوا هم أيضا معه من قراءة النبوءة، ووجدوها مضحكة، وكانوا يتوقعون منه أن يوافقهم على ذلك. وتجاهل الرحالة ابتساماتهم، ووزع عليهم بضع قطع قليلة من العملة،

و.. انتظر حتى انسحبت المائدة ثانية فوق القبر، فغادر مشرب الشاى، واتجه نحو الميناء.

وكان الجندى، والرجل، قد عثرا على بعض معارفهما فى المقهى، وقد احتجزهما هؤلاء، إلا أنه كان لابد لهما من التخلص من هؤلاء المعارف، فلقد كان الرحالة إذ ذاك فى منتصف السلم، يهبط الدرجات الطويلة المؤدية إلى القوارب، عندما بلغه كلاهما مندفعين خلفه، ولعلهما أرادا أن يورطاه فى اصطحابه لهما، فى اللحظة الأخيرة، وبينما كان يقوم بمساومة صاحب المعدية، لكى يجدف به من الشاطىء إلى الباخرة، كان الاثنان قد أسرعا، فهبطا الدرجات فى صمت، لأنهما لم يجرؤا على الصياح. لكن الرحالة كان قد أصبح داخل القارب، فى اللحظة التى بلغا فيها أسفل الدرج، وكان المعداوى، قد ابتعد بالفعل عن الشاطىء لحظتها، وكان فى إمكانهما أن يقفزا إلى داخل القارب، إلا أن الرحالة رفع حبلا ثقيلا، معقودا من أرضية القارب، وهددهما به..، وهكذا منعهما من محاولة القفز داخل القارب.

الـــدودة
الهائـلـة

هؤلاء الذين يعتبرون حتى الدودة الصغيرة، عادية الحجم، مقرفة، و ـ أنا واحد منهم ـ قد يموتون من شدة القرف، لو أنهم شاهدوا تلك الدودة الضخمة التى وجدت منذ سنوات قليلة بالقرب من إحدى قرانا، والتى اكتسبت ـ لوقت ما ـ شهرة خاصة بسبب ذلك الحادث. ولقد هوى الآن ذلك الحادث ـ مرة أخرى ـ منذ ذلك الحين إلى زوايا النسيان، وقد بدأ نسيانه هذا غامضا، بنفس الدرجة من الغموض الذى يبدو بها الحادث فى جملته، ذلك الحادث الذى بقى بلا أى تفسير، والذى لم يتجشم الناس أيضا فى الوقت نفسه ـ ويجب أن نعترف بذلك ـ كثير من الجهد فى تفسيره. وهكذا، وكنتيجة لعدم مبالاة غير مفهومة، فى مثل تلك الأوساط بالذات، تلك الأوساط التى كان عليها أن تهتم بذلك الحدث، والتى سبق لها أن اهتمت من قبل ـ فى الحقيقة ـ اهتماما حارا بأمور أشد تفاهة من ذلك الأمر، فقد أهملت المسألة قبل أن تبحث بحثا كافيا. وأيا كانت الظروف، فإنه ليس أمامنا أن نلتمس أياً من الأعذار، لحقيقة أن الطريق العام لم يكن يوصل إلى القرية.. ذلك أن كثيرا من الناس كانوا قد حضروا من مسافات بعيدة للغاية بدافع من الفضول

الخالص، حتى أن بعض الأجانب كانوا قد حضروا بينهم هم أيضا. لم يكن قد امتنع عن الحضور، سوى هؤلاء الذين كانوا سيكتشفون عن شيء آخر أكثر من مجرد الفضول، وفي الحقيقة لو أن قليلا من الناس البسطاء جدا، الناس الذين لا يترك لهم عملهم اليومي لحظة من الفراغ إلا بصعوبة، لو أن هؤلاء الناس لم يتناولوا الأمر بكل تلك الموضوعية التى تناولوه بها، فلعل الشائعة التى تناولت تلك الظاهرة الطبيعية ما كانت لتنتشر، وتتجاوز الحدود المحلية. حقا إن الشائعة - التى لا يمكن تقييدها عادة - كانت بطيئة الانتشار بالفعل فى تلك الحالة، ولو أنها لم تكن قد تلقت دفعة - بالمعنى الحرفى للكلمة - فإنها ما كانت قد انتشرت. إلا أنه حتى ذلك لم يكن سببا مشروعاً لرفض التساؤل حول المسألة.

بل إن هذه الظاهرة الثانية، كانت على العكس من ذلك جديرة بأن تبحث هى أيضا، لكنهم بدلا من ذلك تركوا مدرس القرية العجوز ليكتب الوصف الوحيد للحادث باختصار، ومع أنه كان رجلا ممتازا فى مهنته الخاصة، إلا أن إمكانياته، واستعداده كذلك جعلا من المستحيل بالنسبة له أن يعد وصفا منفعلا يمكن أن يستخدمه الآخرون كقاعدة. وإنما كان تقريره والحال كذلك، ليس سوى شرح جاف للحادث. ولقد طبع كتيبه، وبيعت منه بضع نسخ قليلة لزوار القرية فى ذلك الحين، كما حققت كذلك بعض الانتشار العام، إلا أن المدرس كان واعيا بشكل كاف لأن يدرك أن جهوده الفردية تلك، التى لم يعاونه فيها أحد، كانت فى جوهرها غير ذات قيمة. إلا أنه - على الرغم من ذلك - لو لم يكن قد ركن إلى الاكتفاء من الأمر بذلك الجهد فقط، بل جعله هدف حياته كلها،

حتى ولو كان الأمر قد أصبح عاما بعد آخر ـ وهذا شيء طبيعي ـ أمرا لا جدوى منه، فإن ذلك كان سيثبت وحده أولا : كم كان قويا ذلك الأثر الذى كان ظهور الدودة الهائلة كفيلا بإحداثه، و.. كم من الجهود الشاقة، وإلى أى مدى من الإخلاص للعقيدة يمكن أن تتكشف عنه شخصية مدرس ريفي عجوز مغمور. إلا أن معاناته الأليمة من موقف اللامبالاة الذى اتخذته السلطات المعترف بها تجاهه، وقد أثبتتها نبذة موجزة، كان قد أتبعها بكتيبه بعد انقضاء عدة سنوات، فى وقت لم يكن فى استطاعة أى شخص فيه أن يتذكر سوى بصعوبة بالغة أصل الموضوع الذى كانت تتناوله النبذة أساسا. لقد شكا فى تلك النبذة من الافتقار إلى الفهم الذى لمسه فى أناس يتواجدون ـ على الأقل ـ حيث لا يتوقع المرء أن يلمس منهم ذلك! شكاوى، لم تفلح براعته فى التعبير عنها، فى أن تسند عنصر الأمانة الذى كان قد أمعن فى الغياب، حتى قامت الإدانة فى مكانه. فلقد كتب عن أمثال هؤلاء محددا كلامه بدقة شديدة، قائلا : (لم أكن أنا، بل لقد كانوا هم الذين تحدثوا بطريقة مدرسى القرى العجائز) و.. لقد أورد حتى ـ ضمن بضعة أشياء أخرى ـ طريقة نطق أحد الباحثين الذين كان قد توجه إليهم معربا عن مهمته. لم يذكر اسم الباحث، إلا أنه كان باستطاعتنا أن نستشف شخصيته من خلال عديد من الملابسات، وبعد أن تمكن المدرس من أن يظفر ـ بصعوبة بالغة ـ بالموافقة، كان قد أدرك للوهلة الأولى من نفس أسلوب التحية التى تلقاها، أن ذلك الباحث كان قد اكتسب فى الوقت نفسه حجة راسخة ضد مهمته، ذلك أن الشرود الذى كان قد استولى عليه، بينما كان يستمع إلى ذلك التقرير الطويل الذى قرأه عليه

المدرس من الكتيب الذى كان فى يده، كان من الممكن إدراك مداه من خلال ملاحظته عندما قال، بعد لحظة تأمل مفتعلة : (إن التربة المحيطة بكم، تربة سوداء بصفة خاصة، وغنية، ولهذا فهى تمد الديدان بتغذية دسمة، وعلى هذا ففى وسعها أن تنمو إلى حجم غير عادى).

فعقب المدرس قائلا فى دهشة وهو يحدد ياردتين على الحائط، مبالغا إلى حد ما بسبب انفعاله، فى طول الدودة : (لكن ليس إلى حجم بهذه الصورة!).

وأجابه الباحث، الذى كان يبدو عليه فى وضوح أنه كان ينظر إلى الأمر كله على أنه نكتة واسعة : (ولماذا لا تبلغه؟!).

وكان على المدرس أن يعود بعد هذا الحكم إلى منزله، ولقد روى، كيف كانت زوجته تنتظر هى وأطفاله الستة تحت الثلج، على جانب الطريق، وكيف كان عليه أن ينهى إليهم خبر الانهيار التام لكل آماله.

وعندما قرأت عن موقف الباحث تجاه الرجل العجوز، لم أكن بعد قد اطلعت على الكتيب الذى كان المدرس قد أصدره، إلا أننى أبحت لنفسى على الفور القيام بجمع ومقارنة كل المعلومات التى رأيت أنها تتعلق بالقضية. فإذا لم يكن فى مقدورى أن استخدم القوة الجسدية ضد الباحث، ففى مقدورى على الأقل أن أكتب دفاعا عن المدرس، أو بدقة أكثر، عن النوايا الطيبة لرجل أمين، لكنه غير ذى نفوذ، وأقر بأننى قد ندمت على هذا القرار فيما بعد، ذلك أننى أدركت على الفور أن تنفيذه كان كفيلا بأن يضعنى فى مأزق غريب للغاية، فنفوذى الشخصى من ناحية، لم يكن كافيا أبدا لإحداث أى أثر للتغيير فى الرأى العام، لا فى أوساط المتعلمين، ولا حتى فى الأوساط العامة،

حتى يقف إلي جانب المدرس، بينما كان هناك من الناحية الأخرى، احتمال أن ينبرى المدرس، موضحا أن التفهم التام لجوهر موضوعه يعوزنى، وأن على أن أثبت أن الدودة الهائلة قد شوهدت بالفعل قبل أن أقف للدفاع عن أمانته، التى لابد بالطبع ستتضح له شخصيا، ولا تكون ثمة حاجة بها حينئذ إلى أى دفاع، وتبعا لذلك، فهذا هو ما كان مقدرا له أن يحدث : كان المدرس سيسىء فهمى على الرغم من أننى ما كنت أريد سوى معاونته، وبدلا من أن أقوم بمعاونته، ربما أصبحت أنا نفسى حينئذ فى حاجة إلى المعونة التى يبدو أن أحدا لن يهتم بتقديمها إلى. وعلاوة على ذلك، فإن قرارى ذاك كان سيضع فوق كاهلى أعباء ثقيلة من العمل، فإذا كنت قد أردت أن أقنع الناس، فقد كان فى غير استطاعتى استدعاء المدرس، بما أنه لم يكن قادرا هو نفسه على إقناعهم. كما أن قراءة كتيبه لم تكن لتقدم لى سوى مزيد من التخبط، وعلى هذا فقد امتنعت عن قراءته حتى يتاح لى أن أفرغ من القيام بجهودى الخاصة. وبالإضافة إلى ذلك كله، فإننى لم أتصل حتى بالمدرس نفسه، وحقيقة لقد سمع عن تحرياتى عن طريق الوسطاء، إلا أنه لم يكن يعرف ما إذا كنت سأستخدم معلوماتى تلك معه أو ضده. وربما كان - فى الواقع - قد ركن إلى الاحتمال الأخير على الرغم من أنه قد أنكر ذلك فيما بعد، ذلك أن لدى ما يثبت حقيقة أنه قد وضع فى طريقى عديدا من العراقيل. كان من الطبيعى جدا بالنسبة له أن يفعل ذلك، لأننى بالطبع سأكون مضطرا إلى أن أنقل عنه ثانية كل التحريات التى كان قد قام هو بها أخيرا، وبهذا يكون فى وسعه دائما أن يختلس خطوة نحوى. كانت تلك هى العقبة الوحيدة التى

كان يمكنها أن تقوم فى مواجهة طريقتى فى العمل. طريقة التناول غير المنحاز، الذى كان الحذر وإنكار الذات، واللذان كنت قد خططت بهما استنتاجاتى - بالإضافة إلى ذلك - قد قاما دائما بتوجيهها. أما فيما عدا ذلك، فقد كان للكتيب الذى أنجزته تأثيرا بالغا على المدرس، وفوق هذه النقطة، ربما كانت تنصب كل تلك الريبة الهائلة التى كنت قد أبديتها، وربما كان فى مقدور المرء أن يشتم من كلماتى أنه ليس ثمة من اضطلع ببحث تلك الحالة من قبل أبدا، وأننى كنت أول من استجوب هؤلاء الذين كانوا شاهدوا الدودة أو سمعوا بها، وأننى كنت أول من اهتم بتلك الظاهرة، وأول من خرج منها باستنتاجات، و.. عندما قرأت أخيرا كتيب المدرس، وقد كان له عنوان وقتى : (دودة أكبر فى الحجم، من كل ما سبق رؤيته من قبل من الديدان)، اكتشفت أننا لم نكن متفقين بالفعل على بضع نقاط معينة، مهمة، رغم أننا كلانا كنا قد اعتقدنا بأننا قد أثبتنا أهم النقاط جميعا، وهى على وجه التحديد، وجود الدودة!، وقد منعت هذه الاختلافات قيام علاقات الصداقة التى كنت أتطلع إلى عقدها مع المدرس على الرغم من كل شىء. فمن ناحيته، كانت قد نمت ثمة أحاسيس عدائية، حقا لقد كان بسيطا ومتواضعا فى تحركه نحوى، إلا أن هذا نفسه، هو ما جعل أحاسيسه الحقيقية أكثر وضوحا، أو أنه بمعنى آخر كان يعتقد أننى لم أفعل فقط سوى أننى قمت بإنكار فضله، وأن اعتقادى بأننى قد قمت، أو بأننى سوف أقوم بمعاونته، كان واضحا بما يكفى، إلا أنه وضوح يبدو كما لو كان افتراضا أو خدعة، ولقد كان ولوعا بصفة خاصة بقوله إن كل أعدائه السابقين، قد مارسوا عداءهم، إما بأن أضمروه له، أو أذاعوه سرا،

أو أعلنوه فى الأغلب عن طريق اللسان، بينما قد رأيت أنا أنه من الضرورى أن أقوم مباشرة بنشر انتقاداتى. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان معارضوه القلائل الذين كانوا قد شغلوا أنفسهم جديا بالأمر، قد استمعوا على الأقل - ولو باستعلاء - إليه، إلى وجهة نظر المدرس، قبل أن يعبروا عن وجهة نظرهم، بينما قمت أنا تحت وطأة الربط بلا منهج، ولأننى أسأت فهم الوضوح على نحو ما، بنشر استنتاجات، حتى لو أنها كانت صحيحة من حيث ارتباطها بالنقطة الرئيسية، فلابد أنها كانت تبعث على الريبة فى أوساط العامة، بدرجة لا تقل عما تحدثه بين المتعلمين. إلا أن أقل إشارة قد توحى بأن وجود الدودة لم يكن أهلا للتصديق. كانت من أشد ما قد ينتهى إليه الأمر سوءا فى مثل هذه الحالة.

ويمكننى بسهولة أن أجد ردا على هذه الاتهامات المختفية تحت الأقنعة كما كانت تبدو بأن كتيبه - مثلا - قد بلغ ذروة اللا معقول، ومع ذلك فقد كانت مواجهتى لريبته أقل من ذلك سهولة، وكان هذا هو السبب فى أننى كنت متحفظا للغاية فى علاقتى به، ذلك أنه كان مقتنعا فى قرارة نفسه بأننى قد انتويت أن أسطو على شهرته باعتباره يقوم على المستوى العام بتفسير وجود الدودة رغم أنه لا يتمتع الآن - بالطبع - بأية شهرة، فيما عدا سمعة سيئة للغاية، كانت تتزايد كل يوم أكثر فأكثر ولم تكن لدى بالتأكيد أية رغبة فى مزاحمته فى مثل تلك السمعة، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كنت قد أعلنت فى مقدمة كتيبى بوضوح أنه يجب ألا يغيب عن الأذهان فى أى وقت من الأوقات أن المدرس هو مكتشف الدودة - ولم يكن هو حتى من اكتشفها، وأن

تعاطفي مع حظه السيء هو وحده ما حفزني على أن أكتب قائلا: (إن ذلك هو هدف هذا الكتيب) - و.. هكذا أنهيت الأمر كله نهاية ميلودرامية، إلا أنها كانت تتفق مع أحاسيسي في ذلك الوقت (لكي أساهم في إعطاء كتيب المدرس الشعبية الواسعة التي يستحقها، فلو أتيح لي أن أنجح في هذا المسعى، فلعل اسمي الذي أعتبره شيئا عارضا، وشريكا من الباطن في هذا الموضوع أن يسقط عندئذ في الحال). وعلى هذا فقد أنكرت في وضوح وجود أية مشاركة جوهرية لي في الأمر، ولقد بدا لي ذلك كله، كما لو أنني كنت قد تنبأت على نحو ما باتهامات المدرس التي لا تصدق، على الرغم من أنه قد وجد في تلك الفقرة بالذات ما يستخدمه ضدي. ولست أنكر أنه قد كان هناك وجه شاحب للعدل فيما قاله، أو حتى فيما ألمح إليه. ولقد كنت حقاء في أغلب الأحيان، أفاجأ بحقيقة أنه قد كشف غالبا، فيما كنت أبحثه من نقاط عن نفاذ أشد عمقا مما أثبته في كتيبه، ذلك أنه قد أصر على أن مقدمتي كانت ذات وجهين، فلو أنني كنت مهتما فقط حقا بالعمل على إشاعة كتيبه، فلماذا لم أقصر اهتمامي عليه وعلى كتيبه، ولماذا لم أستخلص مآثر الكتيب، وتكامله؟ ولماذا لم أوجه جهدي إلى التركيز على خطورة الاكتشاف، وتوضيحها؟ ولماذا اهتممت بالإلمام بتفاصيل الاكتشاف نفسه، بينما تجاهلت الكتيب تماما؟!، ألم يكن الاكتشاف قد تم بالفعل؟ هل كان هناك ما يزال، شيء قد تبقى للقيام به في هذا الشأن؟ إلا أنه لو كان قد خيل إلى حقيقة أنه كان ضروريا لي أن أقوم بالاكتشاف كله ثانية. فلماذا إذن مجدت الاكتشاف الأصلي بكل تلك الجدية في مقدمتي؟ ربما كان على المرء أن يرجع ذلك إلى التواضع

هو الحقيقة، فإن موقفه لم يكن ليفسر بالشراهة، أو بالشراهة وحدها ـ على أى مستوى ـ بل نوعا ما، بالحساسية الزائدة، التى غذته بها جهوده الشاقة، وفشله التام.

إلا أنه، حتى حساسيته تلك، لم تفسر كل شىء، وربما كان اهتمامى بالموضوع عارضا حقا للغاية، وكان المدرس معتادا على عدم الاختلاط بالغرباء، وكان يعتبره أخطر الشرور، إلا أنه لم يلبث حتى بدأ يعانى من الأغراض الفردية لنظرته، وها قد ظهر شخص ما، وبغرابة تامة التقط الموضوع، بدون حتى أن يفهمه! لم يسعنى الدفاع عن نفسى عندما هوجمت من هذا الجانب. لست عالما بالحيوان، إلا أننى ربما كنت من اكتشفها، لكننى لم أكن قد اكتشفتها (لابد أنها نذير شؤم تلك الدودة الهائلة)، إلا أنه لا يتوقع المرء أن يتتبعها العالم كله بانتباهه المتواصل، المركز، وخاصة إذا لم يكن وجودها قد ثبت على نحو تام، لا يقبل الشك، وأنه لا يمكن تربيتها بحال من الأحوال. وأقر أيضا بأنه حتى لو كنت أنا من اكتشفها، فربما ما كنت قد انبريت على هذا النحو، بسعادة، وعن طيب خاطر فى الدفاع عن الدودة، إلى هذا الحد الذى لمسته عند المدرس.

وربما أتيح لسوء التفاهم بينى وبين المدرس أن يتضح الآن بسرعة لو أحرز كتيبى نجاحا ما. إلا أنه لم يكن ثمة أى نجاح فى الأفق! ربما لم يكن الكتاب قد كتب بما يلزم من الجودة، وربما لم يكن مقنعا بما فيه الكفاية. إننى رجل أعمال. ولعل موضوع مثل ذلك الكتيب أن يكون بعيدا عن متناول قدراتى المحدودة، بالنسبة لقدرات المدرس، على الرغم من أننى كنت متفوقا عليه، بصورة فائقة فيما يختص بنوع

المعرفة المطلوبة. وبالإضافة إلى ذلك فربما أمكن تفسير فشلي بوسائل أخرى، وقد يكون الوقت الذى ظهر فيه الكتيب، وقتا غير مناسب! إن اكتشاف الدودة، الذى فشل فى أن يخدع الجماهير الواسعة، فى الوقت الذى حدث فيه، لم يكن قد انقضى عليه وقت طويل من ناحية، حتى يصبح أمرا منسيا تماما، فهو قادر لهذا على أن يحيا ثانية من جديد بواسطة كتيبي، بينما انقضى من الناحية الأخرى وقت كاف تماما لاستهلاك الاهتمام العارض الذى ثار بطبيعة الأمر.

إن هؤلاء الذين تناولوا كتيبي قد قالوا جميعا لبعضهم البعض فى جدية، وبتلك اللهجة المفعمة بالضيق، التى تميزت بها المناقشة منذ البداية، أن تلك الجهود العقيمة، حول تلك التساؤلات المملة، سوف تبدأ الآن ثانية من جديد، ولقد خلط البعض حتى بين كتيبي، وبين كتيب المدرس. ولقد ظهر التعليق التالى، فى إحدى الصحف الزراعية المهمة، فى أقصى مكان من الصحيفة، لحسن الحظ، وبحروف صغيرة : (لقد وصلنا مرة أخرى ذلك الكتيب الذى يتناول الدودة الهائلة. ونذكر أننا قد ضحكنا لن أعماقنا منذ سنوات مضت بسببه، ومنذ ذلك الحين، لا الكتيب أصبح أكثر وضوحا، ولا أصبحنا نحن أكثر بطئا فى الفهم، ولكننا ببساطة نرفض أن نضحك منه، وسنسأل مؤسساتنا التعليمية بدلا من ذلك إن كان هناك ثمة عمل مفيد من الممكن أن يوجد لديها ليقوم به مدرسو قراننا بدلا من اصطياد الديدان الهائلة؟)!.

انفعال ذاتي لا يغتفر، إنهم لم يقرأوا لا الكتيب الأول ولا الكتيب الثاني، وقد كان التعبيران المستهينان المفتعلان (الدودة الهائلة) و(مدرس القرية)، كافيين فى نظر هؤلاء السادة، كممثلين للاهتمامات

الجماهيرية الوهمية، للتحدث عن الموضوع، وربما كان من الممكن اتخاذ بعض التدابير وبنجاح ضد هذا الهجوم، لكن الافتقار إلى التفاهم بين المدرس وبينى منعنى من الاجتراء عليهم. ولقد حاولت بدلا من ذلك أن أخفى عنه خبر التعليق ما وسعنى ذلك، إلا أنه اكتشفه على الفور، وقد أدركت ذلك من خلال جملة وردت فى أحد خطاباته الذى أعرب فيه عن عزمه على زيارتى فى أيام إجازة عيد الميلاد، كتب قائلا: (إن العالم مليء بالأحقاد، و إن الناس ليمهدون لها السبيل!)، ولقد أراد بهذه الجملة أن يلمح لى بأننى أحد الحاقدين، إلا أننى لست قانعا فقط بحقدى الغريزى، وإنما أردت أكثر من هذا أن أمهد للأحقاد السبيل إلى العالم. أو بمعنى آخر، أننى كنت أفعل ما أفعله فقط فى هذا السبيل، لكى أعين الأحقاد على النهوض، وأساعدها على الانتصار! حسنا لقد أعددت الحل الذى أحتاجه وأصبح فى مقدورى أن أنتظره فى هدوء، وفى ثبات حييته عندما وصل، وكان ثمة ظل من سوء الأدب فى سلوكه هذه المرة على غير العادة، وأخرج الصحيفة فى عناية من الجيب الداخلى للبالطو السميك العتيق الذى كان يرتديه، ومن ثم نشرها، وناولها لى! أجبته قائلا، وأنا أعيد له الصحيفة ثانية، دون أن أتفحصها: (لقد اطلعت عليها!).

قال وهو يتنهد : (لقد اطلعت عليها!).

كانت له عادة المدرسين العجائز، فى ترديد الإجابات العدائية، ثم واصل حديثه قائلا، وهو ينقر على الصحيفة بإصبعه فى تأثر، وينظر إلى فى حدة، كما لو كنت كائنا من فصيلة أخرى : (لم أود بالطبع أن تفوتنى هذه!).

ولا شك أنه كانت لديه فكرة ما عما كنت يسبيلى لأن أقوله، ذلك أننى أحسبنى قد لاحظت لا من مجرد كلماته وحدها، بقدر ما لاحظت من بعض الشواهد الأخرى أن ثمة مقدرة طبيعية كانت لديه!، مقدرة على استلهام رغباتى، على الرغم من أنها لم تكن تستميله، ولا كان هو يترك لها الفرصة لأن تصرفه عن أهدافه، ويمكننى أن أسجل تقريبا كل ما قلته له كلمة بكلمة، ذلك لأننى كنت قد سجلت مذكرة مختصرة بما قلته له بعد انتهاء مقابلتنا؛ قلت له : افعل ما يحلو لك، إن طريقينا لينفصلان منذ هذه اللحظة، ويخيل لى أن هذه الأخبار، ليست هى ما تتوقعه، ولا ما ترتاح إليه من أخبار!، وإن التعليق الذى جاء بهذه الصحيفة.لم يكن هو السبب الحقيقى لقرارى هذا، وإنما هو فقط قد أكده أخيرا، وأن السبب الحقيقى لهو هذا، فقد كنت قد حسبت فى البداية أن تدخلى ربما قدم بعض النفع لك، إلا أنه لا يسعنى الآن سوى أن أدرك أننى قد سببت لك الدمار من كل ناحية، فكيف حدث أننى لم أقل إن أسباب النجاح والفشل هى دائما أسباب غامضة، ولكن لا تتوقع أن تجد لها التفسير الوحيد فى أخطائى، ولنفرض أنك أنت أيضا كانت لديك النوايا الطيبة، إلا أن المرء لو تفحص الأمر بموضوعية لوجد أنك قد فشلت أيضا، ولست أقول ذلك بقصد السخرية منك، لأنها ستكون سخرية منى أنا أيضا، عندما أقول إن علاقتك بى لابد أن تعد ـ لسوء الحظ ـ من بين عناصر فشلك. إنه لن يكون جبنا ولا غدرا، لو أننى انسحبت الآن من القضية، وإن انسحابى ليتضمن قدرا ما من إنكار الذات بالفعل، وإن كتيبى نفسه ليؤكد كم قدرتك شخصيا، فلقد أصبحت ـ بمعنى ما ـ أستاذى، ولقد غدوت مغرما أنا

نفسى بالدودة، ومع أننى قد قررت أن أتنحى جانبا، فإنك أنت المكتشف، وكل ما يسعنى أن أفعله هو أن أعوقك عن أن تنال الشهرة اللائقة بك، بينما أستقطب أنا الفشل، وأعكسه عليك؛ وهذا هو رأيك على الأقل، وفى ذلك الكفاية. إن التكفير الوحيد الذى يسعنى أن أفعله هو أن أرجو عفوك، وإنك لتحتاجه، لتنتشر صراحة ـ وهذا ما يجب عليك أن تفعله ـ فى تلك الصحيفة هذا التسليم الذى سلمت لك به الآن!.

كانت هذه هى كلماتى. لم تكن مخلصة، إلا أن الإخلاص كان يتبدى فيها بما فيه الكفاية، ولقد اتضح لى من تأثير كلماتى هذه عليه أننى كنت قد تسرعت للغاية، فثمة شىء خادع فى العجائز، ثمة شىء من الخيانة فى علاقتهم بمن يصغرونهم فى السن، فأنت تعيش معهم فى سلام، وتتخيل أنك معهم على أتم وفاق، وأنك تعرف الميول التى تحكمهم، وتتلقى التأكيدات المتواصلة بالألفة، وتأخذ كل شىء على أنه مسلم به معهم، وعندما يقع حادث حاسم، ويقدر لكل تلك العلاقات المسالمة التى ازدهرت طويلا أن تصل إلى موقف جذرى، ينتصب هؤلاء العجائز أمامك فجأة كالغرباء، ويتكشف لك أن ثمة أحكاما أعمق وأقوى كانت لديهم عنك، وأنهم يبسطون الآن، ولأول مرة راياتهم إلى النهاية، و.. فى رعب تقرأ فيها بنفسك اللائحة الجديدة، ويكمن سبب ذلك الرعب أساسا فى حقيقة أن ما يقوله العجائز الآن يختلف للغاية فى الحقيقة معنى وشعورا، عما سبق أن صرحوا به من قبل، ويبدو الأمر كما لو أن للتعبير عن الذات درجات متفاوتة، وصحيحة كلها، وأن كلماتهم الآن تعد أكثر تعبيرا عن الذات منها فى أى وقت مضى، إلا أن الخدعة النهائية التى تكمن فى كلماتهم، إنما تتجلى فى هذا: أنهم

قد قالوا دائما فى أعماقهم، نفس ما يقولونه الآن. ولابد أننى كنت قد سبرت غور المدرس عميقا، لأننى قد لاحظت أن كلماته التالية لم تصبنى بالدهشة مطلقا، فقد قال وهو يضع يده فوق يدى، ويربت عليها فى رفق - متى بدأ اهتمامك بهذه المسألة يا بنى، إننى قد ناقشت الأمر مع زوجتى فور سماعى بنبئها! دفع مقعده إلى الخلف بعيدا عن المنضدة، ثم قام، وفرد ذراعيه، وحدق فى الأرض، كما لو كانت زوجته الضئيلة العجفاء تقف عليها أمامه، وكأنه يتحدث إليها قائلا لها : (لقد ناضلنا طويلا وحدنا لعدة سنوات، والآن يبدو لى وكأن ثمة نصيرا نبيلا، قد نهض فى المدينة لمساعدتنا. رجل أعمال عظيم هو السيد (فلان)!، إن علينا أن نهنىء أنفسنا، ألا ينبغى لنا أن نفعل؟ أحد رجال الأعمال فى المدينة!، ليس هذا مما يستهان به، فعندما يؤمن بنا فلاح جاهل، ويجهر بذلك، فإنه لن يجدينا فتيلا، ذلك أن ما قد يقوله أو يفعله فلاح، هو أمر لا طائل من ورائه، ومهما قال إن مدرس القرية العجوز على حق، أو حتى بصق ليعلن ازدراءه، فإن النتيجة سواء فى كلتا الحالتين، ولو قام عشرة آلاف فلاح بدلا من فلاح واحد لنصرتنا، فإن النتيجة - حتى لو أمكن أن يحدث هذا - سوف تظل فقط أكثر سوءا، إلا أن واحدا من رجال الأعمال فى المدينة هو من ناحية أخرى - شخص مختلف تماما - إن الأشياء التى يقولها - بلا قصد - رجل له اتصالات مثل هذا الرجل، تسمع - كما هى - و.. تردد، ثم يبدأ المحدثون فى الاهتمام بالقضية، وقد يبدى أحدهم ملاحظة ما، قائلا: (يمكنكم أن تتعلموا حتى من مدرسى القرى العجائز. وفى اليوم التالى يقولها كل جماهير الناس لبعضهم البعض، حتى الناس الذين لا يمكنك مطلقا أن

تتصوريهم يقولون مثل تلك الأشياء، يقولونها هم أيضا ليلفتوا الأنظار، ثم يوجد المال بعد ذلك لتمويل الإيمان، ويتجول أحد السادة ليجمع ذلك المال باسمنا بينما يطالبه الآخرون بالتوقيعات، ثم يقررون أن يؤتى بمدرس القرية إلى الضوء. ومن ثم يصلون، لا يبالون بمظهره الخارجي، وإنما يأخذونه فى أحضانهم، وبما أن زوجته وأطفاله يعتمدون عليه فى معيشتهم، فإنهم يتقبلونهم هم أيضا. ألم تشاهدى أهل المدينة من قبل، إنهم يثرثرون بلا توقف، وعندما يتجمع جمع كبير منهم معا فإن فى إمكانك أن تستمعى إلى ثرثرتهم تندفع من اليمين إلى اليسار، ثم تعود ثانية إلى اليمين، وترتفع، وتنخفض فى هذا السبيل وفى ذاك، و.. بعد أن تهدأ ثرثرتهم، يدفعوننا نحو العربة، حتى أننا لا نجد وقتا أمامنا سوى بصعوبة لكى ننحنى لتحية الجماهير، ويضع السيد الذى يقود العربة عويناته فى موضعها، ويرفع سوطه، و.. من ثم نرحل، وسوف يلوحون جميعا بتحية الوداع نحو القرية، كما لو كنا ما نزال فيها هنالك، ولسنا جالسين فى وسطهم، ويأتى وجهاء الناس فى المدينة، فى العربات، ليلتقوا بنا على الطريق، وعندما نقترب منهم، ينهضون عن مقاعدهم، ويشرئبون بأعناقهم. بينما يرتب السادة الذين جمعوا المال كل شىء بالطرق القانونية، ووفقا لخطة موضوعة، وعندما ندخل المدينة، تكون قافلتنا قد تحولت إلى موكب طويل من العربات، ونظن نحن أن الاستقبال الشعبى قد انتهى، بينما يكون ذلك الاستقبال قد بدأ فقط فى الواقع عندما نصل إلى فندقنا، وتتجمع جمهرة لا حصر لها فور إعلان وصولنا، وما كان يشغل فردا يصبح على الفور شاغل الجميع. إنهم يستعيرون وجهات نظر بعضهم البعض، وتتحول

وجهات النظر العامة تلك بسرعة لتصبح وجهات نظر خاصة لكل منهم، وسوف يكون بانتظارنا كل الناس الذين لم يتمكنوا من أن يخرجوا فى العربات ليقابلونا. سيكونون جميعهم فى انتظارنا أمام الفندق، وسيكون هناك أيضا من كان فى مقدورهم أن يخرجوا فى عربات إلا أنهم كانوا أكثر وعيا، سوف يكون هؤلاء فى انتظارنا هم أيضا، إن الأسلوب الذى سوف يرقب به السيد الذى جمع المال، ويدير به كل شىء، سوف يكون أسلوبا فائقا للعادة!، لقد استمعت إليه فى برود، ولقد أصبحت بالفعل أكثر، وأكثر برودا كلما مضى فى حديثه، و.. كنت قد حشدت فوق المائدة كل النسخ التى كانت فى حوزتى من كتيبى، بضع نسخ قليلة فقط كانت قد فقدت. ذلك أننى كنت قد أصدرت نشرة خلال الأسبوع الماضى، أطلب فيها إعادة كل النسخ التى تم توزيعها، وقد تسلمت أغلبها ثانية، و.. كانت قد وصلتنى - فى الحقيقة - رسائل رقيقة جدا من أحياء عديدة توضح أن فلانا الفلانى لا يمكنه أن يتذكر إن كان قد تسلم مثل ذلك الكتيب، وأنه لو كان قد وصله بالفعل، فإنه يأسف لاعترافه بأنه لابد قد فقده. وقد كان ذلك فى حد ذاته تقديرا لم أكن فى أعماقى أطمع فى أكثر منه. قارىء واحد فقط رجانى أن أسمح له بأن يحتفظ بالكتيب من باب الفضول متعهدا تبعا لجوهر نشرتى، بأنه لن يطلع عليه أحدا مطلقا قبل مضى عشرين عاما، لم يكن مدرس القرية قد رأى نشرتى بعد. ولقد كنت سعيدا لأن كلماته يسرت لى إلى حد بعيد مهمة اطلاعه عليها، وقد كان باستطاعتى رغم ذلك أن أطلعه عليها دونما أى نوع من القلق، أيا كانت الأحوال، بما أننى قد قمت بصياغتها بغاية الحذر، واضعا اهتماماته دائما نصب عينى، وقد

جاءت الفقرة القاطعة في النشرة كما يلي: «لست أطلب إعادة الكتيب لأننى قد تراجعت بأى حال من الأحوال عما جاء فيه من مواقف الدفاع، أو أننى أريد أن أنبه إلى خطئها، أو حتى إلى صعوبة إثباتها فى أى من تفصيلاتها، ولكن طلبى لها يستند على أسس شخصية محضة وعاجلة جدا علاوة على ذلك، ويجب ألا يرتبط موقفى من القضية كلها مهما كانت الأحوال بأية نتيجة قد يمكن استخلاصها من طلبى هذا، وأرجو أن ألفت أنظاركم بصفة خاصة إلى ذلك، وأكون سعيدا أيضا لو تيسر لكم أن تساعدوا على نشر هذه الحقيقة»!.

بقيت واضعا كفى فوق نسخ النشرة لفترة بينما كنت أقول: «إنك تحقد على فى أعماقك، لأن الأمور لم تنته إلى ما كنت تأمل أن تنتهى إليه، فلماذا تفعل ذلك، لا تدعنا نجرع مرارة لحظاتنا الأخيرة معا، وحاول أن تتمعن الأمر فعلى الرغم من أنك قد قمت باكتشاف ما، فهو ليس بالضرورة أعظم من أى اكتشاف آخر، وتبعا لهذا فإن ما تعانيه من ظلم ليس أشد وطأة من أى من المظالم الأخرى، إننى لا أخبر سبل المجتمعات المتعلمة، إلا أنه لا يسعنى أن أعتقد أنك، فى أحس الظروف، كنت ستستقبل استقبالا لا تربطه أية صلة شبه ولو من بعيد بذلك الاستقبال الذى وصفته على ما يبدو لزوجتك، بينما ما أزال أنا نفسى آمل أن شيئا ما ربما يتمخض عنه كتيبى، وكان أقصى ما كنت أتوقعه أن أنظار أحد الباحثين ربما اجتذبتها تلك القضية، وأنه ربما كلف أحد تلاميذه الشبان ببحث تلك الظاهرة، وأن هذا التلميذ، ربما زارك، وراجع تحرياتك، وتحرياتى حول المسألة مرة أخرى، من جديد، وفقا لأسلوبه الخاص، وأن ذلك الشاب، فى النهاية، لو بدت له النتائج جديرة

بالاعتبار، وعلينا ألا ننسى أن جميع الدارسين الشبان متشككون للغاية - ربما أخرج كتيبا خاصا به توضع فيه اكتشافاتك على أساس علمى، وعلى كل حال فلو أن هذا الأمل قد تحقق فإن شيئا ذا بال، لن يكون قد أنجز بعد، فربما أصبح كتيب الدارس الشاب الذى يؤيد مثل تلك الآراء الغريبة هدفا للسخرية، ولو أخذت تلك الصحيفة الزراعية كمثال لأمكنك أن تدرك مدى السهولة التى قد يحدث بها الأمر، كما أن الدوريات العلمية ما تزال على عهدها فى عدم الاحتفال بمثل تلك الأمور.

وإنه لمن المفهوم تماما أن العلماء يتحملون مسئولية ضخمة أمام أنفسهم، وأمام العلم، وأمام الأجيال القادمة، وليس فى وسعهم أن يحتضنوا فورا كل اكتشاف جديد بلا أى تحفظ، وإننا لنجنى خيرا بدورنا من تحفظهم ذاك، إلا أننى سأطرح تلك النقطة بعيدا، وأفترض أن كتيب الطالب قد حاز القبول، فما الذى سوف يحدث بعد ذلك، لعله أن ينوه باسمك تنويها شرفيا، وقد تفيدك حقيقة أنك تعمل مدرسا، فلسوف يقول الناس: «إن لمدرسى قرانا بصيرة نافذة!»، وقد تضطر تلك الصحيفة، لو أن للصحف ذاكرة، أو أن لها ضميرا، أن تنشر لك اعتذارا مفتوحا. وقد يوجد من بين العلماء عالم ذو إرادة قوية فيحصل لك على منحة دراسية، ومن الممكن حتى أنهم قد يستدعونك لكى تذهب إلى المدينة، وأن يجدوا لك منصبا فى إحدى المدارس، وبهذا يتيحون لك الفرصة لاستخدام المصادر العلمية التى يتيسر وجودها فى المدينة لتمكنك من تحقيق ذاتك، إلا أنه لو كان لى أن أكون صريحا للغاية، فإننى أعتقد أنهم سوف يقنعون بمجرد «محاولة» عمل ذلك كله فحسب!، إنهم قد يستدعونك، فتحضر. لكن فقط كواحد عادى من

ملتمسي المصالح كغيره من آلاف الآخرين، لكن ليس كحالة جادة. إنهم سوف يمجدون جهودك المخلصة، إلا أنهم سوف يرون، في نفس الوقت، أنك رجل عجوز، وأنه ليس ثمة ما ينتظر ممن هم في مثل سنك، لو بدأوا في دراسة العلوم، وأنك بالإضافة إلى ذلك قد توصلت إلى اكتشافك هذا بمحض الصدفة، أكثر مما توصلت إليه عن طريق القصد المسبق، وأنه ليست لديك - علاوة.على هذا - أية مطامح في مواصلة عملك إلى أبعد من تلك (الحالة) الوحيدة، و.. يحتمل لهذه الأسباب أن يعيدوك ثانية إلى قريتك، وسوف يجد اكتشافك بالطبع من يقطع به شوطا أبعد! ذلك أن احتمال أن ينساه الناس ثانية، ليس أمرا على هذه الدرجة من السهولة بعد أن أثار ذات مرة اهتماما ما، إلا أنك لن تسمع بعد ذلك الكثير عنه، وما قد تسمعه فنادرا ما قد تفهمه. إن كل اكتشاف جديد يتحول فورا إلى إضافة لمجموع. المعرفة العامة، وعلى نحو ما - تبعا لهذا - ينتهي باعتباره اكتشافا. إنه ينوب في الكل ويختفي، وينبغي أن تكون للمرء نظرة علمية خبيرة حتى يتسنى له أن يتعرف عليه بعد ذلك، لأنه يكون قد التحم بالبديهيات الأساسية التي لا نحس حتى بوجودها. إن هذه الاكتشافات لترتفع فوق هذه المناقشات العلمية، وترتفع، بعيدا فوق السحب، فكيف يتسنى لنا أن نتوقع وجود مثل تلك الأشياء أمامنا، ولقد يقع في روعنا في أغلب الأحوال إذا استمعنا إلى إحدى المناقشات الثقافية، أنها تدور حول اكتشافك، بينما هي تتناول في الواقع شيئا مختلفا تماما، وفي أحيان أخرى حينما نظن أنها تتناول شيئا آخر، وأنها لا تتعلق باكتشافك مطلقا، فمن المحتمل أن يتضح أنها كانت تتناول اكتشافك، ولا شيء سواه.

ألا تعتقد أنت ذلك. إنك سوف تبقى فى قريتك، وإنك سوف تصبح قادرا بشكل أفضل قليلا على أن تطعم أسرتك، وتكسوها بالمال الإضافى، لكن اكتشافك سوف يخرج من بين يديك، وبدون أن تكون قادرا على أن تحتج، ذلك أنه فى المدينة وحدها يمكن لأى اكتشاف أن يبلغ ذروته. ولن يكون الناس جاحدين تماما لفضلك، فربما أقاموا متحفا صغيرا فى البقعة التى تم فيها الاكتشاف، وقد يبدو ذلك المتحف واحدا من معالم القرية، وقد يعهد إليك بالاحتفاظ بمفاتيحه، وهكذا، فإنك سوف لا تعدم بعض الدلائل المادية الشرفية، وفى وسعهم أن يمنحوك ميدالية صغيرة، لتثبتها فوق صدر معطفك، ميدالية مثل تلك الميداليات التى يضعها هؤلاء المشتغلون بالمؤسسات العلمية. كل هذا من الممكن حدوثه، لكن.. هل هذا هو ما كنت تريده؟.

وبدون أن يتريث لكى يجهز رده، اتجه نحوى قائلا :

- وهكذا فإن هذا هو ما أردت أن تحققه لى؟.

قلت : ربما، إننى لم أكن قد أدركت ما كنت أفعله بما فيه الكفاية فى حينه، حتى أكون قادرا على أن أوضح لك ذلك الآن تماما، لقد رغبت فى مساعدتك، إلا أننى فشلت، وقد كان أقسى فشل واجهته فى حياتى، ولهذا أردت أن أنسحب الآن، وأن أهدم كل ما بنيته بقدر ما أستطيع.

قال المدرس، وهو يخرج غليونه، ويبدأ فى ملئه بالتبغ الذى كان يحمله سائبا فى كل جيوبه: حسنا، حسنا، لقد قمت بذلك العمل الجاحد بمحض إرادتك، والآن تتنحى بمحض إرادتك، وعلى هذا، فليكن الأمر كما تشاء!.

قلت : إننى لست رجلا متشبثا برأيه، هل ترى شيئا لا تقره فى طلبى هذا؟.

ـ لا، لا شىء البتة!.

قال المدرس ذلك، وكان قد بدأ فى تدخين غليونه، ولم أحتمل رائحة تبغه، وهكذا نهضت، ورحت أذرع الحجرة ذهابا وجيئة. كنت معتادا من مقابلات سابقة على صمت المدرس البالغ، وعلى حقيقة أنه على الرغم من صمته، لم تكن تبدو عليه أية رغبة فى أن يتحرك مغادرا حجرتى عندما يكون فيها أى مرة، ولقد ضايقنى ذلك كثيرا من قبل، وكنت أفكر فى مثل تلك الأوقات، فى أنه يريد شيئا أكثر من ذلك، فكنت أعرض عليه النقود التى كان يتناولها بالفعل ببساطة تامة، إلا أنه لم يكن يرحل إلا عندما كان يروقه ذلك، وعندما يكون غليونه قد أوشك على الانتهاء، كان يزحف بمقعده فى تكلف وعظمة نحو المنضدة، ومن ثم يدور حولها دورة، زيتحسس شجيرة زهر الغابة التى كان قد أحضرها، والتى كانت تستقر فى أحد الأركان، ثم يشد على يدى فى حرارة، و.. ينصرف.

إلا أن وجوده الصامت اليوم، وهو جالس أمامى فى الحجرة، كان عذابا لى بالفعل. فعندما يودع شخص ما شخصا آخر وداعا أخيرا كما فعلت، فيجب أن يقبل ذلك الوداع بنية صادقة، ويجب ـ بالفعل ـ أن تنقضى الرسميات المفتعلة المتبادلة التى تتبقى بعد ذلك سريعة بقدر الإمكان، ولا ينبغى أن يثقل المرء على مضيفه دون مبرر، بوجوده الصامت، وقد بدا لى بينما كنت أتأمل ذلك الشخص الضئيل العجوز العنيد من الخلف، بينما كان جالسا إلى المنضدة،.. بدا لى مستحيلا حتى التفكير فى أن أشير له إلى الباب.

محتوى الكتاب

إشـــارات

المؤلف : فرانتس كافكا

روائي وكاتب نمسوى تشيكى ولد فى براغ ١٨٨٣، وقع منذ بدء حياته فريسة لضعف صحته وصرامة أبيه، وبعد حصوله على درجة الدكتوراه فى القانون أتاح له عمله فى مؤسسة التأمينات العمالية أن يستغل وقته فى الكتابة. ويبدو أن علّته «السل» قد شحذت موهبته، فكان يكتب وكأنه يقرأ المستقبل، فتنبأ بمجيء الديكتاتورية ومعها كل ما يتيح لها أن تسحق «الفرد» من خلال آلة قاهرة تتجسّد فى صورة الدولة. قضى حياته مغموراً ككاتب، وبمعرفة صديقه «ماكس برود» تم حفظ أوراقه وكتاباته وقصصه، ونشرها تباعاً. توفى فى أوج تجربة غرامية يائسة مع «دورا يمانت» التى كانت ترافقه فى مصحة بالقرب من ڤيينا حتى رحل ١٩٢٤ . من أعماله : القضية «١٩٢٥» ، القصر «١٩٢٦»، أمريكا ـ رواية غير مكتملة «١٩٢٧» ، بالإضافة إلى القصص واليوميات والرسائل.

المترجم : الدسوقى فهمى

كاتب قصصى وفنان تشكيلى ومترجم. مواليد ١٩٢٨ منوفية. تخرج فى كلية الفنون الجميلة، القاهرة، قسم تصوير ١٩٦٢ . حصل على دبلوم دراسات عليا فى الآثار المصرية من آثار القاهرة ١٩٧٣ . عضو مؤسس بنقابة الفنانين التشكيليين واتحاد الكتّاب. مراقب عام الرسم الأثرى بهيئة الآثار «سابقاً». اعتزل الوظيفة ١٩٩٣ وتفرغ للتصوير والكتابة. من ترجماته : «أمريكا» لكافكا، روايات الهلال ١٩٧٠ .

الفنان : الدسوقى فهمى

شارك فى الحركة التشكيلية رسماً وكتابة فى مجلات وصحف عديدة «الإذاعة، المساء، الهلال، صباح الخير، الكاتب، ...» وله عدة معارض عامة ومعرض خاص بالطفولة فى مصر القديمة ١٩٨٠ بقصر محمد على. تتميز أعماله بالحفاظ على القيم الكلاسيكية: فى البناء، والتوازن، والتساوق، والتناظر، جنباً إلى جنب، مع إحداث الشحنة التعبيرية الضرورية اللازمة لاستمرار العمل الفنى فى توليد انفعالات الحياة، والحركة، والوصول للمتلقى دونما غموض أو إبهام.

لوحة الغلاف : العازفة ١٩٩٣ ، ١٠٢ × ٩٨ سم، فحم على ورق.

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٥ ـ يونيو ٩٦)

النظرية الأدبية المعاصرة
تأليف : رامان سلدن
ترجمة : د. جابر عصفور

مدن الأخوين
أشعار
ترجمة : أحمد ع. حجازى

صحراء التتار
رواية : دينو بوتزاتى
ترجمة : موسى بدوى

الحب
رواية : مارجريت دورا
ترجمة : د. فوزية العشماوى

أساطير
تأليف : رولان بارت
ترجمة : سيد عبد الخالق

نشيد بحرى
شعر : فرناندو بيسوا
ترجمة : المهدى أخريف

هبة الطوطم
أساطير الهنود الحمر
ترجمة : راوية صادق

أزهار الشر
شعر : شارل بودلير
ترجمة : محمد أمين حسونة

مرآة الحبر
نصوص : بورخيس
ترجمة : محمد عيد أبراهيم

النظرية الأدبية المعاصرة (ط ٢)
تأليف : رامان سلدن
ترجمة : د. جابر عصفور

الشعر والتجربة
تأليف : أرشيبالد مكليش
ترجمة : سلمى الخضراء الجيوسى

رامبو وزمن القتلة
تأليف : هنرى ميللر
ترجمة : سعدى يوسف

مداخل الشعر
تأليف : باختين . لوتمان . كوندراتوف
ترجمة : أمينة رشيد . سيد البحراوى

باختين : المبدأ الحوارى
تأليف : تودوروف
ترجمة : فخرى صالح

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٦ ـ يونيو ٩٧)

رقم الإيداع ٥٧٤٨ / ٩٧

المركز المصرى العربى ت : ٥٨١٥٦٠٧

فرانتس كافكا 1

كان كافكا يستعين فى كلامه بأعضاء جسمه ووجهه، وإن استطاع أن يكتفى بحركةٍ فعل، وكان بسيطاً خجولاً، فكأنما يقول لمحدثه: أرجوك، إننى أقل كثيراً مما تظن، وإنك لتستطيع أن تُسدى لى خدمة كبرى إذا ما تجاهلتنى.

هو اليائس، الصامت، المعذّب، المريض، وأحياناً المجنون. سمة حياته البارزة هى الغضب، الذى يولّده القلق، والذى يُحيل نفسه إلى أبخرة سامة عند ملامستها الحياة.

بعد فترة طويلة، آن لأعمال **كافكـــا** الكاملة أن تظهر، ففى هذا القسم الأول نجد: **التحـــول. ســـور الصين العظيم. أبحاث كلـب. الجحـر. فى مستعمرة العقاب. الدودة الهائلة.** قصص باهرة، استبطانية، كالهبوط إلى القوى المظلمة، تصف العزلة وتغترب عن الواقع إلى حدّ الانشقاق، فتهرب إلى عدمية النبذ والصراع مع الرعب، فى سرد غريب لا تدرك معه أأنت فى واقعٍ أم كابوس:

(... وبعد إجهاد عنيف، لم أعد قادراً على التفكير، فقد كان رأسى يتطوّح، هبطت تاركاً الباب مفتوحاً فى ذهولى... وهكذا استلقيت أخيراً، فوق الأتربة المصطبغة بدمائى، وصار فى وسعى الآن أن أحقق رغبتى فى النوم.)

إنه كافكـــا، وكفى! ★

الثمن
جنيهـان

المركز المصرى العربى